

لجماعة من العلماء

المجموعة الثانية

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٣٧١ وما بعدها = ١٩٥١ وما بعدها دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م. بيروت

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقياً: اسلامي

مُقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم محمد بن لطفي الصباغ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أما بعد.

فإن الجامعة السورية كانت في الأصل ثكنة عسكرية ، أقامها العثمانيون في ظاهر البلد دمشق، على عادة الدول في إنشاء ثكنات الجند، يجعلونها خارج المدينة.

وكان في وسط تلك الثكنة مسجد؛ لأنّ الحياة العسكرية والمدنية كانت ما تزال قائمة على أساس الإسلام.. فلا بُدَّ من قيام المسجد في كل مؤسسة من مؤسسات الدولة المسلمة. وكُنَّا ندعوها : بالقشلة الحميدية، نسبة إلى بانيها السلطان عبد الحميد العثماني.

وخرجت تركيا من بلاد الشام.. وجاء الفرنسيون مستعمرين، فاحتلوا الثكنات، وأنزلوا فيها جنودهم، وكانت القشلة الحميدية

واحدة منها، وإمعاناً منهم في الإساءة إلى هذه الأمة المنكوبة اتخذوا المسجد لأمور أخرى هي أبعد ما تكون عن حرمة المسجد.

وعانت الأمة من بطش الفرنسيين ما عانت.. ولكنّها لم تلن لها قناة معهم، ولا استسلمت لجبروتهم مدة بقائهم، وقاومتهم بالإسلام وتحت لوائه، واستطاعت هذه الجموع المسلمة بفضل من الله أن تحرر بلادها من الاستعمار، وأن تطرد الفرنسيين وأن تبدأ العهد الوطني.. فأقامت الحكومة الوطنية، وكانت جماهير الناس المتدينين تبني آمالاً على العهد الجديد. وكان مما صنعته تلك الحكومة الوطنية أن اتخذت هذه الثكنة مقرّاً للجامعة السورية التي أنشأتها في مطلع عهدها، وكانت كلياتها هي الطب والحقوق والصيدلة والعلوم والآداب [1]. وكليتا الطب والحقوق كانتا في أيام العهد الفيصليّ والانتداب بعنوان المعهد الطبي ومعهد الحقوق.

وقد ذكر أستاذنا الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله أنّ هذا المكان الذي تقوم فيه تلك الثكنة والمستشفى الوطني الذي أصبح فيما بعد مستشفى الجامعة، وكنا ندعوه قبل ذلك: بمستشفى الغرباء، هذا المكان هو: مقبرة الصوفية التي كانت خارج دمشق، وقد دفن فيها - كما تحدثنا كتب التراجم - عدد كبير من رجالات العلم والسياسة والجاه والثروة، وما يزال قبر شيخ الإسلام ابن تيمية فيها معروفاً حتّى الآن.

---

(١) ثم انشأت الجامعة كليات أخرى كالزراعة والشريعة والهندسة..

فصار طلاب الجامعة يُصلُّون في المسجد القائم في وسط الجامعة، وكان مكاناً مهجوراً كأنّه مستودع، فعاد إلى الغرض الذي بني من أجله، وهو عبادة الله وإقامة الصلاة وذكر الله وقراءة القرآن.

وكان هذا المسجد شجىً في حلوق عدد من الطلبة والأساتذة الذين لا يريدون أن تصطبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية، ذلك لأنّ أعداءنا استطاعوا - مع الأسف - أن يخدعوا شباباً من شبابنا ويزينوا لهم سبيل الغيّ، ويلبِّسوا عليهم قائلين: إن سبب تخلفكم هو ارتباطكم بالدين.. انظروا إلى أوربا: عندما كانت متمسكة بدينها كانت متخلفة متأخرة متناحرة، فلما جعلت دينها وراء ظهرها، ونحته عن حياتها، وأعرضت عن تعاليمه، تحسنت أحوالها وتقدمت وانتظمت شؤونها، وترقت في مجال العلم والاختراع والانتاج.. لقد كان هؤلاء المخدوعون يريدون اقتلاع المسجد... ولكنهم لم يستطيعوا..

وبعد أربع سنوات من نشوء الجامعة دخلتُ كلية الآداب في سنة ١٣٦٩ - ١٣٧٠ (١٩٥٠ - ١٩٥١) إذ أنشئت الجامعة سنة ١٣٦٥ - ١٣٦٦ (١٩٤٦ - ١٩٤٧) أي بعد جلاء الفرنسيين عن بلاد الشام. وكان المسجد ما يزال يتعرض للكيد والمكر.. فشكلت أول لجنة لهذا المسجد وكانت مؤلفة من الأخ سعيد الطنطاوي والأخ هيثم الخياط وكاتب هذه السطور، وكنا كلما

سمعنا بخبر يتصل بكيد للمسجد شكلنا وفداً كبيراً من الطلاب ودخلنا على رئيس الجامعة نطالبة ببسط وحصر وتهيئة مكان لوضوء الطلاب ، وكان وقتذاك الدكتور قسطينطين زريق . وهو أستاذ لبناني الجنسية ، أعير من الجامعة الأميركية في بيروت . وكنّا نصل في أحيان كثيرة من وراء هذه المقابلات إلى غرضين هما: ترسيخ أركان المسجد ، والفوز بعدد من البسط والحصر والإصلاحات.

* * *

وفكرت اللجنة بوسيلة تثبّت بقاء المسجد إلى الأبد، وتقطع على الخصوم طريقهم فكان اقتراح أن تُصلى الجمعة فيه.

وكانت الصعوبة في وصول المصلين إلى المسجد، والطلبة يوم الجمعة قليلون، والجامعة في خارج البلدة، لأن دمشق كانت ما تزال في حدودها التي أدركناها. . لم تتوسع هذا التوسع الذي يراه المرء اليوم.

وقد قررنا ـ من أول يوم ـ أن نقيم صلاة الجمعة فيه على السُنّة، وأن لا تكون فيه بدعة من البدع التي تعج بها مساجد الشام ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وبدأنا ـ نحن أعضاء اللجنة ـ ننشط في إقناع الطلاب بأن يؤدوا صلاة الجمعة في مسجد الجامعة. . وصلينا أول جمعة وكان عددنا قليلاً جداً.

ثم رأينا أن نطلب من خطيب من خطباء الشام المشهورير أن يخطب الجمعة في هذا المسجد، ثم سعينا لدى مديرية الأوقاف

ومديرية الاذاعة لنقل الخطبة من خلال إذاعة دمشق من المسجد. ولم تكن في ذاك الوقت وزارة للأوقاف ولا وزارة للإعلام. ورأينا أنّ ذلك يكون دعوة لقصد هذا المسجد والإقبال على الصلاة فيه.. وتمّ لنا ما أردنا.. وكررنا هذه التجربة مرات.

ولم يمض وقت طويل حتى أضحى المسجد مقصوداً من كل نواحي المدينة. وكان يؤمه نوعان من الناس:

المثقفون الذين يتطلعون إلى سماع خطبة من مستوى مرتفع في المعنى والأسلوب.

ومحبّو السنة الذين يكرهون البدع وينفرون منها ولا يجدون مسجداً واحداً يخلو منها غير هذا المسجد.

وكثر عدد المصلين فيه حتى أصبحوا يملؤون الحدائق الواقعة في وسط الجامعة المحدقة بالمسجد والحدائق المحيطة بالجامعة وأروقة كلية الطب [1].

وجن جنون المبتدعة كيف يقوم في دمشق جامع لا بدعة فيه. وحاولوا إرسال نفر من أتباعهم ليقرؤوا فيه شيئاً مما يتصل ببدعهم، فعمد واحد منهم - نسأل الله له الخير والتوفيق والنجاة - إلى قراءة شيء من ذلك وكانت الصلاة منقولة بالاذاعة، فطلبت من المؤذن أن يؤذن فوراً.. فأذّن وذاك يقرأ.. ولم نمكنه من إحلال البدعة في هذا المسجد.

---

(١) وهي امكنة واسعة جداً.

وكنّا نخاف أن يرسل هؤلاء المبتدعة ناساً يفرضون بدعهم بالقوة فتقع فتنة ويقوم صدام، يؤديان إلى إغلاق المسجد ـ وبلغنا أنهم أعدوا لذلك فقام الأخ الكريم زهير الشاويش بتصرف فيه حكمة وفيه تخويف هؤلاء القوم من أن يقدموا على إثارة الشغب والتشويش، فصرفت الفتنة واستمرّ المسجد على السُّنة من غير بدعة، وبقيت خطبة الجمعة فيه.

* * *

وكان مسجد الجامعة منبراً حرّاً جريئاً، تقال فيه كلمة الحق بقوة وإقدام، لا يبالي الخطيب بالمتاعب والعقبات ولا يخشى في الله لومة لائم.

وما زلت أذكر خطبة أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي التي أنكر فيها على مدارس دوحة الأدب ما قامت به في حفلتها السنوية التي ـ كان فيها رقص البنات أمام الناس الأجانب على وجه يخالف الحشمة والآداب الإسلامية ـ.

وأعلن أن كل من أرسل بنته لهذا الحفل فهو: ديوث ـ كما يقضي بذلك حديث صحيح ـ وكانت الخطبة تنقل بالإذاعة فقطعت الاذاعة ولكن بعد أن قال الخطيب كل ما يريد أن يقول. وعوقبت الموظفة التي كانت مسؤولة عن المراقبة واسمها فاطمة البديري (زوجة المذيع عصام حماد).

ولما أقيم أول صنم في دمشق ليوسف العظمة خطب أحد

أعضاء لجنة المسجد خطبة في إنكار هذا المنكر . وقد جرّت عليه هذه الخطبة ـ من جراء الملاحقة ـ بعض التكدير والتعب[1] .

* * *

وهكذا استمرّ مسجد الجامعة يؤدي دوراً قيادياً في بلاد الشام . . أيّام الوحدة مع مصر . . فقد كانت تنطلق منه كلمة الحق مدوية لا تعرف المداهنة ولا المجاملة ولا الخوف . أذكر أنه تعرّض بعض أساتذة الدين إلى الإيذاء والتعذيب من قبل بعض رجال السلطة في ذاك العهد، فأنكر ذلك أشدَّ الإنكار خطيب المسجد، وكان يومها الأستاذ عصام العطار، وكان لكلمته أثر طيب في رفع هذا الأذى عن هؤلاء المدرسين الفضلاء .

ثم كانت الستينيّات وتعرّضت بلاد الشام لهزات سياسية شديدة ، ولم يكن في كثير من الأحيان للبلد مؤسسات دستورية ولا شعبية فكان مسجد الجامعة هو الصوت الذي يعبّر عن رغبات الأمّة وآلامها، وكان الأستاذ عصام يقود فكر الأمّة ويوضح للناس المواقف السياسية التي تمّر بها بلادهم .

أما الخطباء الذين كانوا يقومون بخطبة الجمعة في هذا المسجد فقد كانت لجنة المسجد هي التي تختارهم وكانوا ينتقون انتقاء دقيقاً ، وممن أذكره منهم : الأستاذ مصطفى السباعي والأستاذ أديب صالح والأستاذ عصام العطار والاستاذ مصطفى الزرقا

---

(١) هو كاتب هذه المقدمة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد الصباغ ـ الناشر ـ

والأستاذ أحمد مظهر العظمة والشيخ محمد بهجة البيطار ، والاستاذ أمين المصري . وعدد من أعضاء لجنة المسجد . وغيرهم .

وكان إذا قدم زائر من أهل العلم إلى دمشق دعي لإلقاء الخطبة في هذا المسجد وأذكر من هؤلاء العلماء أبا الحسن الندوي .

ثم تغيرت الأحوال وارتقى هذا المرتقى الصعب ناس آخرون .

* * *

وكان للجنة المسجد مجالات أخرى من النشاط سأذكر أربعة منها وهي : الرحلات، والمحاضرات، وتحقيق بعض المسائل العلمية، والنشر :

١ ـ أما الرحلات فقد كانت اللجنة تنظم في كل سنة رحلة أو رحلتين، تدعو إليها الطلاب المتدينين من كليات الجامعة كلها، وهم من محافظات متعددة ، ليتم التعارف والتعاون بينهم على الخير وعلى الالتزام بأحكام الإسلام .

ويكون في برنامج هذه الرحلة درس توجيهي، وكانت هذه الرحلات في بساتين الغوطة الجميلة، وربما صاحبنا فيها بعض الأساتذة من أمثال أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله .

وكان لهذه النزهات أثر كبير في التعاون على خدمة المسجد .

٢ ـ وأما المحاضرات فقد كانت اللجنة تدعو إليها الطلاب عامة وغالباً ما تكون بعد صلاة المغرب، والمحاضرون من أساتذة الجامعة ومن علماء البلد ، أو ممن يفد إلى دمشق وأذكر منهم الآن

استاذنا الشيخ علي الطنطاوي، وما زلت أذكر عنوانين لمحاضرتين ألقــاهما وكان لهما صدى كبــير هما : (الانســـان حيوان ديّن) و(العربية والإسلامية). وأذكر منهم أستاذنا الدكتـور مصطفـى السباعــي، وكان عنـــوان محـــاضرة من محاضراتــه (اشتـــراكية الإسلام).. وقد وسّعها فيما بعد وألقاهـا في مدرج الجامعـة، ثم طبعها في كتاب [1]، ومنهم أستاذنا الأستاذ أحمد مظهر العظمة [2]. وكنّا نطبع بطاقات دعوة، ونضع إعلانات لهذه المحاضرات.

٣ ـ وأما تحقيق بعض المسائل العلمية فأذكر أنَّ مسألة واجهتنا تتعلق بأذان يوم الجمعة متى يكون؟ ونشأ خلاف بين الطلبـة في هذا الموضوع، فاتفق رأينا أن نكتب أسئلة ونوجهها إلى عدد من العلماء... وفعلنا، ولكنـي لا أذكر أنَّ أحـداً من أولئـك العلماء المسؤولين أجابنا غير الأستاذ المحدّث الشيخ محمـد ناصر الـدين الألباني، وقد نشر جوابَهُ هذا الأستاذ زهـير الشـاويش صاحـب المكتب الاسلامي في رسالة مستقلة بعنوان :

« الاجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة ».

جزاه الله خيراً.

٤ ـ وأما النشر، وهذا هو المجال الذي يهمني في هذا التقديم، فلذلك قصة أوردها فيما يأتي :

---

(١) وقد بلغني أنه رجع عن رأيه، وقد أراد أن يكتب كتاباً يبين ذلك.

(٢) انظر ترجمته في مجلة الدعوة التي تصدر في الرياض تاريخ ١٨/١/١٤٠٤.

كانت في دمشق مجلة إسلامية تصدر اسمها (المسلمون) وقد كتب فيها أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي مقالة رائعة بعنوان (يا بنتي) فجاءني أستاذنا الشيخ محمد بدر الدين الفقيه المصري [١] العالم السلفي يذكر لي إعجابه بهذه الكلمة ويقترح أن تطبع على شكل رسالة وتوزع على الطالبات وآبائهن وعلى الناس عامّة، وأبدى استعداده للإسهام بالكلفة، ودفع مبلغاً لا بأس به بالنسبة إلى وضعه الماديّ، وكان رحمه الله فقيراً عفيفاً كريماً، فوعدته أن أفكر في اقتراحه وأعمل على تنفيذه.

وفي اليوم التالي عرضت على اللجنة إنشاء فرعٍ للنشر ينبثق عن اللجنة وينشر في كل شهر رسالة صغيرة توزع بالمجان. وقلت : إن التكاليف يسيرة ويمكن أن تنهض بها تبرّعات المحسنين وإسهام بعض الطلبة القادرين، واقترحت أن تكون مقالة (يا بنتي) الرسالة الأولى في هذا المشروع. واستطعنا بفضل الله طبع هذه الرسالة، وقد وزعت على طالبات الجامعة كلهنّ بالمجان، فما بقيت طالبة تتردد على الجامعة إلاّ أعطيت نسخة منها، وكان لها أثر حسن، وتلقّاها الناس بالقبول، وقد كتب لهذه الرسالة بعد طباعتنا لها من الذيوع والانتشار والشهرة شيءٌ كثير، فلقد طبعت في عدد من البلدان.

---

(١) كان إمام جامع عنابة في حيّ الحقلة من حي الميدان في دمشق وهو شقيق العالم الجليل الشيخ عبد المهيمن أبو السمح أمام الحرم المكي وقد كتبت للشيخ محمد بدر الدين ترجمة موجزة أرجو أن أنشرها في مجموعة تراجم لعلماء معاصرين.

وكانت الرسالة الثانية للأستاذ سيد قطب، وقد اغتنمنا مجيئه إلى دمشق لحضور اجتماعات حلقة الدراسات الاجتماعية التابعة لجامعة الدول العربية، فأستأذنّاه بأن يسمح لنا بأن ننشر محاضرته التي ألقاها في هذه الحلقة بعنوان (نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام) فكانت الرسالة الثانية .

ثم تتابعت الرسائل، واستمرّ من جاء بعدنا يتابع العمل الذي بدأناه حتى قارب عدد هذه الرسائل المئة .

ولا أدعي أن تلك الرسائل كلها على مستوى واحد، ولا أوافق على كل ما جاء فيها، ولكنني أحسب أن هذه الرسائل أدّت مهمة كبيرة مع قلة الإمكانات المادية في ذلك الوقت وقلة الخبرة وضآلة معرفة المشرفين عليها، وهذا يلفت أنظارنا إلى أهمية الرسائل الصغيرة . . إذ تقرأ هذه الرسالة في خمس دقائق، وتوضع في الجيب وهي عظيمة النفع إن كانت مكتوبة بالأسلوب المناسب، وعرضت أفكارها بالصورة المناسبة .

وإنني لأتوجه إلى إخواني أصحاب دور النشر من الإسلاميين وهم كثرة ولله الحمد أن يولوا هذه الناحية ما تستحق من الاهتمام [١] .

إننا نريد أن نُغْرق السوق بسيلٍ من الرسائل الصغيرة التي يعكف على كتابة موضوعاتها المتعددة مختصُّون، وينبغي أن تكون

---

(١) وصلت مقدمة الاستاذ الصباغ بعد أن تم طبع أكثر الرسائل لتكون مجموعة ذات أجزاء. ونأمل إن شاء الله أن نعيد طبع عدد منها رسائل مفردة ـ الناشر ـ

هذه الموضوعات حيّة تتصل بواقع الناس وتعالج مشكلاتهم، وأن يكون سعرها يسيراً حتى يشتريها الطالب والأستاذ والرجل العاديّ.

* * *

وإنني لأشكر أخي المجاهد الأستاذ زهير الشاويش صاحب المكتب الاسلامي على استجابته لطلب أخي الكبير الأستاذ عبد الرحمن الباني الذي اقترح عليه إعادة نشر هذه الرسائل من جديد وأشكر له طلبه من العاجز كاتب هذه السطور أن يكتب مقدمة لهذه المجموعة.

* * *

هذا وقد كتبت ما كتبت وأنا بعيد عن أوراقي وعن النسخ الأولى من هذه الرسائل، ولكنني شهد الله وجدت متعة عظمى في العيش في ذكرى تلك الأيام الزاخرة بالنشاط على الرغم من ظروفٍ صعبة كانت تمرُّ بها بلادنا الحبيبة. سقى الله أيام الجامعة.. تلك الأيام التي كانت الدعوة فيها متاحة للدعاة. وحيّى الله بلاد الشام التي كانت، وستبقى إن شاء الله، بلد الإسلام التي أخرجت الأوزاعي والنووي والعز ابن عبد السلام وابن تيمية والذهبي والمزي وابن القيم وابن كثير وغيرهم كثير. وستخرج من يتابع طريقهم، ويحمل لواء الاسلام والدعوة من بعدهم فلقد

شهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهذه البلاد بأنها خير بلاد الله في أرضه كما جاء في حديث عبدالله بن حوالة الصحيح [1].

وحيًّ الله أولئك الجنود المجهولين الذين كانوا يملؤون حياتهم بأعمال حققت قدراً من الخير لدعوتهم وبلادهم.. ورحم الله من سبق إلى دار البقاء منهم.

إنّ ذكريات الجامعة ذكريات عميقة الجذور في نفسي.. وقد أتاحت لي كتابة هذه المقدمة أن أراجعها وأتذكر كثيراً من معالمها وأحداثها وأحيى في جوها العبق.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. والحمد لله رب العالمين.

الرياض في ١٨ المحرم ١٤٠٥ هـ

وكتبه

محمد بن لطفي الصباغ

---

(١) احاديث فضائل الشام. صفحة ٢٦.



شريعة الأحرار لا شريعة الخانعين

للأستاذ
أبي الأعلى المودودي

ذو القعدة ١٣٨١



مُقـدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خصّ نفسه بالعزة وأمد بها المؤمنين وغضب على اليهود وكتب عليهم الذلة ووسم بها المنافقين وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الكريم الذي بعث في أصحابه روح العزة، فكان منهم الجيل المثالي، الذي قلب المدنيات الزائغة. ودحر الحضارات الضالة، ووضع الأسس السليمة للبناء الصحيح، فارتفع - بهذه النفوس الكبيرة - متيناً عالياً شامخاً، فاندكت امامه صروح الباطل وتهاوت ابراج الزيغ وأصبح شباب محمد ﷺ أساتذة الدنيا وقادة الحياة ونماذج الخير في الأرض. .

ثم بدأت الوجوه تنحرف عن الوجهة التي اتجه اليها أهل ذلك الجيل المثالي، والنفوس تغفل عن غايتهم، والاقدام تزل عن طريقهم، وأخذ الاسلام يغيض من حياتهم. غاضت سمة الاسلام من الوجوه، لتحل محلها سمة النساء والكفار، وغاضت من الثياب والأثاث، لتحل محلها هيئة الفرنج والأعداء، وغاضت من العقول لتحل محلها الثقافات الضالة والمقاييس المنحرفة، وغاضت من السلوك لتحل محلها العادات المنحرفة والأعمال

الشاذة، وغاض بذلك من القلوب أهم ما فيها هذا الايمان الراسخ وهذه العزة الكريمة، التي لم يكن العدو يرهب شيئاً كما يرهبها، والتي كانت تتحطم قواه وجيوشه ومكائده ومحاولاته على صخرتها، فركز جهوده على خنقها واماتتها في هذه النفوس حتى يسهل عليهم اقتلاع قوة هذه الأمة وسومها الخسف :

أعداؤكم يخشون سيـ ف يقينكم قبل السيوف
ومرادهم أن تسرعوا بالخوف من قبل الحتوف
حتى تروا نظراتهم مثل الخناجر في الصدور
وهناك يقتطفونكم من أرضكم قطف الزهور

ونتج عن هذا الجهل بالاسلام، وهذه الرهبة من الغرب، أن أخذ أصحاب النفوس الصغيرة من هؤلاء يتساءلون، هل يمكن لهذا العدو القاهر أن يقهر؟ ولهذا الفساد المتمكن أن يقتلع؟ وللاسلام أن يحكم من جديد؟وتجيب الذلة المتمكنة من نفوسهم أن هذا أمل بعيد، ولا يدركون ان الله القوي القادر ما زال قوياً قادراً، وأن وعده بنصرة من ينصره هو الوعد الحق وان الملائكة العظام جند الله ينصر بهم من يشاء ويهلك بهم من يشاء، وان قوى الأرض من ملك الله يسخرها لمن يشاء ويسخرها على من يشاء. وان الفرنسيين لما أحاطت جيوشهم الضخمة وأساطيلهم الجبارة، بالمدينة العزلاء دمياط، زمن الحروب الصليبية، ولم يستطع الجيش الاسلامي القليل أن يرد هذا العدو الكلب، واشتد الأمر بالرياح العنيفة تؤذي المسلمين وتقتلع خيامهم، هنالك ارتفع

صوت مجلجل من شيخ مسن ضعيف، هو العز بن عبد السلام : يا ريح خذيهم يا ريح خذيهم، يا ريح خذيهم. واذا بالريح يتغير اتجاهها فتعود على الفرنسيين تفرق صفوفهم، وتغرق سفنهم، وسيوف المسلمين تلاحقهم، حتى وقعت بهم الهزيمة، لما صحت من أولئك العزيمة، وارتفع صوت من المسلمين يقول : الحمد لله الذي جعل من أمة محمد ﷺ من سخر له الريح! انهم ينسون هذا ويجهلون آلاف الحوادث التي يغص بها التاريخ، كان المسلمون في كل منها أضعف - من حيث المادة - منهم الآن، واعداؤهم أقوى من أعدائهم الآن، ولكنهم اعتزوا بالله وطلبوا النصرة من الله، فانتزعوا النصر من صميم الهزيمة، وتلاشى الباطل لما أشرقت أشعة الحق.

والعالم الاسلامي ينوء الآن بأوبئة ثلاثة أورثت هذا الفساد الكبير وهذا الانحراف الخطير : نفوس ذليلة نسيت طعم العزة، وقلوب غافلة انصرفت عن معاني الآخرة وابتعدت عنها وغرقت في الدنيا والمادة الى العنق، وعقول سطحية منحرفة تعامت عن البحث عن الحق وعميت عن رؤيته فاصبحت تتيه في الانحرافات وتوغل في الضلالات وهي تظن نفسها سالكة سبيل الحق والرشاد.

والى جانب هذا نلاحظ في مجتمعنا - وفي العالم الاسلامي عامة - كثرة الحوادث والاضطرابات، والفتن والانقلابات، معظمها أريد به الفساد وقام به شريرون، وبعضها أريد منه الخير ودبره

طيبون، ولكن لا أولئك يخيفنا باطلهم ، ويجعلنا ننصرف عن سبيلنا خوفهم، ولا هؤلاء نتفاءل بطيبتهم وتدفعنا الى الاطمئنان محاولتهم. ذلك أن كل عمل - طيب أو خبيث - لا يمهد له وتوضع له الأسس الثابتة المتينة ليقوم عليها، لا يمكن أن يدوم مهما طغى - مؤقتا - وساد.

هبت منذ أيام عاصفة شديدة قذفت الرمال على الناس وملأت شعورهم وثيابهم بالتراب، وارتفعت الأوساخ في الجو وطارت الأوراق الحقيرة فوق الرؤس وارتفع بعضها حتى صار أعلى من السطوح.. ثم.. ثم هدأت العاصفة وعادت الأوساخ والأوراق الحقيرة بعد دقائق الى مكانها الطبيعي على الأرض تحت الاقدام واغتسل الناس وأزالوا عن ثيابهم التراب، وانقضى كل شيء!

وكذلك في الليلة المقمرة المتلبدة بالغيوم، قد يشرق البدر، دقائق من بين السحب، وترى حولك الجلال والجمال والبهاء، ثم يختفي القمر، وينقضي كل شيء.

واذن فلا شيء يخيف من باطل اولئك، ما لم يقيموا له الدعائم المتينة، وهم أعجز من أن يستطيعوا ذلك!

كما ان الخير الذي يقنعنا هو الذي يمهد له التمهيد الصحيح ويقام على الأسس الثابتة بشكل سليم، وهذا يحتاج الى نوع جديد من العاملين، شباب الاسلام، الذين ثاروا على القيود الاجتماعية المنحرفة فحطموها، وترفعوا عن الدنيا المهينة فنبذوها وعافوا الذلة

ولو كانت مع الرفاهية والراحة، فاندفعوا لنيل العزة ولو لقوا من دونها الموت :

الموت والحرية الشماء والشرف المكين
هي خير ما نحيا له وهي الغنى للمؤمنين
أما المفضض والمذهب والمفوف والنضيد
فلقد تركناها لعباد الحطام وللعبيد

هؤلاء الشباب، المخلصين، الواعين، العاملين بهمة عالية، وثبات راسخ؛ وعزم مصمم، وتوكل على الله، واستعانة به، واعتماد عليه، يوقظون القلوب من رقادها، ويحركون النفوس من غفلتها، ويقومون من العقول انحرافها ويوضحون سبل الحق ومعاني الخير، فلا يستطيع بعد ذلك ان ينحرف بهذا المجتمع طاغية غاشم، أو يبث فيه الفساد، خبيث منحرف.

هذه هي المهمة التي يُدعى اليها اليوم شباب الاسلام :

يا شباب الله إهيا نحي مجد المسلمين
نجرع الموت شهياً أو نُرى في الظافرين

هؤلاء الشباب موجودة الآن ولكن عليهم أن يخلعوا عنهم ثوب الاستسلام للوظائف والجاه والمال، ويحطموا قيد الخضوع للمجتمع وما فيه من منحرف العادات والاعراف. . وحينئذ تتوارى في الزوايا هذه الاقزام التافهة العقول، الوضيعة النفوس، التي نرى منها الآن نماذج في مجتمعنا، تعيش حياة الضعة والقذارة والانحراف، وتحسب أن العزة عليها محرمة، والذلة عليها

مضروبة ، والتي صفعها المفكر الاسلامي المعـروف ، أبـو الأعلى المودودي بهذا البحث القيم ، الذي ننشره هنا ، ليبين لهؤلاء الأقزام الاذلة ، انهم لا يليقون بحمل رسالة العزة والعمل لها ، وليكون لنا فيه ، يقظة بعد غفلة ، وعزة بعد ذلة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

لجنة المسجد

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيراً ما تبلغني تعليقات على كتاباتي في موضوع الربا ومعظم تلك التعليقات يتضمن ما يلي :

إن النظام الرأسمالي [1] الذي تدعمه القوى السياسية يحكم حكماً مطلقاً في دنيا الاقتصاد كلها من حولنا. فالنظام الاقتصادي كله قائم على الرأسماليه والرأسماليون وحدهم هم الذين يسيرونه ولا نرى أمة تتقدم بخطى واسعة نحو الرقي إلا تلك التي لا تقيد حرية الانتاج والاستهلاك في نظامها الاقتصادي بأي من الأحكام الدينية أو الزواجر الخلقية.

هذا وقوانا بمجموعها مشتتة متخاذلة، وتغيير نظام العالم الاقتصادي حلم بعيد المنال، إذ ليس لدينا القوة الكافية لتطبيق النظام الإسلامي في الاقتصاد حتى في بلادنا.

وإذا كانت شريعتنا تأبى علينا أن نقوم بدورنا كاملاً في النظام الاقتصادي الوضعي فإن بلادنا ستبقى في مؤخرة الشعوب استفادة من وسائل التقدم والازدهار وسنستمر في انحدارنا الى مهاوي الفاقة، على حين يرقى جيراننا في الغنى والثراء. وسيؤدي بنا فقرنا

---

(١) والآن موضة النظام الرأسمالي وغداً غيره.

الاقتصادي الى الضعف السياسي والانحطاط في الثقافة والأخلاق. . فماذا نستفيد إذاً من تطبيق الشريعة أو تعميم مبادىء الاقتصاد الإسلامي؟

هي في الظروف الحاضرة أي مجال لإصلاح برنامجنا الاقتصادي والتقدم في مضمار النجاح مع مراعاة أسس الاقتصاد في الإسلام؟

فإن لم يكن إلى ذلك من سبيل فلا بد من أخذ أحد أمرين : «إما أن يلاقي المسلمون مصيرهم المحتوم من الاضمحلال وإما أن يضطروا الى الانطلاق من التزام تلك المبادىء باعتبارها لا تجاري تطور العصر».

هذا السؤال غير مختص بمشكلة الربا وحدها وانما ينطبق على مجال أوسع بكثير ولو كانت الحياة الاقتصادية دون سائر نواحي الحياة مؤسسة على غير أساس الإسلام لربما هان الأمر؛ ولكن الواقع غير ذلك. انظروا الى الدنيا من حولكم، بل تأملوا الوضع الذي أنتم فيه! أي جانب من جوانب الحياة قد نجا من سيطرة «اللاإسلامية» أليست جميعاً يحكمها الإلحاد، أو على الأقل تحيط بها الشكوك والأوهام؟ أليس الضلال مسيطراً على مناهج التعليم؟ أليس يحيط الغرب بالثقافة ومظاهر المدنية؟ ألم تتعمق الروح الغربية الى جذور المجتمع؟ وهل الاخلاق والعادات متحررة من سلطانها؟ هل القانون والسياسة والاصول والفروع في فكرة الدولة وتطبيقاتها بعيدة عن تأثيرها؟

ما دامت هذه هي الظروف، فلم حصرتم السؤال في الاقتصاد

وحده، بل في مسألة واحدة من مسائله؟ اجعلـوه أكثـر وضوحـاً واشملوا به سائر نواحـي الحياة. اجهـروا بأن تيار الحياة قد بدل مجراه، فبعد أن كان يسير باتجاه الإسلام أصبح في اتجاه مخالف، ونحن لا نملك القوة التي تعيده الى مجـراه، بل ليس لدينـا قدرة تمكننا السباحة باتجاه معاكس لتياره الحالي. اننا لا نريد أن نبقـى ملتزمـين لكعبـة. وفي نفس الوقـت نحـب أن لا تفوتنـا قافلــة المسافرين الى تركستان! لا بد أن نمضي غير مسلمـين في أفكارنـا ومبادئنا وغاياتنا وحياتنا العملية ثم نبقى مع ذلك مسلمين! . . فإذا لم تجدوا لنا طريقة للتوفيق بين هذه المتناقضات فسنموت على ضفة هذا التيار أو تمحى وشيكاً شارة الإسلام المثبتة على مركبنا ويتحول جارياً في اتجاه التيار.

كلما ناقش من يدعـون بالمثقفـين والعصريين مشكلـة ما كان فصل الكلام عندهم : (هذا هو تيار العصر)، (الريح تهب بهذا الاتجاه)، (هذا هو الحاصل في هذه الدنيا)، فكيف نجرؤ لذلك على المقاومة؟ وإذا نحن قاومنا، هل لنا بقاء؟ فإذا رد عليهم بان الكفاح في هذا المقام مقتضى الشهامة والخلـق قيل لك لقـد تغـيرت قيم الأخلاق آنفاً ولذلك يتعذر على المسلمين التزام المستوى الأخلاقي القديم. فإذا كان النقاش حول حجاب المرأة مثلاً قالوا : لقد ترك العالم استعماله فلا لزوم له، وهذا يتضمن أنه ما دام العالم طرح شيئاً فلماذا لا يطرحه كذلك المسلمون؟ أما فصل الخطاب في قضية التعليم عندهم فقولهم « لا طلب على التعليم الإسلامي في العالم

اليوم » وبعبارة أخرى، لماذا ينشأ أطفال المسلمين على شكل لا رغبة فيه ولا ينشؤون ليكونوا سلعة نافقة؟ وإذا كان الحديث عن الربا بجوابهم الحاضر بداهة: «إن اقتصاد العالم لا يستطيع السير خطوة واحدة بدونه» وهذا معناه أنى يستطيع المسلمون هجر شيء اصبح من الضروريات لتسيير مصالح العالم؟ وهكذا في الثقافة والعلاقات الاجتماعية والأخلاق والتربية والتعليم والاقتصاد والقانون والسياسة وسائر نواحي الحياة - حيث يسيرون في طريق الغرب متنكبين سبيل الاسلام - تجدهم ينتهون إلى (تيار العصر) و(اتجاه الريح) و(سير العالم) في تبرير تقليدهم للغرب أو تماديهم في الضلال.

لماذا تقدمون هذه الاقتراحات التي تحمل الهدم والدمار تفاريق ولا تدمجونها في منهج موحد مفهوم؟ إن من العبث وإضاعة الأوقات تقديم اقتراحات متفرقة لتهديم السور والغرف والشرفة كل على حدة من البناء ثم بحثها آحاداً. لماذا لا تعلنون بصراحة أن البيت كله يجب أن يؤتى من القواعد لأنه لا غناء فيه جملة وتفصيلاً، ولا يتفق ومقتضيات الزمان لأنه لا يناسب اتجاه الريح، وتصميمه في هذا العصر أضحى غير مألوف.

إن من العبث مناقشة من آراؤه الحقيقية من هذا النوع، نقول لأمثاله بتحديد ووضوح: لماذا تتجشمون هدم هذا البناء حتى تنشئوا بناءً جديداً مكانه؟ خير لكم أن تبحثوا عن بيت اخر يناسب أذواقكم ويكون حسن البناء جذاباً جميل الدهان. وإن كنتم

مولعين بالانسياق مع التيار فلماذا تكلفون أنفسكم محو شارة الاسلام عن ذلك المركب مع أنه بامكانكم أن تنتقلوا الى أي قارب جار مع التيار. إن الاسلام عند هؤلاء الذين يدعون مسلمين اسلام لا غناء فيه إذ يجردونه من كل شيء، فهم في آرائهم ومثلهم العليا وسلوكهم الاجتماعي واقتصادهم وتربيتهم وتعليمهم وسائر أحوالهم، هم في ذلك كله ليسوا مسلمين إنهم لا يعبدون الله ولكنهم يتبتلون لشهواتهم العارمة. إن أصبحت الوثنية ملة العصر تراهم وثنيين، وإذا تفشى مذهب العري تجدهم سريعاً ما ينضون عنهم ثيابهم ليعيشوا عراة متجردين، ولو استمرأت الدنيا أكل الأرجاس لقالوا إن الرجس هو الطهارة والطهارة الرجس سواء بسواء.. إن السلطان بيد الغربيين، ولذلك تراهم يتحولون ظاهراً وباطناً في كل قيراط الى غربيين، بل لو أضحى الأحباش في غد أرباب القوة لتجدنهم يتحولون الى زنوج، فيسودون وجوههم ويغلظون شفاههم ويجعدون شعورهم ويهيمون بكل ما يأتي من بلاد الحبش. ان الانسان يأبى أمثال هؤلاء العبيد اطلاقاً، واني لأقسم بالله، لو اسقط هؤلاء المنافقون والذين يفكرون بعقول العبيد من تعداد النفوس الذي تبلغ مئات الملايين فلم يبق من المسلمين سوى بضعة آلاف فيهم هذه الصفات: ﴿يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم..﴾[1] لكان الاسلام أقوى بكثير مما هو الان، واسقاط مئات

---

(1) المائدة: ٥٤.

الملايين هذه يكون بمثابة تخلص الجسم السقيم من خبث الصديد.

إن قولتهم « نخشى أن تصيبنا دائرة » ليست مستحدثة في هذه الأيام؛ فهي قديمة جداً ويجأر بها المنافقون في كل العصور انها دليل النفاق الكامن في الصدور. والذين يرفعون عقيرتهم بهذه الأقوال هم الذين ينحازون في كل عصر الى معسكرات خصوم الاسلام. انهم يرون في حدود الله أغلالاً في أعناقهم وسلاسل في أقدامهم واتباع ما أمر الله ورسوله عبء ثقيل على كواهلهم، هم يحسبون دائماً أن في الطاعة خسارة للمال والحياة، ويرون في العصيان مباهج الحياة. لم تحور احكام الشريعة من البداية لامثال هؤلاء وكذلك لا يمكن تبديلها ولا في المستقبل. ان هذه الشريعة لم تنزل للخانعين الجبناء، ولا لعبيد الدنيا والشهوات، امثال الريش في مهب الريح أو الحشرات الطافية يجرفها مسيل الماء وكذلك لم تنزل الشريعة لاولئك الذين لا يعرفون بصبغة تميزهم انما يتلونون بكل لون يتصل فيهم. لقد نزلت الشريعة لاولئك الاحرار الجريئين الذين في قلوبهم العزم والتصميم على تغيير اتجاه الريح ولديهم الاقدام لمكافحة التيارات وتبديل مجراها، لقد نزلت لاولئك الذين يأبون من الوان الدنيا إلا صبغة الله ويطمحون الى صبغ الدنيا جميعاً بها. ان كل من عرف باسم الاسلام لم يكن ليجري مع التيار حيثما سار، وكل غايته توجيه التيار في المجرى الصحيح الذي يوجه اليه عقيدته وإيمانه. فإذا غير التيار مجراه فسايره المرء في اتجاهه الجديد فهو غير صادق في اعتناق الاسلام. ان المسلم الحق

يقاوم قوة التيار المتحول ولا يألوا جهداً في محاولة تقويم مجراه بغض النظر عن نجاح المسعى في المآل أو اخفاقه انه يتحمل كل خسارة يضحيها في كفاحه وإذا كسر في الصراع ذراعه وانفكت مفاصله والقت به الأمواج الى الساحل بين الموت والحياة فلن تتخاذل روحه. ولن يحزن لحظة واحدة لظاهر فشله ولن يحسد الكفار والمنافقين على نجاحهم إذ يراهم منحدرين في اتجاه التيار.

هذا هو القرآن، وبين أيديكم أخبار الأنبياء وتاريخ أبطال الاسلام منذ نزول الوحي حتى الأمس القريب. هل في أحكام القرآن ورسالات الأنبياء وأسى رجالات الاسلام ما يدعوكم الى أن تنحدروا مع كل تيار وتميلوا مع كل ريح وتفعلوا في روما ما يفعل الرومان؟ إذا كانت هذه الغاية، فما حاجة البشر الى الكتب المنزلة والأنبياء المرسلين؟ لقد كفيتم في الريح قائداً وبواقع الحياة هادياً ودليلاً!! ومعاذ الله أن ينزل كتاباً يبشر بمثل هذه الآراء الفاسدة أو يرسل نبياً يدعو اليها، وكل رسالة أوحى بها الله سبحانه إنما تهدف الى تبيين الصراط المستقيم الذي يعدل اليه عن سائر السبل التي اعتادها الناس، والأخذ بحجز الناس أن يطؤوها وتنظيم المؤمنين في حزب يتبعون هذا الصراط ويدعون الناس اليه. لقد كان جهاد الأنبياء وكفاحهم جميعاً لهذه الغاية فعانواأشد الوهن وحملوا أكبر الخسائر، وقدموا حتى أرواحهم فلم يرضخوا لواقع الحياة خشية نازلة تتربص بهمَ، أو طمعاً في مغنم سهل قريب. فإذا استيقن إنسان أو جماعة من الناس بأن سبيل الله محفوف بالمكاره

والتضحيات ورغبوا في سبل يرجون منها المجد والنجاح والثراء، فكل مخير في سلوك أي طريق يختار. ولكن لم يحاول الخانع الجبان أن يخدع نفسه ويخدع الدنيا فيرى نفسه في عداد المسلمين مع أنه يجافي كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام؟! ان العصيان بحد ذاته إثم فاحش فكيف به اذا اقترن بالبهتان والخديعة والنفاق؟!

ان القول بأن تيار الحياة إذا اتخذ مجرى معيناً لا يمكن تحويله عنه هو فكرة خاطئة في الواقع التجريبي فضلاً عن المنطق العقلي. لقد تقلبت الدنيا في مئات من الثورات كل واحدة منها أثرت في توجيه ذلك المجرى بقدرها، وأجل مثال على ذلك، الاسلام. بأي اتجاه كان تيار الحياة يسير عند ظهور رسالة محمد ﷺ؟! ألم يكن السلطان للكفر الوثنية؟ ألم يكن البغي والطغيان شريعة ذلك العصر؟ ألم تكن الانسانية ممتهنة بتقسيمها القاسي الى طبقات؟ ألم تكن الفضيلة مطموسة بالشرور والأثام، والسلوك الاجتماعي محكوماً بالانانية، والنظام الاقتصادي بالاقطاعية الطاغية والرأسمالية الباغية، والقانون صارماً متطرفاً.؟.. إلا أن رجلاً فرداً نهض وتحدى الدنيا وفيها تلك الشرور مجتمعة. لقد اطرح العادات والفكر الخاطئة التي كانت سائدة يومئذ بحكم الحياة، وقدّم بدلاً منها سبيله الفريد في العقيدة والحياة، وفي بضع سنوات حوّل مجرى التاريخ بعزيمته الثابتة وحماسه البالغ.

أما المثل القريب ففي الحركة الشيوعية. لقد كانت الرأسمالية في

أوج سلطانها في القرن التاسع عشر. ولم يخطر حينئذ ببال امعة او جبان أن ذلك النظام الذي كان يحكم العالم وتؤيده القوى السياسية والعسكرية الهائلة يمكن أن يطاح به في يوم من الأيام، ومع ذلك قيض لكارل ماركس، وفي هذه الظروف، ان ينهض ويدعو الى الشيوعية. قاومته الحكومة ونفي من بلاده وتنقل من مكان الى مكان، وعانى الفقر والحاجة والوان المكاره، ولكنه لم يمت حتى ترك حزباً قوياً منظماً أطاح بالقوة التي كانت قاهرة في روسيا وزعزع فضلاً عن ذلك أسس الرأسمالية في العالم كله حتى ان نظم البلاد العريقة في الرأسمالية لم تنج من آثاره.

وسواء أكانت ثورة أو تطور، فلا بد من وجود القوة كعامل أساسي. ان القوة معناها « التأثير » لا « التأثر »و« التوجيه » لا « التوجه »، وما كان للخائفين الجبناء أن يقيموا ثورة أو يحدثوا في العالم تطوراً أبداً، ليس في التاريخ كله نبأ عن عمل ذي بال قام به أناس لا يعتنقون مبدأ ولا يهدفون الى غاية في الحياة، ولا يحفزهم روح التضحية في سبيل غاية سامية ولا تتوفر لديهم الشجاعة لمصادمة المخاطر، ولا همٌّ لهم إلا الراحة، يستجيبون لكل مؤثر، ويوافقون كل حال. انما يصنع التاريخ الرجال الأحرار، انهم أولئك الذين غيروا مجرى الحياة بكفاحهم المتصل وتضحياتهم الجسيمة فغيروا فكر العالم وابتدعوا أساليب السعي والكفاح لم يسيروا إثر الاتجاهات السائدة في أزمانهم، بل جعلوا الدنيا تسير في ركابهم.

ولا تدّعوا بعد الآن أن ليس بالامكان العدول بالدنيا عن الدرب الذي تنحدر فيه، وان ليس من سبيل إلا موافقة الظروف يجب أن تعترفوا صراحة بضعفكم فلا تنتحلوا الأعذار الواهنة من دعوى قلة ما في اليد وفقدان المساعد، حتى اذا اعترفتم بذلك عليكم أن تقروا بأن المستضعفين المتخاذلين ليس من شأنهم انتحال دين أو مذهب أو نظام في هذه الحياة. ان الضعيف يخضع لكل قوة، ولا يستطيع الثبات على مبدأ أو نظام، فإذا ما وافقت ديانة ما في مبادئها أهواءه فإنها لا تعتبر دينا لذلك من بعد.

ومن الوهم أيضاً حسبان الحدود التي رسمها الاسلام عقبات في سبيل التقدم والفلاح. ما هي هذه الحدود التي ترونها في الاسلام! أي نهي لم تقترفوه؟ وأي أمر لم تخالفوه؟ هل سمح حكم الاسلام ان تفعلوا ما فيه دماركم وشقاؤكم إنكم تهلكون أنفسكم بتبديد ثرواتكم اذ تدفعون الآلاف المؤلفة كفوائد سنوية الى خزائن المرابين هل أذن لكم الاسلام ان تفعلوا ذلك؟ ان عاداتكم الفاسدة الأثيمة تعجل في نهاياتكم، وهذه الملاهي غاصة بامثالكم حتى في هذه الظروف القاسية من الفقر والشدة. كل منكم يصرف من المبالغ على الملابس والترف والكماليات أكثر ما بوسعه، وهذه الاموال شهرياً تتسرب لتبذر في الحفلات الفارغة والمظاهر المبهرجة وتوافه الأعمال. أي شيء من هذا اباحه لكم الاسلام؟ إن أهم عامل ساعد على هذه الشدة اغفالكم دفع الزكاة، اذ فيها روح التعاون الوثيق بين الأفراد. ألم يفرضها

الاسلام فرضاً عليكم؟ . . وهكذا في الواقع نجد الاضطراب الاقتصادي بكامله ليس نتيجة اتباعنا الاسلام، بل على العكس هو نتيجة التمرد عليه. ومنع الربا، هل من مكان ترونه مطبقاً فيه؟ ان خمسة وتسعين في المئة من المسلمين الذين يستدينون بالفائدة انما يفعلون ذلك دون حاجة ملجئة حقاً. أهذه هي اطاعة أمر الله في الاسلام؟ ان قسماً عظيماً من اغنياء المسلمين لا يسلمون من التعامل بالربا بشكل من أشكاله. هم لا يسلفون أموالهم لقاء فوائد، ولكنهم يجنون الأرباح الربوية من البنوك وشركات التأمين وسندات الحكومة وصناديق التوفير. فاين هم من تحريم الربا؟ من المسؤول عن هذا الاضطراب الذي نتردى فيه؟

انه لزعم عجيب ان يدعي اناس بأن العز والقوة لدى المسلمين انما تعتمد على الثروة، وان الثروة تبعاً لاستغلال الموارد والتقدم الاقتصادي وان ذلك كله مرتبط بشرعية سعر الفائدة! يبدو ان هؤلاء لا يعلمون ما هي الاسس التي عليها تعتمد رفعة الأمم ومجدها. ليس بالثروة وحدها تكون الأمة عزيزة مرهوبة الجانب بل لو كنتم جميعاً من أصحاب الملايين فانكم لا تستوجبون بدون الخلق المتين أقل احترام. أما اذا كنتم تمثلون خلق الاسلام الحق، في الصدق والعدل والشرف، متمسكين بمبادئكم، مستقيمين في معاملاتكم، عالمين بالحقوق والواجبات ملتزمين الحدود الفارقة بين الحلال والحرام في كل حال، وكانت فيكم القوة المعنوية التي تلزمكم طريق الحق لا تحجمون خشية الخسار ولا ترغبون لمغنم؛

وكان ايمانكم قوياً ثابتاً لا يتزعزع ، القلوب ، وكلامكم أرجح وزناً من كنوز أصحاب الملايين وذلك حق حتى ولـو كنتـم تسكنـون الأكواخ وتلبسون الاسمال. كم كان المسلمون فقراء في اول عهد الاسلام اثناء حكم صحابة الرسول رضوان الله عليهم أجمعـين؟ لقد عاشوا في أكواخ متداعية ، وخيام بالية ، لم يهتموا بمظاهر الحياة وترف الحضارة. خشن لباسهم جاف طعامهم بسيطة أدواتهـم ، ضعيفة ركائبهم ، ولكن الاحترام الذي نالوه والرهبة التي فرضوا لم تقيض للمسلمـين ممـن أتـوا بعدهـم من الأمـويين ولا من العباسيين بله المتأخرين حتى يومنـا هذا. انهـم لم يحـوزوا ثراء ولكنهم تحلوا بالخلق المتين فاكسبهم العزة والمجد على الدنيا جميعاً أما أحفادهم فقـد تأثلـوا بالأمـوال ، وتمتعـوا بالسلطـان وتجملـوا بالثقافة إلا أن شيئاً من ذلك لم يقم لهم مقام الأخلاق.

ان جهلتم تاريخ الاسلام أو تناسيتموه فاعتبروا بتاريخ أي أمة من الأمم. انكم لن تجدوا مثالاً واحداً في شعب نال منعة وعـزة باندفاعه وراء الشهوات وكل همه جمع الثروات. لن تجدوا أمة لها في قلوب الناس احتراماً ورهبة ان فقدت المبادىء وأعوزها النظام ولم تصبر على الشدائد وتقدم التضحيات الغالية في سبيل أهدافها ومثلها العليا.

ان الاسلام في فكرته ومناهجه يتميز عن سائر المذاهب الكبرى في العالم. فاذا ما فقدتم الجرأة وما زلتم تؤثرون التحلل والسهولة والدعة ، واستنكفتم عن تحمل الشدائـد والمصاعـب ، فلـكم ان

تنضموا الى أي فئة خارج حظيرة الاسلام ولسوف ترون هناك انكم لن تنالوا شرفاً يقدره الناس أو عزة يركن لها، اذ أنه لا بد لأي فكرة من نظام يتبع ومبادىء تعتنق وأهداف تتطلب التضحية بشكل من الأشكال وصدق الله العظيم.

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين﴾ [1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) البقرة : ١٥٥.

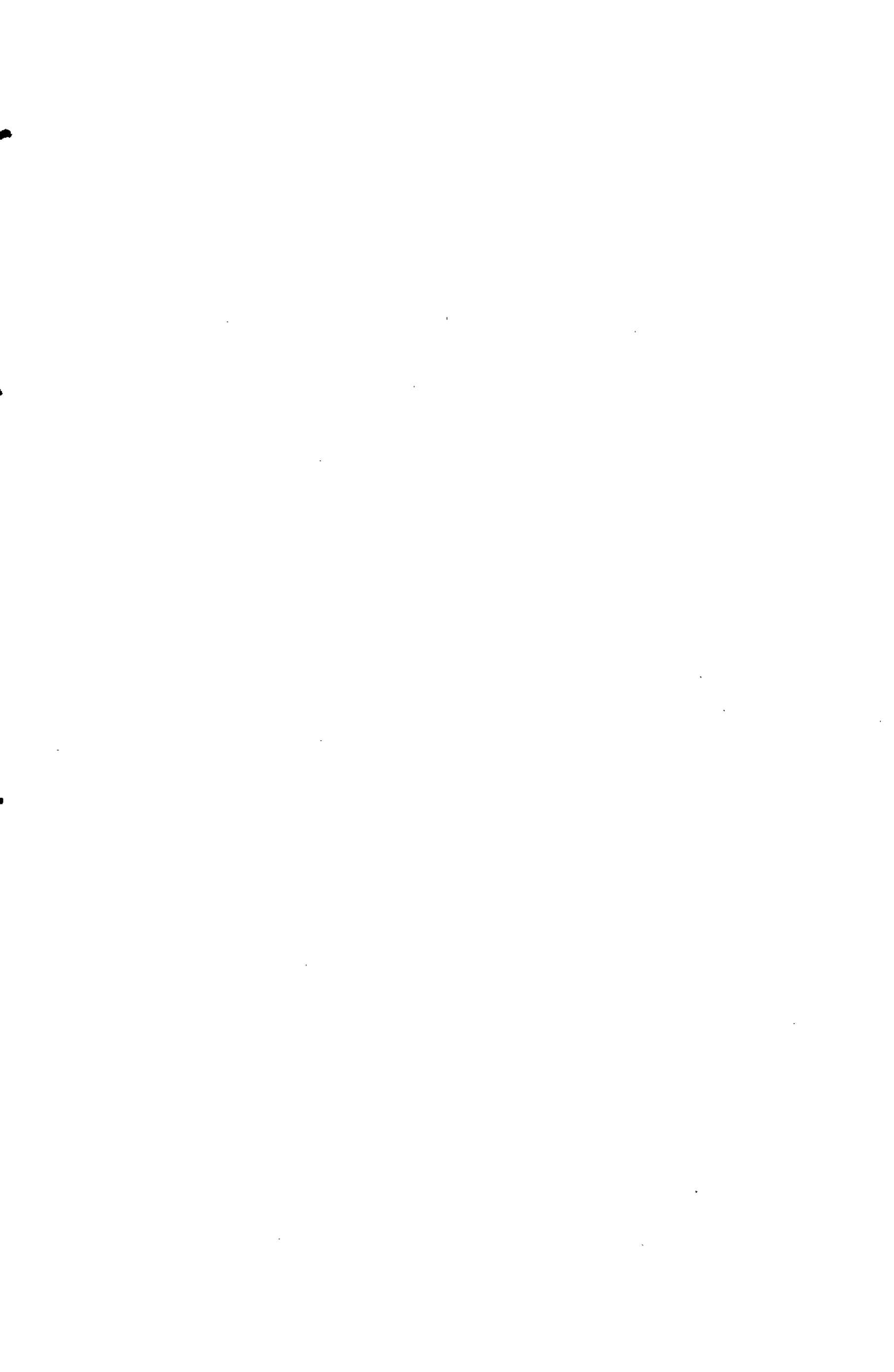


رِدَّةٌ جَدِيدَةٌ وَدَعْوَةٌ جَدِيدَةٌ

للأستاذ

السّيد أبي الحسن علي الحسني النّدوي

ذو الحجة ١٣٨١





ردة جديدة

شهد التاريخ الاسلامي حوادث ردة عديدة، أبرزها وأعنفها ردّة القبائل العربية على أثر وفاة الرسول، الثورة الكبيرة التي وأدها أبو بكر الصديق في مهدها بايمانه وعزمه الذي ليس له مثيل في التاريخ ومنها حركة التنصرّ التي انتشرت في اسبانيا على أثر جلاء المسلمين، والتي ظهرت في بعض الأقطار التي استولت عليها الدول الغربية المسيحية ونشط فيها القسوس (والارساليات)، ومنها قضايا شاذّة، من ارتداد بعض ضعاف العقول وصغار النفوس من المسلمين عن دين الاسلام واعتناقهم البرهمية أو الآرية في الهند؛ ولكنها حوادث نادرة جداً، وفي الحقيقة أنّ تاريخ المسلمين لا يعرف الردّة العامة ـ اذا استثنينا اسبانيا البائسة ـ اذا صحّ أن نسميها ردّة ـ كما اعترف به مؤرخو الديانات.

وتتسم هذه الحوادث كلها بسمتين: أولاهما المقت الشديد من المسلمين، والثانية الانفصال عن المجتمع الاسلامي، فكان كل من يرتدّ عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد، وينفصل عن المجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه بطبيعة الحال، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الأواصر والارحام. وكانت الردة انتقالاً من مجتمع إلى مجتمع، ومن حياة إلى حياة، وكانت الاسرة تقاطع المرتد وتهجره وتقصيه، فلا مصاهرة، ولا زواج، ولا اخاء، ولا توارث، وكانت حركات الردّة تثير روح المقاومة في المسلمين

والمقارنة بين الديانات، والدفاع عن الاسلام، وكل قطر من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردّة تحمس علماء المسلمين ودعاة الاسلام وحملة الاقلام فيه للرد عليها وتتبع أسبابها وعرض محاسن الاسلام ومزاياه، واجتاحت المجتمع الاسلامي موجة عنيفة من السخط والاستنكار والقلق، وكانت هذه الحوادث المقيمة المقعدة للمسلمين، وكانت الحديث العام والشغل الشاغل للعامة فضلاً عن الخاصة وأهل الغيرة الدينية، هذا ما اتسمت به حوادث الردّة على ندرتها وشذوذها وعلى عدم تأثيرها في الحياة.

ولكن جرّب العالم الاسلامي في العهد الأخير ردة اكتسحت عالم الاسلام من أقصاه الى أقصاه، وبذّت جميع حركات الردة التي سبقتها في العنف وفي العموم، وفي العمق وفي القوة، ولم يخل منها قطر وقلما خلت منها أسرة من المسلمين. هي ردّة تلت غزو أوروبا للشرق الاسلامي الغزو السياسي والثقافي، وهي أعظم ردّة ظهرت في عالم الاسلام وفي تاريخ الاسلام منذ عهد الرسول ﷺ الى يوم الناس هذا.

ماذا تعني الردّة في عرف الاسلام وفي مصطلح الشريعة الاسلامية؟ هي ابدال دين بدين وعقيدة بعقيدة، وانكار ما جاء به الرسول وتواتر عنه وثبت بالضرورة من دين الاسلام، وماذا كان يفعل المرّتد؟ ينكر الرسالة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وينتقل الى المسيحية أو اليهودية أو البرهمية، أو يلحد في الدين وينكر الرسالات والوحي والمعاد. هذا ما كان يعرفه العالم القديم

أو المجتمع القديم من معاني الردّة، وكان كل من يرتدّ عن دينه يدخل الكنيسة اذا تنصر أو يدخل الهيكل أو معبد الأصنام اذا اعتنق البرهمية مثلا، فيعرف ذلك الجميع، ويصبح شامة بين الناس يشار اليه بالبنان، ويقطع المسلمون الأمل، ولا يكون ارتداده ـ في غالب الأحوال ـ سراً من الاسرار.

حملت أوروبا الى الشرق الفلسفات التي قامت على انكار اسس الدين وانكار القوة المصرّفة لهذا العالم، القوةالواعية التي أخرجت هذا العالم من العدم الى الوجود وبيدها زمام الكون (ألاله الخلق والامر) وعلى انكار عالم الغيب والوحي والنبوءات وانكار الشرائع السماوية، وانكار القيم الروحية والخلقية: منها ما تبحث في علم الحياةوالنشوءوالارتقاء، ومنها ما تتصل بالاخلاق، ومنها ما تدور حول علم النفس، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة. ومهما اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها وأهدافها وأسسها، فانها جميعاً تلتقي على النظرة المادية المحضة الى الانسان والى الكون، والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما.

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقي الاسلامي وتغلغلت في أحشائه، وكانت أعظم ديانة ظهرت بعد الاسلام في التاريخ، أعظمها انتشاراً وأعمقها جذوراً وأقواها سيطرة على العقول والقلوب، وأقبل عليها زهرة البلاد الاسلامية وزبدتها عقلا وثقافة، وأساغتها وهضمتها ودانت بها ـ كما يدين المسلم بالإسلام والمسيحي بالمسيحية بكل معنى الكلمة ـ فهي تستميت في سبيلها

وتقدس شعائرهـا وتجـل قادتهـا ودعاتهـا وتدعـو اليهـا في أدبهـا ومؤلفاتها، وتحتقر كل ما يعارضها من الأديان والنظم والعقليات، تؤاخي كل من يدين بها، فأفرادهـا أمـة واحـدة واسرة واحـدة، ومعسكر واحد.

وما هي هذه الديانة وان أبى اصحابها أن يسموها ديانة؟ انكار لفاطر الكون العليم الخبير الذي قدّر فهدى، وانكار للمعاد وحشر الاجساد ووجود الجنّة والنار، والثواب والعقاب، وانكار النبوءات والرسالات، وانكار الشرائع السماوية والحدود الشرعية، وانـكار أن الرسول الأعظم هو الذي فرض الله طاعتـه على جميع الخلـق وحصر الهداية والسعادة في اتباعه، وأن الإسلام هو الرسالة الأخيرة الخالدة المتكفلة لجميع السعادات الدنيوية والآخروية ونظام الحياة الأمثل الأفضل، وهو الدين الذي لا يقبـل الله غـيره ولا يسعـد العالـم سواه، وإنكار أن الدنيا خلقت للانسان وأن الإنسان خلق لله.

هذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة في أكثر البلدان الإسلامية وإن لـم تكن كلها طبقة واحدة في الإيمان بهـا والتحمس لها، وفيها ولا شك مؤمنـون بالله متدينـون بالإسـلام ولكن سمة هذه الطبقة التي تغلب عليها مع الأسف وديانة أكثـر أفرادها ورؤسائها هي الديانة المادية وفلسفة الحياة الغـربية التـي قامت على الالحاد.

إنها ردّة، أعود فأقول، اكتسحت العالـم الإسلامي من أقصاه

إلى أقصاه، وغزت الأسر والبيوتات، والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات، فما من أسرة مثقفة ـ إلا من عصم ربك ـ إلا وفيها من يدين بها أو يحبها أو يجلها، وإذا استنطقته أو خلوت به أو أثرته عرفت أنه لا يؤمن بالله. أولا يؤمن بالآخرة، أو لا يؤمن بالرسول ﷺ، أو لا يؤمن بالقرآن كالكتاب المعجز الخالد ودستور الحياة، وأفضلهم من يقول أنه لا يفكر في مثل هذه المسائل ولا يهتم بها كبير اهتمام.

انها ردّة ولكنها لم تلفت المسلمين، ولم تشغل خاطرهم لأن صاحبها لا يدخل كنيسة أو هيكلاً ولا يعلن ردّته وانتقاله من دين إلى دين ولا ينتبه لها المجتمع فلا يحاسبه ولا يعاتبه ولا يفصله بل يظل يعيش فيه ويتمتع بحقوقه وقد يسيطر عليه، إنها قضية العالم الإسلامي الكبرى، إنها مشكلة الأمة الإسلامية الكبرى، ردّة تنتشر وتغزو المجتمع الإسلامي ثم لا ينتبه لها أحد، ولا يفزع لها العلماء ورجال الدين لقد قالوا قديماً:

قضية ولا أبا حسن لها. وأقول : قضية ولا أبا بكر لها.

انها قضية لا تطلب حرباً ولا تطلب تهييج الرأي العام، ولا تطلب ثورة، ولا تطلب عنفاً، بل ان العنف يضرها ويهيجها، والاسلام لا يعرف محاكم التفتيش، ولا يعرف الاضطهاد، انها تطلب عزماً وتطلب حكمة وتطلب صبراً واحتمالا، وتطلب دراسة.

لماذا انتشرت هذه الديانة في الشرق الإسلامي؟ ولماذا استطاعت أن تغزو المسلمين في عقر دارهم؟ ولماذا استطاعت أن تسيطر على

العقول والنفوس هذه السيطرة القوية؟ إن كل ذلك يطلب التفكير العميق الدقيق . . . والدراسة الواسعة.

ضعف العالم الاسلامي في القرن التاسع عشر المسيحي في الدعوة والعقيدة والعقلية والعلم وبدا عليه الإعياء والشيخوخة، والإسلام لا يعرف الشيخوخة والهرم، إنه جديد كالشمس، وقديم كالشمس، وشاب كالشمس ولكن المسلمين هم الذين شاخوا وضعفوا: فلا سعة في العلم ولا ابتكار في التفكير والانتاج، ولا عبقرية في العقل، ولا حماسة في الدعوة، ولا عرضاً جميلاً مؤثراً للاسلام ومزاياه ورسالته، إلا النادر القليل.

ولا صلة بالشباب المثقف وتأثير في عقليتهم وهم أمة الغد والجيل المرتجى، ولا محاولة لاقناعهم بأن الإسلام هو دين الإنسانية والرسالة الخالدة، وان القرآن هو الكتاب المعجز الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفد ذخائره ولا تبلى جدَّته، وأن الرسول هو المعجزة الكبرى ورسول الأجيال كلها وإمام العهود كلها، وأن الشريعة الإسلامية هي الآية في التشريع وهي الصالحة لمسايرة الحياة وقضاء مآربها الصالحة والإشراف عليها، وأن الإيمان والعقيدة والأخلاق والقيم الروحية هي أساس المدينة الفاضلة والمجتمع الكريم، وأن الحضارة الجديدة لا تملك إلا الوسائل والآلات، وأن تعاليم الأنبياء هي مصدر العقيدة والخلق والغايات ولا مطمع في المدنية الصالحة المتَّزنة إلا بالجمع بين الوسائل والغايات.

في هذه الساعة هجمت أوروبا بفلسفتها التي تعب في تدوينها وتهذيبها كبار الفلاسفة ونوابغ العصر، وصبغوها بصبغة علمية فلسفية يخيل إلى الناظر أنها غاية ما يصل اليها التفكير الإنساني، ومنتهى الدراسات والاختبارات ونتاج العقول البشرية وعصارة التأملات، وكان فيها ما يقوم على الاختبار والمشاهدة وتصدقه التجربة وما يقوم على الافتراض والتحكم والتخيل والتوهم، وفيها الحق والباطل والعلم والجهل والحقائق الراهنة والتخيلات الشعرية، وليس الشعر محصوراً في النظم والقوافي، هو في الفلسفة والعلم أيضاً.

ووردت هذه الفلسفات مع الفاتحين الغربيين فخضعت لها العقول والنفوس الشرقية وأذعنت لها وقبلتها الطبقة المثقفة في الشرق، وفيها من يفهمها ـ وهم القلة القليل ـ وفيها من لا يفهمها وهم الكثرة الكاثرة، ولكن كل مؤمن بها، مسحور بسحرها، يرى الظرافة والكياسة في اعتقادها، ويرى ذلك شعار المثقفين الأحرار.

وهكذا انتشر الالحاد والارتداد في الأوساط الإسلامية من غير أن ينتبه له الآباء والأساتذة والمربون وأهل الغيرة الاسلامية، لأن أهلها لم يقوموا في كنيسة ولم يدخلوا في معبد، ولم يسجدوا لصنم، ولم يذبحوا لطاغوت، وكان ذلك دليل الارتداد والكفر والزندقة في العهد القديم.

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الاسلامي وينضمون إلى مجتمع الديانة التي يدينون بها جديداً، ويعلنون

عقيدتهم وتحولهم بصراحة وشجاعة، ويحتملون كل ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة، ولا يلحفون على البقاء في المجتمع القديم ليحافظوا على ما كانوا يتمتعون به من حقوق وحظوظ. أما الذي يقطع صلته عن دين الإسلام اليوم فلا يريد أن يقطع صلته عن المجتمع الإسلامي مع أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع البشري الوحيد الذي يقوم على العقيدة، فلا يتحقق هذا المجتمع من غير عقيدة ويلحون على أن يعيشوا في مراكزهم متمتعين بثقة هذا المجتمع، متمتعين بالحقوق التي يخولها الإسلام. ان هذا وضع شاذ لم يعرفه التاريخ الإسلامي.

يجب أن نواجه الحقيقة بوعي وفقه وشجاعة. ان العالم الإسلامي يعاني اليوم ردة دينية وفكرية وثقافية جارفة يجب أن تكون موضوع دراسة جميع من يهمهم الإسلام واهتمامهم. ان الطبقة المثقفة في كل قطر اسلامي مضطربة في العقيدة متحللة في الأخلاق، مادية في التفكير، علمانية في السياسة، وإن كثيراً من رجالها ـ ان خفت أن أقول أن رجالها ـ لا يؤمنون بالاسلام كعقيدة ونظام، والشعوب الاسلامية ـ وفيها كل خير وكل اصلاح وكل استعداد وهي من أصلح الكتل البشرية في العالم ـ خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها وذكائها ونفوذها، واذا بقي هذا الوضع تسرب الالحاد والفساد الى هذه الشعوب والى الطبقات التي تعيش في البادية والقرى وتعمل في المصانع والمزارع وسارت في طريق اللادينية والزندقة. هذا ما وقع في أوروبا، وهو واقع في الشرق

اذا جرت الامور مجراها الطبيعي ولم تحل ارادة الله القاهرة.

يجب أن نعترف أن العالم الاسلامي الذي تغنّينا به طويلا، والطبقة المثقفة فيه بصفة خاصة، في حاجة شديدة الى دعوة اسلامية جديدة، وأن هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم (الى الايمان من جديد) لا يكفي، انه لا بد من تصميم حكيم قبل العمل، ولا بد من تفكير هادىء عميق: كيف ترد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام الى الاسلام من جديد، وكيف نبعث فيها الايمان والثقة بالاسلام، وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية.

ان هذه الدعوة ـ التي أعتقد أنها أفضل دعوة وأفضل جهاد في هذا العصر ـ في حاجة الى رجال ينقطعون اليها ويكرسون عليها عملهم ومواهبهم وكفايتهم، ولا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة ولا يحملون لأحد حقداً أو ترة، ينفعون ولا ينتفعون، ويعطون ولا يأخذون ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكون لها حجة عليهم ولا للشيطان سبيل اليهم، شعارهم الاخلاص والتجرد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات.

إن طبيعة هذه الدعوة تخالف طبيعة السياسة والجمعيات والأحزاب اليوم، وان كانت لها قدوة ففي سيرة الأنبياء وسيرة خلفائهم كالحسن البصري، وأحمد بن حنبل، وأبي حامد

الغزالي، وعبد القادر الجيلي، وابن الجوزي الحنبلي، وابن تيمية، والشيخ أحمد بن عبد الأحد السر هندي الهندي.

انها فريضة لا تحتمل التأخير، ولا تأخير يوم واحد، فالعالم الاسلامي يواجه اليوم موجة ردّة عنيفة منتشرة في أعز أبنائه وأقوى أجزائه، انها ثورة على أعز ما يملكه من عقيدة وخلق وقيم ولابقاء للعالم الاسلامي بعد ضياع هذه الثروة التي خلفها الرسول وتوارثتها الاجيال وجاهد في سبيلها أبطال الاسلام.

فليكن الموضوع موضوع دراسة واهتمام لجميع من يهمهم أمر الإسلام.

دعوة جديدة

تحدثنا في المقال السابق كيف انتشر الخضوع للفلسفات الغربية، التي تحارب ما جاء به الأنبياء والشرائع السماوية من عقائد وأسس وقيم، في العالم الإسلامي، وكيف انتشرت بتأثيرها الزندقة، وبصراحة الردّة ـ اذا كان الإسلام ديناً وعقيدة معينة، ولا بد ـ في الطبقات المثقفة في دنيا الإسلام، لا فرق في ذلك بين الشرق والغرب، والعرب والعجم.

وكان أكثر حديثنا عن العقيدة الأساسية كالايمان بالله والايمان بالرسالات والايمان بالغيب والايمان بالآخرة، ولا شك أنها في المكان الأول من الأهمية، وهي نقطة الفصل بين الايمان والكفر، والإسلام والزندقة.

وهناك نزعات جاهلية ومبادىء جاهلية، حاربها الإسلام بكل وضوح وحاربها الرسول بكل قوة، كالعصبية الجاهلية، وتُمجّدُ هذه العصبية ويبالغ في تقديسها والدفاع عنها والقتال تحت رايتها وتوزيع المجتمع الانساني على أساسها حتى تصبح ديانة وعقيدة، وتسيطر على العقول والنفوس، والأرواح والآداب، وتكون هي المصرفة للحياة، ولا شك أنها في عمقها ورسوخها وقوتها وشمولها تنافس الأديان وتستعبد الانسان وتحبطمساعي الأنبياء وتحدد الدين ـ الذي جاء ليحكم على الحياة ـ في العبادات والطقوس، وتقسم

العالم الانساني في معسكرات متحاربة، والأمة التي قال الله عنها ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [1] في أمم كثيرة.

لقد حارب الرسول هذه العصبية الجاهلية بكل قوة ومن غير هوادة، وأنذر منها وسدّ منافذها. وكان لا بد، فلا بقاء للدين (العالمي)، ولابقاء للأمة (الواحدة) مع هذه العصبيات، ومصادر الشريعة الإسلامية زاخرة بانكارها وتشنيعها، والنصوص في ذلك أكثر من أن تستقصى. وهذا يعرف بداهة من الأسلام، والذي عرف طبيعة الاسلام، بل عرف طبيعة الأديان، عرف أنها لا تسيغ هذه العصبيات، ومن درس التاريخ متجرِّداً عن الميول والمذاهب السياسية عرف أنها لم تزل ـ ولا تزال ـ من أقوى عوامل الهدم والتخريب والافساد والتفريق بين الانسان والانسان، ومن المعقول المنتظر من الانسان الذي جاء ليوحد العالم ويجمع النوع الانساني تحت راية واحدة وعلى عقيدة واحدة ويكوّن مجتمعاً جديداً قائماً على (الدين) وعلى الايمان برب العالمين، ويبسط الأمن والسلام وينشر الحب والوئام بين أعضاء الأسرة الانسانية ويجعلها جسداً واحداً اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، من المعقول جداً من هذا الانسان أن يحارب هذه العصبيات بكل وضوح وصرامة ويجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون.

---

(1) المؤمنون ٥٢.

ولكن العالم الاسلامي أصبح ـ بعد ما غزته أوروبا سياسياً وثقافياً ـ يخضع لعصبيات متعددة ويؤمن بها كقضية علمية وحقيقة مقررة وواقع لا مفر منه، وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعاً غريباً الى احياء هذه العصبيات، التي أماتها الاسلام، والتغني بها واحياء شعائرها ـ ولو كانت وثنية سافرة ـ والافتخار بعهدها الذي تقدم على الاسلام، وهو الذي يُلحُّ الاسلام على تسميته بالجاهلية وليس في معجمه تعبير أهول وأفظع منه. ويمنُّ القرآن على المسلمين بالخروج عنها ويحثهم على شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ [1] ﴿ بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ [2] ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾[3].

والطبيعي من المؤمن أن لا يذكر (الجاهلية) الا بمقت وكراهة وامتعاض واقشعرار، وهل يذكر السجين المعذب الذي أطلق سراحه أيام اعتقاله وتعذيبه وامتهانه الا وعرته قشعريرة وثارت الذكريات الاليمة القاتمة، وهل يذكر البارىء من علة شديدة

---

(١) آل عمران ١٠٣.

(٢) الحجرات ١٧.

(١) الحديد ٩.

طويلة أشرف منها على الموت، أيام سقمه إلا وانكشف باله وامتقع لونه، وهل يذكر الانسان رؤيا فظيعة مفزعة رآها إلا وشكر على أنها حلم زائل وهمّ راحل. وأمر (الجاهلية) - التي تجمع معاني الجهل والضلالة والبعد عن الحقائق وأنواع الخطر والمضار في الدنيا والآخرة - أعظم من كل ذلك، وجدير بأن تثير ذكراها المقت الشديد وتحث على الشكر على التخلص منها، وانقضاء أيامها، ولذلك جاء في الصحيح «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ اليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(1) وقد ذمَّ الله شعائر الجاهلية وأبطالها وعظماءها في غير رفق وتحفظ فقال ﴿وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ (2) ويقول: ﴿وما أمر فرعون برشيد يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الوردُ المورود، وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ (3).

ولكن كثيراً من الأقطار الاسلامية والشعوب الاسلامية - بتأثير الفلسفات الغربية والتفكير الغربي وحده - أصبحت تمجد عهدها العتيق - الذي سبق الإسلام - وحضارته وتقاليده، وتحن اليه

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) القصص ٤٢.

(3) هود ٩٨ - ٩٩.

وتحرص على احياء شعائره، وتخليد عظمائه وأبطاله وملوكه وأمجاده، كأنه عهدها الذهبي، وكأنه نعمة حرمها الإسلام إياها وفي ذلك من الجحود والنكران للجميل وقلة تقدير نعمة الإسلام وفضل محمد عليه الصلاة والسلام وتهوين خطب الكفر والوثنية وما اشتملت عليه الجاهلية من خرافات وضلالات وسفاهات ومضحكات مبكيات مالا يعقل عن مسلم واع وما يخاف معه الحرمان من نعمة الإسلام وسلب الإيمان والتعرض لسخط الله الشديد وقد قال: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [١].

أضف إلى ذلك ما يوجد في العالم الإسلامي اليوم من التهور في الحصول على المادة وايثارها على كل مبدأ وعقيدة وايثار الدنيا على الآخرة والاخلاد إلى الأرض واتباع الهوى، وما تبع ذلك من التفسخ الخلقي والاستهانة بمحارم الله وشيوع الخمر والفسوق في الطبقات (الراقية) حتى تكاد تكون هذه الطبقة نسخة واحدة وصورة واحدة في كل بلد اسلامي - إلا من عصم ربك، وقليل ما هم - والتحرر من قيود الإسلام وفرائضه تحرراً تاماً حتى كأنها لا صلة لها بالاسلام وشريعته، وكأنه شريعة منسوخة وأسطورة خيالية.

هذا - مع ما قدمنا في المقال السابق - تصوير العالم الإسلامي

---

(١) هود ١١٣.

الديني والاعتقادي بالاجمال، وهي موجـة (جـاهلية) تكتسـح العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه وهي أعظم موجة واجهها العالم الاسلامي في تاريخه الطويل وهي تفوق كل موجة معارضة عرفها التاريخ الاسلامي وتمتاز عنها بأن المتنبهـين لهـذه الأخـيرة قليل، والذين ينقطعون لمحاربتها ويجندون لها قواهم ومواهبهـم أقل، فقد حدث الالحاد وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في القديم فوجد من يحاربها بعقله الكبير وذكائه النادر وعلمه الغزير ودراسته الواسعة وشخصيته القوية، وظهرت الباطنية والملاحـدة فوجد من يحاربها بالعمـل والحكمـة والبرهـان. وبقـي الاسـلام محتفظاً بنفوذه العقلي ومكانته العلمية، ترتد عنه كل موجة عاتية، وينحسر عن طوده كل فيضان وكل سيل جارف.

ليسـت المسألـة مسألـة انحطـاط في الأخـلاق، وضـعف في العبادات، وترك للشعائر وتقليد للأجانـب، وان كانـت مسائـل تستحق العناية والجهاد، ولكن مسألة العالم الاسلامي اليوم أعظم وأضخم من كل ذلك، أنها مسألة كفر وإيمان انها مسألة بقاء على الاسلام وخلع له. ان المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الاسلام آخر الرسالات، وبـين المادية والشرائـع السماوية، ولعلها آخر معركة تقوم بين الدين واللادينية، وانها تحـدد مصـير العالم.

ان جهاد اليوم، وان خلافة النبوة، وان أعظم القربات وأفضل العبادات، أن تقـاوم هذه الموجـة الـلادينية التـي تجتـاح العالـم

الاسلامي وتغزو عقوله ومراكزه، وأن تعاد الثقة ـ المفقـودة ـ إلى نفوس الشباب والطبقة المثقفة بمبادىء الاسلام وعقائده وحقائقه ونظمه، وبالرسالة المحمدية، ويزال القلق الفكري والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف، ويقنعوا بالاسلام عقلياً وثقافياً.

لقد مضى علينا قرن كامل وأوروبا تغتصب شبابنا وعقولنا، وتنبت في نفوسنا الشك والالحاد والنفاق وعدم الثقة بالحقائق الايمانية والغيبية، ونحن معرضون عن مقاومتها معتمدون على ما عندنا من تراث، مضربون عن الانتاج الجديد، معرضون عن مواجهة فلسفاتها ونظمها ومحاسبتها محاسبة علمية ونقدها وتشريحها كتشريح الأطباء الجراحين متعللين بالبحوث السطحية المستعجلة، وبالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة، حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان والعقيدة، ومَلَك زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيل لا يؤمن بمبادىء الإسلام وعقيدته ولا يتحمس لها ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء إلا (القومية الإسلامية) أو المصالح السياسية، وبدأت هذه العقلية أو النفسية اللادينية تتسرب عن طريق الأدب والثقافة والصحافة والسياسة إلى الجماهير حتى أصبحت الشعوب الإسلامية مهددة بلادينية شعبية عامة، وكاد الإسلام يقصى من الحياة والمجتمع.

إن العالم الإسلامي في حاجة إلى منظمات علمية تهدف إلى

انتاج الأدب الإسلامي القوي الجديد الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، ويحررهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقيم في عقولتهم أسس الإسلام من جديد، ويغذي عقولهم وقلوبهم، إنه في حاجة إلى رجال في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي عاكفين على هذا الجهاد، منقطعين اليه، لا شأن لهم بالحكومات والوزارات، والوظائف والمرتبات، يحتسبون عملهم ويتقربون به إلى الله.

إنني لم أكن في فترة من فترات حياتي ممن يقول بفصل الدين عن السياسة، ولا ممن يفسر الدين تفسيراً لا يتصادم مع وضع - مهما انحرف وشذ عن الإسلام - وينسجم مع كل مجتمع، ولا ممن يعتبر السياسة (الشجرة الملعونة في القرآن) بل أنا في مقدمة من يدعو إلى ايجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الإسلامية وإيجاد القيادة الصالحة، وممن يعتقد أن المجتمع الديني لا يقوم إلا بالحكم الديني الصحيح والحكم الصالح المؤسس على أسس الإسلام ولا أزال أدعو إلى ذلك حتى ألقى الله.

إنما المسألة مسألة ترتيب، وتقديم وتأخير، وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه، وما تفرضه الأوضاع، إننا أنفقنا جهودنا ومواهبنا وما أوتينا من فرص ووسائل في حركات سياسية وتنظيمية، وكان كل ذلك على أساس أن الشعب مؤمن وأن من يقوده ويملك زمامه - هي الطبقة المثقفة لا محالة - مؤمن مقتنع بالإسلام وعقيدته ومبادئه،

متحمس للاسلام وعلوه ونفاذ حدوده، وإذا الأمر بالضـد، وإذا الشعب قد ضعف في ايمانه وانحط في أخلاقه من حيث لم نشعر ولم يشعـر وإذا الطبقـة المثقفـة ذابـت في أكثـر أفرادهـا العقيدة الإسلامية وتبخرت بتأثير فلسفات الغرب أو سياسته ونفوذه. وكثير من أفرادها ثائر على العقيدة الإسلامية بالفلسفـات الغـربية ومـا جاءت به من عقائد وأفكار تصادم الدين، ينتصر لها ويتحمس لها ويحرص على نشرها وتنفيذها ويريد أن ينظم الحياة على أساسهـا وفي ضوئها ويصل بالشعب اليها، فمنهم مسرع متهور، ومنهم حكيم متدرج، ومنهم منفذ بالقوة، يفرضها على الشعب فرضـاً ومنهم لَبِقٌ هادىء يزينها للشعب، والهدف واحد والغاية واحدة.

ورجال الـدين ـ إن صح هذا التعبـير، فليسـت في الاسـلام الكهنوت والطبقة الدينية الممتازة ـ في ذلك فريق يحارب هذه الطبقة حرباً شعواء ويكفرها ويبتعد عنها، ويعرض عن تتبع أسباب هذا الاتجاه اللاديني وعن ثقافتها، ولا يعنى باصلاح الأحـوال وتغيير هذا الاتجاه المعارض والمحاربة للاسلام، وبالاختلاط بها وازالـة الوحشة والنفور عن الدين وعن رجال الدين، وتشجيع ما عندها من خير وذرة ايمان، وتغذيتها بالأدب الاسلامي الصالح المؤثـر، وبالزهد في ما عندها من جاه أو مال وقوة وسلطان، وتقديم النصح الخالص والتوجيه الحكيم.

وفريق يتعاون معها ويساهمها في المنافع والخيرات، وينتفع بها في دنياه من غير أن ينفعها في دينها، فلا دعـوة، ولا عقيدة، ولا

غيرة على الدين، ولا حرص على الاصلاح ولا رسالة لها في هذا القرب والتعاون.

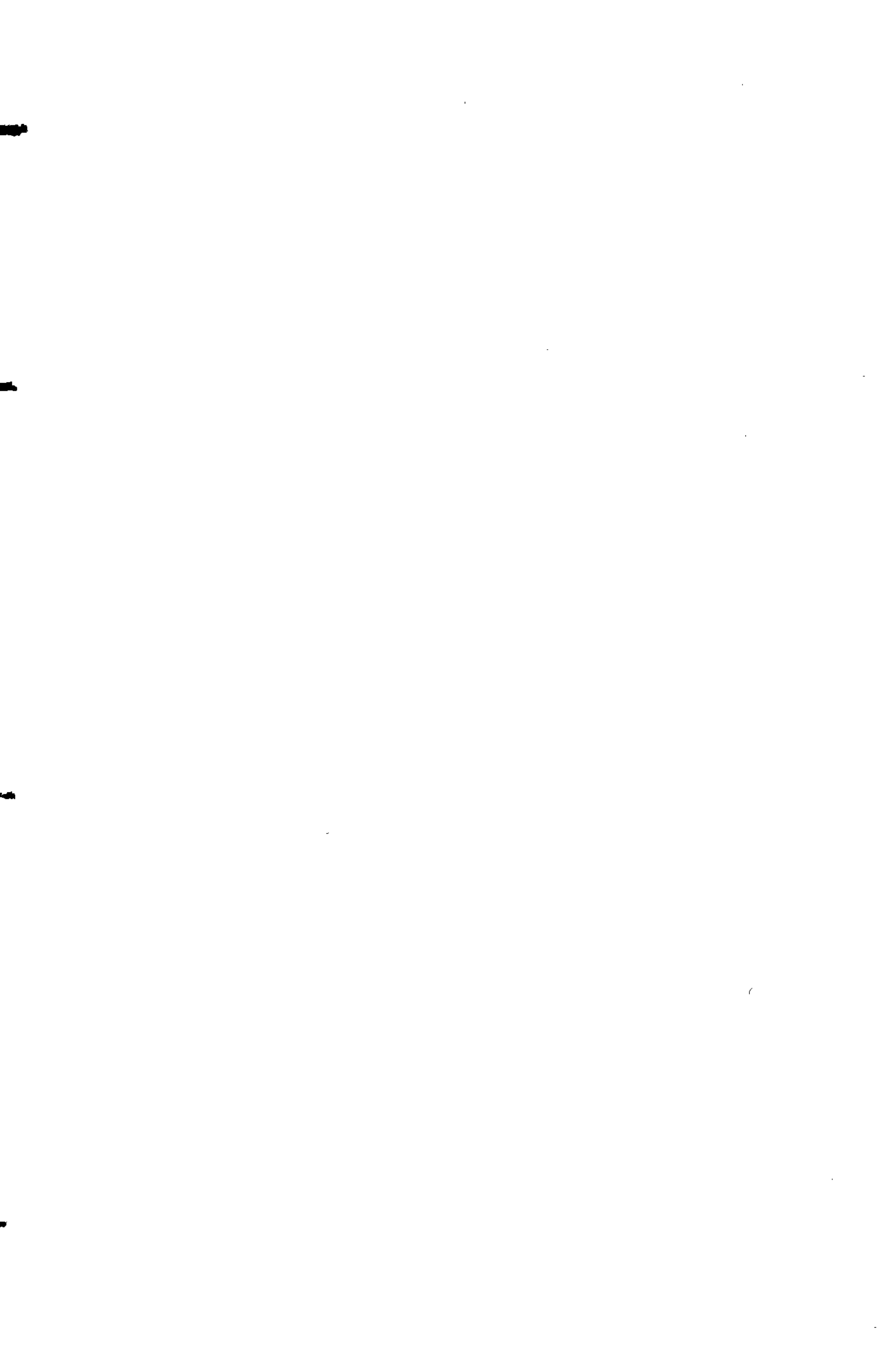
والفريق الثالث ـ الذي يتألم لهذا الوضع ويتوجع به، ويعترف بأن هذه الطبقة مريضة صالحة للتداوى مستعدة للشفاء، يتقدم اليها بالدعوة الرفيقة والرسالة الحكيمة والنصيحة الخالصة ـ يكاد يكون مفقوداً، فلا صلة لهذه الطبقة بالدين وبالجو الديني، تعيش في عزلة عنه وفي وحشة منه، ولا تزداد إلا بعداً عن الدين وازدراء بكل ما يتصل به، ويزدها الفريق الذي يحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها، والفريق الذي يتزعم الدين ويريد أن ينزع عنها الحكم وينافسها في الجاه والمنصب، لا يزيدها الفريقان إلا بغضاً للدين وإشفاقاً منه، والانسان مفطور على بغض من ينافسه في دنياه ـ إذا كان لا يؤمن إلا بالدنيا ـ ومن ينتزع منه الحكم والسلطان ـ إذا كان لا يعيش إلا على الحكم والسلطان ـ ومن يساهمه في مادته وشهواته ـ إذا كان لا يعرف إلا المادة والشهوات.

وحاجة الأقطار الإسلامية اليوم إلى فريق يتجرد عن المطامع، يخلص الدعوة، ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همه الدنيا والمادة والتغلب على الحكومة، لنفسه أو عشيرته أو حزبه، يحلُ العقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية، أو أخطاء (رجال الدين) أو سوء التفاهم أو قلة الدراسة والابتعاد عن الاسلام وجوه، وذلك بالمقابلات والصداقات والمحادثات، وبالأدب الإسلامي الصالح المؤثر وبالروابط الشخصية وبالنزاهة وعلو

الأخلاق وقوة الشخصية والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات، وتمثيل أخلاق الأنبياء وخلفائهم.

هذا هو الفريق الذي خدم الاسلام في كل عصر، واليه يرجع الفضل في تغير اتجاه دولة بني أمية وظهور خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ونجاحه، بسعي رجاء بن حيوة، وقد أعيد هذا التاريخ في عصر الملك المغولي الأكبر جلال الدين أكبر الذي ثار على الإسلام وصمم على تحويل هذه القارة الاسلامية الواسعة، التي عاشت في الحكم الاسلامي أربعة قرون، جاهلية برهمية، ولكن بفضل هذه الدعوة الحكيمة وبظهور داعية اسلامي مجدد [1] وشخصية إسلامية حكيمة أخلصت للاسلام وأحسنت فقهه وفقه الدعوة وبتأثير تلاميذه، عادت الهند إلى الاسلام أقوى وأفضل، وتوالى على العرش أكبر ملوك يتدرجون في الصلاح وحب الإسلام حتى جاء على العرش ملك يتجمل تاريخ الإسلام وتاريخ الإصلاح بذكره وحديثه [2]. والتاريخ دائم يعيد نفسه، وهو مستعد للعودة إذا صحت العزيمة.

(١) هو الامام احمد بن عبد الاحد السرهندي المتوفى عام ١٠٣٤ هـ.
(٢) هو السلطان اورانك زيب عالمكير المتوفى عام ١١١٨ هـ.

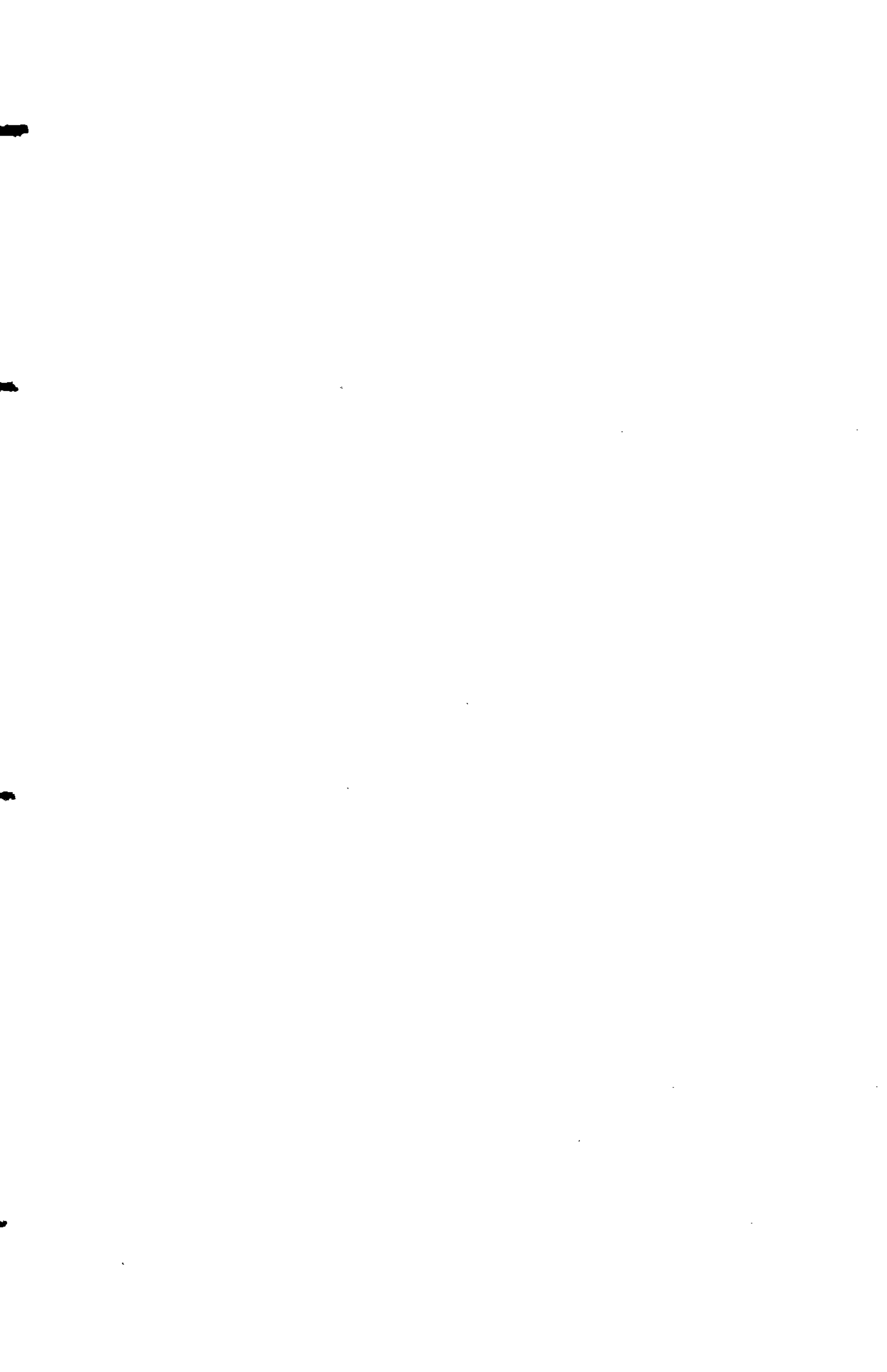


الغاية لا تبرر الوسيلة..!

للأستاذ

محمد هيثم الخياط

المحرم ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

يقول محمد أسدفايس في كتابه الاسلام على مفترق الطرق:

« إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل الى مفترق طرق. . . إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه، ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعاً. . وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: « نحو المدنية الغربية »، ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه الى الأبد. . . أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها: « إلى حقيقة الاسلام ». . إن هذه الطريق وحدها، هي التي تستميل اولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي ».

وليس يخفى أن تحديد الاتجاه هذا يؤلف الخطوة الأولى من خطوات الطريق.

ولكن. . إذا آمن المسلم بأن هذه الطريق ـ طريق الاسلام هي السبيل المثلى التي ينبغي أن يسلكها، فكيف يسير في هذه الطريق؟

قد يكون بديهياً أن يقال: إنها طريق واضحة! وإنها لكذلك! فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « يا أهل القرآن! ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق! »

غير أن الانسان في اثناء سيره، قد تعتوره بعض المصاعب، أو تساوره بعض الوساوس، أو تتنازعه بعض النزعات. . ولذلك كان عليه أن يعرف قبل كل شيء فكرة واضحة عن سبيله، ويتبين الاخطار التي تحدق به، تحاول أن تنحرف به عن السبيل وتنأى به عن الطريق!

ولقد أنزل الله عز وجل على عبده ورسوله ﷺ قوله:

﴿قل: هذه سبيلي! أدعو إلى الله، على بصيرة، أنا ومن اتبعني﴾.

وفي هذا الكلام القديم تحديد للغاية: «أدعو إلى الله» وتحديد للوسيلة: «هذه سبيلي» وتبيان للنور الذي يكشف ظلماء النفوس: «على بصيرة»

من أجل ذلك كان على المسلم أن يسير في حياته، في «سبيل الله»، مبتغياً وجه الله، حريصاً على أن يكون مسيره على بصيرة، لا ينحرف فيه ولا ينأى عن السبيل. .

ومن أجل ذلك نقدم هذه الصفحات.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

لجنة المسجد

بسم الله الرحمن الرحيم

١

لعلّ من أبرز ما في هذا الاسلام العظيم، أنه لا يكتفي بتحديد الغاية وحدها، وإنما يعدو ذلك إلى تبيان الوسيلة وإيضاح السبيل.

وإذا كانت قوى الشر في الدنيا [١]، من قبل مكيافيلي ومن بعده، تدعو الى أن « الغاية تبرر الوسيلة » فتفسد بذلك أخلاق الناس وضمائرهم وسلوكهم، فان الاسلام يقيم في وجه هذا المبدأ الخبيث سداً شامخاً، وينفي بكل سرعة وبكل صرامة، أي هاجس يراود النفس، يحاول أن يهبط بها ـ بهذا السلوك ـ الى أسفل سافلين..

والاسلام بتحديده هذا للوسيلة، نظير تحديده للغاية يحافظ للمسلم على « سلامة » السلوك، في جانب محافظته على « سلامة » المبدأ. وبذلك ينتشل الاسلام الانسان من أسفل سافلين: بالإيمان الذي يحدد سلامة الغاية، وبالعمل الصالح الذي يضمن سلامة السبيل:

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم..

---

(١) ومن بينها الصهيونية العالمية (انظر أهداف الصهيونية أو محاضر حكماء صهيون في الصفحة ١١٥).

ثم رددناه أسفل سافلين . .

إلا الذين آمنوا . . وعملوا الصالحات﴾ (التين : ٤ ـ ٦)

﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه . . فمثله كمثل الكلب﴾ .

(الأعراف : ١٧٥، ١٧٦)

٢

أما الغاية ، فهي أول ما يهتم الاسلام بتحديده ، بكلمات قاطعات حاصرات :

﴿ الله الصّمد﴾ [١] (الاخلاص : ٢)

﴿ والى ربك فارغب﴾ (الانشراح : ٧)

﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾

(الانشقاق : ٦)

﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات : ٥٦)

« اللهم أسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك »

(من حديث متفق عليه عن البراء بن عازب)

﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾

(الانعام : ١٦٣)

---

(١) الصمد : المقصود ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول عن هذه السورة ـ سورة قل هو الله أحد ـ في حديث رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري : « والذي نفسي بيده أنها لتعدل ثلث القرآن »!

فالله سبحانه وتعالى هو ـ وحده ـ الغاية، وعلى المسلم أن يتجه اليه بقلبه وجوارحه، وذلك ما يتضمنه معنى « الاله » ومعنى « العبادة » في كلام العرب. يقال: أَلِهَ اليه أي اتجه اليه لشدة شوقه اليه، فالاله الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والاكرام والخوف والرجاء وما إلى ذلك، والعبادة تتضمن معنى الذل: يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، كما تتضمن معنى الحب لأن آخر مراتب الحب هو التتيم ويقال تَيْمُ الله أي عبد الله.

فهنالك من جانب عزّة وأهلية للخضوع والمحبة والقصد وهنالك من جانب آخر خضوع وتذلل وحبٌّ وقصد:

﴿ربُّ السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته﴾ (مريم: ٦٥)

﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾.

(البقرة : ١٦٥)

٣

وأما الوسيلة، فانها أيضاً واضحة صريحة، ولذلك يطلق عليها الاسلام اسم « الوسيلة » معرّفة بالألف واللام دلالة على أنها وسيلة معّينة واحدة:

﴿اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة﴾ (المائدة: ٣٨)

وكذلك يطلق عليها اسم السبيل « سبيل الله »، ويطلق عليها اسم « الصراط المستقيم » ويطلق عليها أسماء أخرى مترادفات،

تدل كلهـا على محجّة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

والله عز وجل يبلغنا أنه قد بين لنا الطريق وأوضح لنا الوسيلة:

﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ (المائدة: ٥١)

﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ (الجاثية: ١٧)

وأن هذه السبيل هي السبيل القويمة العادلة:

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ (النحل: ٩)

﴿هذا صراط مستقيم﴾.

(مريم: ٣٦، يس: ٦١، الزخرف: ٦١)

ويدعونا الى السير فيها:

﴿إن هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا »

(المزّمل: ١٩)

فـالله سبحانـه وتعـالى، قد شق للمسلمـين سبيلاً عريضـة يستطيعون أن يسيروا ضمن حدودها بكل حرية وبـكل اختيار، فان فعلوا ذلك أمكنهم أن يصلوا الى الله، وإن انحرفوا عنها أو اتبعوا غيرها من السبل، فأنى لهم أن يكونوا من الواصلين؟!

وهذه السبيل التي شقها الله للمسلمين تسمى « سـبيل الله » ونحن نرى في القرآن كثيراً:

﴿ يقتل في سبيل الله ـ قاتلوا في سبيل الله ـ انفقوا في سبيل الله ـ جاهدوا في سبيل الله ـ الذين أحصروا في سبيل الله ـ لما أصابهم في سبيل الله ـ يهاجروا في سبيل الله ـ ضربتم في سبيل الله ـ انفروا في سبيل الله ـ ﴾ وأمثال ذلك في مواضع عديدة.

وها هنا نقطتان على جانب كبير من الاهمية، تنبعان كلتاهما من أصل واحد، وهو أن المسلم في مسيره هذا في سبيل الله، ينبغي له أن يبقى موجّها وجهه الى الله، منصرفاً اليه بكليته وألا يحاول الالتفات في اثناء مسعاه قليلاً أو كثيراً.

ذلك أن مسيره في سبيل الله ينبغي أن يكون « خالصاً » لله وحده، والإخلاص أمر أساسي كبير الشأن، ينافيه كل المنافاة أن يلتفت الانسان عنه قليلا أو كثيراً.

٤

أولى النقطتين المهمتين، نتلوها في مثل الآيات التالية من كتاب الله:

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين. ألا لله الدين الخالص ﴾ (الزمر: ٢ - ٣)

﴿ وادعوه مخلصين له الدين ﴾ (الاعراف: ٢٨)

﴿ فادعوا الله مخلصين ﴾ (المؤمن: ١٤)

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ (البينة: ٩٨)

وهي تدعونا إلى أن نتجه بقلوبنا - كل قلوبنا - الى الله عز وجل، لا ندع فيها مجالاً لغيره، فالله اغنى الاغنياء عن الشرك - كما في الحديث القدسي - : « من عمل عملاً أشرك فيه معه غيره، تركه الله وشركه ».

فكل عمل نقوم به ابتغاء مرضاة الله، لا نريد به مغنما او مكسباً في الحياة العاجلة؛ فهو في سبيل الله، أياً كان هذا العمل. وهؤلاء

الذين يحتقرون المكاسب العاجلة طمعاً في رضا الله في الآخرة، يجزيهم الله احسن جزاء ويتقبل منهم اعمالهم، ويوفيهم اجورهم، ويدخلهم الجنة عرّفها لهم:

﴿تلك الدار الآخرة، نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين﴾. (القصص: ٨٣)

وفي حديث رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة تبين هذه الناحية:

« فمن كانت هجرته الى الله ورسوله، فهجرته الى الله ورسوله » (متفق عليه عن عمر بن الخطاب)

« سئل رسول الله ﷺ، عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟

فقال رسول الله ﷺ:

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »

(متفق عليه عن أبي موسى)

قال رجل: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من عرض الدنيا؟! فقال النبي ﷺ: « لا أجر له! »

(رواه أبو داود عن أبي هريرة)

قال عبد الله بن عمرو: يا رسول الله! أخبرني عن الجهاد والغزو فقال: « يا عبد الله بن عمرو! إن قاتلت صابراً محتسباً؛ بعثك الله صابراً محتسباً؛ وإن قاتلت مرائياً مكاثراً، بعثك الله مرائياً مكاثراً؛ يا عبد الله بن عمرو! على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال » (رواه أبو داود).

جاء رجل فقال: يا رسول الله! أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ قال: « لا شيء له » فاعادها ثلاثاً، كل ذلك يقول « لا شيء له » ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه »

(رواه أبو داود والنسائي عن أبي أمامة)

« ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتى به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت! قال : كذبت! ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل! ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القي في النار. ورجل تعلم القرآن وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن! قال : كذبت! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل! ثم أمر به فسحب على وجه حتى ألقي في النار. ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فعرّفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت منها لك! قال : كذبت! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل! ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار!!! »

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

وهكذا فالخير نفسه، ليس خيراً في حد ذاته، ولا غاية في حد

ذاته، ولكنه خير من حيث قال الله عنه إنه خير، وهو خير من حيث يقصد به وجه الله ومرضاته، ولذلك لا يتقبله الله من الكفار في الاخرة :

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة . . يحسبه الظمآن ماء . . حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ! ! ﴾ (النور: ٣٩) ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباءً منثوراً ﴾

(الفرقان: ٢٣)

صحيح أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولكن من لم يبتغ وجه الله في الخير، يوفيه الله جزاءه في الدنيا، من سمعة حسنة أو مكانة رفيعة أو ما إلى ذلك، فيأتي يوم القيامة ولا شيء له لأنه لم يبتغ وجه الله عز وجل.

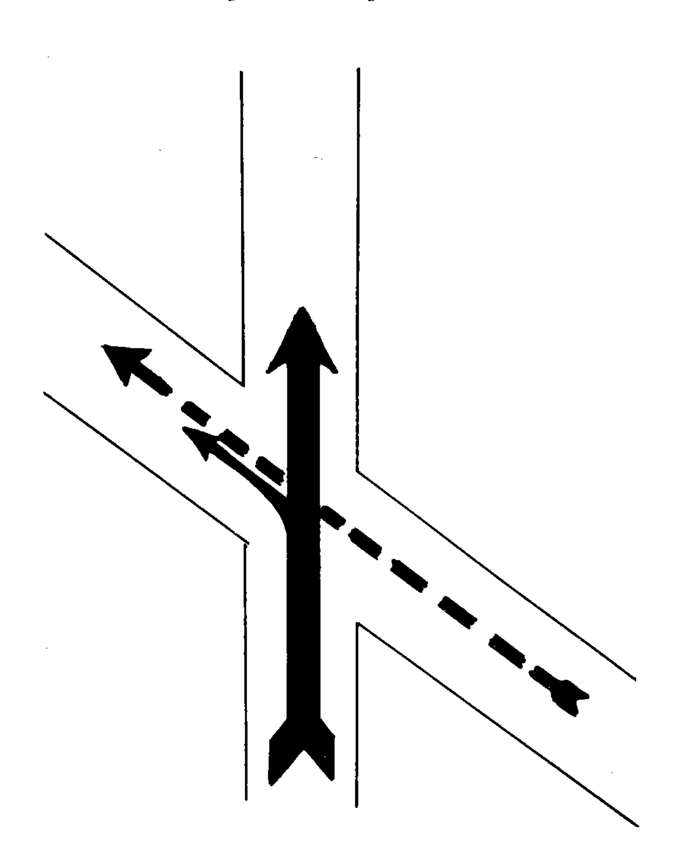
٥

وأما النقطة الثانية، فهي أن السبل قد تتقاطع في مواضع من مواضع الطريق. وقد يكون هناك سبيل أخرى من غير سبيل الله اتجاهها مائل، فهي قد تلتقي مع سبيل الله في بقعة صغيرة جداً من بقاع الطريق، تتقاطع معها، وهذا هو السبب في أننا قد نلاحظ في أنظمة الناس ومذاهبهم ما هو حسن يتفق مع ما أمر الله به.

وأخشى ما يخشى ها هنا، أن يسير الانسان في هذه البقعة مع ما وافق الاسلام من تلك المبادىء، ثم لا يلبث أن يتابع السير في السبيل الأخرى وذلك أمر خطير! !

ولذلك فإننا نعتقد أنـه لا يجـوز للمسلـم أن يستعمـل حتـى مصطلح القوم في تسميتهم لهذا الجزء الصالح من الطـريق، ولا ينبغي له حتـى أن يلتفـت عن مصطلحـه هو. . ذلك اختـلاس يختلسه الشيطان من هجرة الانسان المباركة الى الله عز وجل!!

فنظام الاسلام شوروي لا ديمقراطي، وفيه خلافة الشعب لا



سيادة الشعب، وحقٌ للناس فيه الاجتهاد لا التشريع، وهو زكوي أخوي لا تأميني اشتراكي.

٦

وليس يجوز للمسلم أن يترك سبيل الله ويتبع سبيلاً أخرى؛ لأن هذه السبيل هي سبيل الوصول الى الله، وهي سبيل النجاة في الدنيا والآخرة، فمن ضل عنها وسلك غيرها فقد هلك:

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى، ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾

(النساء: ١١٤)

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾.

(الجاثية: ١٧)

« خط رسول الله ﷺ خطاً وقال هذه سبيل الله، وخط خطوطاً وقال هذه السبل، ثم تلا قوله تعالى:

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾.

(الانعام: ١٥٣)

ولذلك كان رسول الله ﷺ يحضّ أشد الحضّ على التمسك بالسنة:

« فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فان كل بدعة ضلالة ».

(رواه أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية)

« أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الاسلام سنة جاهلية، ومُطِلٌّ دم امرىء بغير حق ليريق دمه ».

(رواه مسلم عن ابن عباس)

« فمن رغب عن سنتي فليس مني ».

(رواه مسلم عن أنس)

« من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ».

(رواه مسلم عن عائشة)

« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ».

(متفق عليه عن عائشة).

ذلك كله لأن الله عز وجل يقول مخاطباً نبيه ﷺ :

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ (المؤمنون : ٧٣)

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله﴾

(الشورى: ٥٢ ـ ٥٣)

ولذلك قال الزهري: كان من مضى من سلفنا، يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة..

وذلك أن السنة ـ كما قال مالك رحمه الله ـ مثل سفينة نوح... من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق.

٧

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقوم الناس بالقسط، وأن يكون الدين لله ، وأن يحكم في الدنيا نظام الاسلام:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ .

(الأنفال : ٣٨).

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ .

(التوبة: ٣٣)

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾.

(الحديد: ٢٥)

﴿ ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ .

(النساء: ٧٥)

ولكنه يشترط للوصول الى هذا الهدف سلامة الطريق، وذلك أمر يسميه الاستقامة:

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾

(هود: ١١٣)

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه﴾.

(فصلت: ٦)

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ﴾.

(فصلت : ٣٠)

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

(الاحقاف: ١٢)

﴿ فلذلك فادع، واستقم كما أمرت ﴾.

(الشورى: ١٥)

« قل آمنت بالله ثم استقم ».

(رواه مسلم عن سفيان بن عبد الله)

﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾.

(الروم: ٤)

« أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ».

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

وها هنا يتجلى الفرق بين النصر السياسي والنصر الخلقي!

الانتصارات السياسية لا وزن لها في ميزان الاسلام!

والمكاسب السياسية سراب!

وإنما هو النصر الخلقي!

أن ينسجم الانسان في سلوكه مع ما يدعو إليه!

ولا يهمه بعد ذلك رضي الناس أم سخطوا، حصل على مكاسب دنيوية أم لم يحصل!

وهكذا كان المسلمون الأولون . . .

لم يكن يهمهم مجرد الفتح ، إذا لم تكن طريقة الفتح كما يرضي الله !

ولم يكن يهمهم ملء بيت المال، إذا لم تتبع لملئه سبيل سليمة!

ولم يكن يهمهم أمر من الأمور، إذا لم يسلكوا له سنة قويمة ويؤدوه حقه!

قال أهل سمرقند لعاملهم سليمان بن أبي السري : أن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا [1]، وقد أظهر الله العدل والانصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكو ظلامتنا، فان كان لنا حق أعطيناه، فان بنا الى ذلك حاجة . فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوماً الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . فلما علم عمر ظلامتهم ، كتب الى سليمان يقول له : إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلماً أصابهم وتحاملا عليهم من قتيبة حتى أخرجهم من أرضهم . فاذا اتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم . فان قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة! فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضى ان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم! وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً، أو ظفراً عنوة! فقال أهل السغد (سمرقند) بل نرضى بما كان ولا نجدد حرباً.

---

(١) وذلك أنه بزعمهم لم يدعهم في البدء الى الاسلام ثم الى الجزية ثم الى الحرب.

ذلك في نظر السياسة فشل كبير، أن يتخلى الانسان عن أرض ملكها وحكمها. . . وليس كذلك في نظر الاسلام.

روى البلاذري في فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقباله اليهم لوقعة اليرموك، رّدوا على أهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم. فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. . .

وعن الهيثم بن عدي قال: كتب عدي بن أرطأة الى عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه: أما بعد فان قبلي ناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله مالاً عظيماً لست أقدر على استخراجه من أيديهم إلا أن يمسهم شيء من العذاب. . فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فلأفعل. . . فكتب اليه عمر رحمة الله عليه: « أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر! كأني لك جُنَّة من عذاب الله!! وكأن رضائي عليك ينجيك من سخط الله!!! فانظر، فمن قامت عليه البينة فخذه بما قامت به عليه، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخلّ سبيله! » . .

وعن اسماعيل بن عياش قال: كتب بعض عمال عمر اليه انه قد أضررت ببيت المال ونحوه. . قال: فقال عمر: « أعط ما فيه، فاذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلاً! » .

ومثلها أن بعض عماله كتب اليه في أن إسقاط الجزية عمّن يسلم يسبب خسارة لبيت المال فكتب اليه: « إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً!! ».

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا، كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين! إن يكن غنياً او فقيراً فالله اولى بهما، فلا تتّبعوا الهوى ان تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

(النساء: ١٣٥)

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنّكم (يحملنّكم) شنآن (بغض) قوم على ألا تعدلوا.. اعدلوا هو أقرب للتقوى. واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

(المائدة: ٨)

« ولا يجر منّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا! وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، واتقوا الله ان الله شديد العقاب ﴾.

(المائدة: ٢)

٨

قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ قال: أخلصه وأصوبه! قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه

وأصوبه؟ قال: العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. . . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة!

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: « اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لاحد فيه شيئاً ».

وقد قال الله عز وجل:

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾

(الكهف: ١١٠)

﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

(البقرة: ١١٢)

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾

(النساء: ١٢٥)

﴿ إن الانسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. . ﴾

(العصر: ٢ ـ ٣)

فقوام الامر كله سلامة الغاية، وذلك هو الايمان والاخلاص

وإسلام الوجه لله ؛ وسلامة الوسيلة وذلك هو الإحسان والصواب والعمل الصالح .

وليس يكمل للمسلم إيمانه وإسلامه، ما لم يبتغ الغاية والوسيلة معاً، ويحرص على سلامتهما معاً، ويستقم عليهما معاً .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً . . فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم!﴾

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم! ﴾

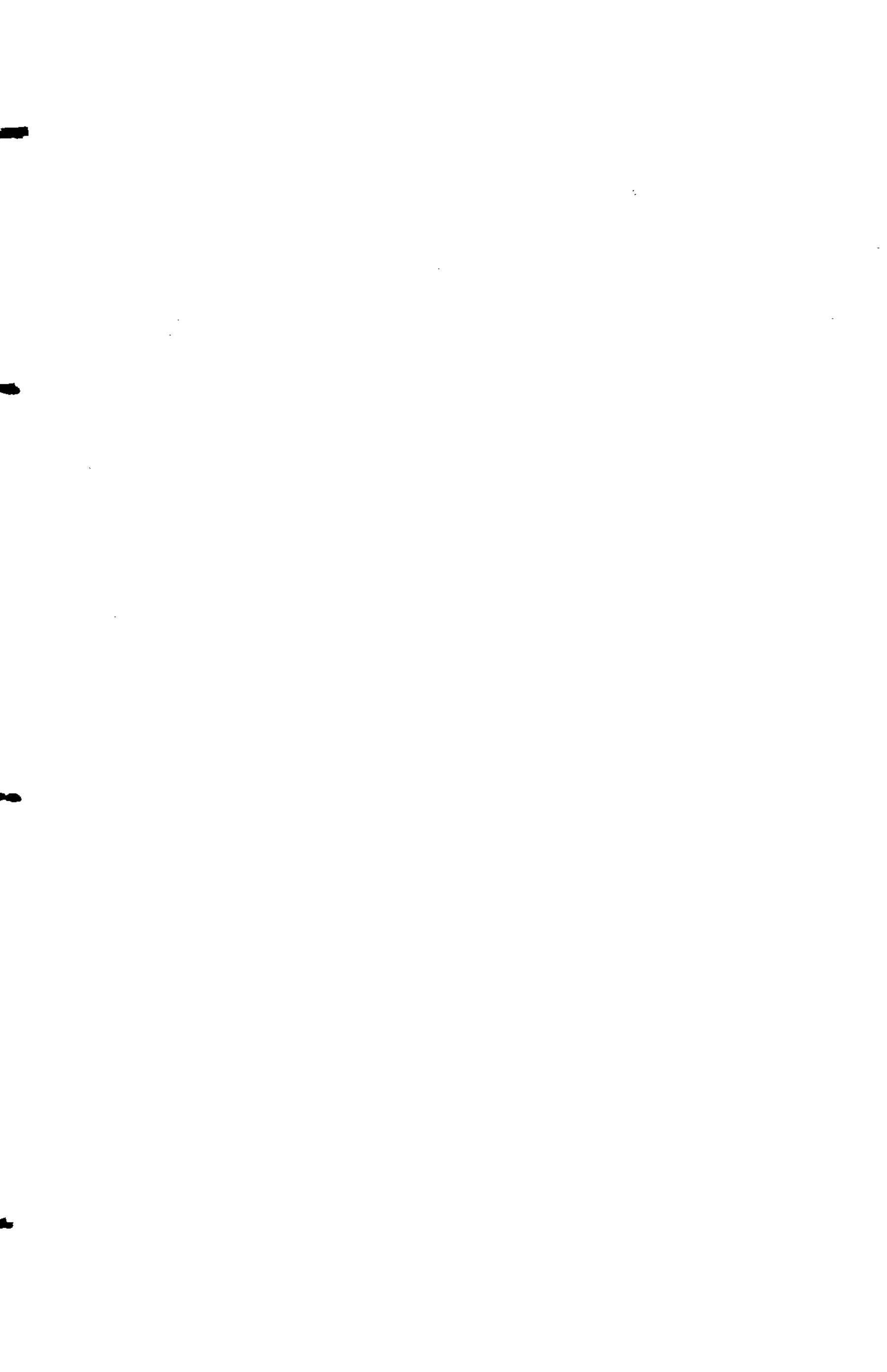
﴿ وقهم السيئات . . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته! ﴾[1]

(١) غافر : ٧، ٨، ٩

داء المسلمين ودواؤهم

للأستاذ
أبي الأعلى المودودي

صفر ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام الحنيف ليس عقيدة فحسب، ولا هو مجموعة من العبادات والطقوس الدينية فقط ولكنه نظام شامل للحياة ينظم العقائد والعبادات ومبادىء الأخلاق وقوانين المعاملات وسلوك الفرد والجماعة. وكل هذه الفروع متلاحمة يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقاً حتى تكون كلاً متماسكاً لا يتجزأ.

والإسلام من هذه الناحية يشبه الجسم البشري إلى حد كبير. فالجسم يتكون من أعضاء تؤدي وظائفها في تعاون وانسجام، وأنت إذا بترت أطراف الإنسان وقطعت لسانه وسملت عينيه وصلمت أذنيه ثم بقرت بطنه وأخرجت كبده ورئتيه وطحاله وحطمت جمجمته وقطعت مخه إلى أجزاء وأبقيت بعد هذا على القلب دون أن تمسه بسوء فهل يمكنك الزعم حينئذ بأن هذا المخلوق المشوه إنسان حي؟ فاذا افترضنا بعد كل هذا التمثيل البشع انه ينبض بالحياة فهل يمكنك الجزم بأنه صالح للبقاء؟

هكذا الحال مع الإسلام الحنيف فالعقائد قلبه النابض والصورة التي يرسمها للحياة البشرية والقيم التي يقررها للأشياء تقوم منه مقام « العقل » من الجسم. والقوانين التي وضعها لتنظيم المجتمع والاقتصاد والسياسة هي بمكانة الكبد والطحال

والمعدة وسائر الأعضاء الحيوية من جسم الإنسان ثم هو يحتاج إلى أن تكون حاسة السمع والبصر لديه سليمة حادة بحيث يمكنها أن تنقل بأمانة صورة صحيحة لما تراه وتسمعه كيما يصدر النقل عليها حكماً صحيحاً صائباً، والى لسان صادق أمين يترجم عن الأفكار التي يزدحم بها العقل وجو نظيف يتنفس فيه وغذاء صحي كامل يمده بأسباب الحياة والبقاء.

ومما لا مشاحة فيه أن أهمية (العقيدة) ومقامها في الإسلام مقام (القلب) كما سبق أن بينًا، جاءت من حيث أنها تمد الاعضاء والأطراف بنسبة الحياة فاذا بترت هذه الأعضاء أو عطلت عن أداء وظيفتها فكيف يمكن أن يتاح للقلب أن يظل حيا وعلى فرض أنه يقاوم الموت إلى حين فما تكون قيمة الحياة بالنسبة اليه وما قيمته بالنسبة لها؟

ولنبدأ الآن بتحليل حالة الإسلام في القارة الهندية على ضوء الحقائق. إن الشريعة الإسلامية والقوانين المنبثقة عنها معطلة، والقواعد التي أرساها الإسلام للأخلاق والسلوك وتنظيم المجتمعات البشرية لا يقوم منها إلا جزء ضئيل فانه ليس له في حياة الناس أثر، ومناهج الثقافة والتربية تصوغ أجيالنا في قوالب لا إسلامية بحيث تنشأ هذه الأجيال مبتورة الصلة بدينها بصورة جزئية أو كلية إن العيون ما زالت تبصر ولكن من زاوية لا يرضى عنها الإسلام، والآذان ما زالت تسمع لكنها تعكس الصوت

بصورة تتنافى مع الإسلام، والرئتان لم تعودا تستنشقان هواء نقياً لأن الجو المحيط بها قد تسمم، والجسم لم يعد يتناول غذاء نقياً طاهراً بعد أن تطرق إلى طعامه سوس الفساد وجراثيم التعفن، والصلوات التي هي في مقام الأطراف مصابة بالشلل بعد أن فقدت صلتها بأركان الإسلام الأخرى. فهل يمكن الزعم بعد هذا بأن الصورة التي نراها اليوم هي صورة للاسلام الصحيح؟ لقد بتر من أوصاله الكثير، وما بقي منها أصيب بالشلل والعجز، وحتى التي ما زالت تدب فيها الحياة بطيئة فاترة قد عطلت عن وظيفتها بسبب ما لحق أخواتها من سكون وهمود.

حتى القلب الذي كان يدفع الحياة دافقة في شرايين هذا الكيان العملاق لتعود اليه بالتالي قوة وعافية اصابته هو الآخر عدوى الداء، ولا ريب في ذلك فعندما يضطرب العقل وتبتر الأطراف ويستقر الكبد والطحال والمعدة والرئتان في غير مواضعها الطبيعية، فكيف ينتظر من القلب أن يظل صحيحاً معافى - إن قوة القلب وصلابته العجيبة هي التي جعلته يقاوم حتى الآن عوامل الموت والاضمحلال ليس ذلك فحسب بل أتاحت له أن يسير قدما وراءه هذه الأشلاء الممزقة والأعضاء المبتورة عبر القرون : هل يمكن لمثل هذا الإسلام المشوه أن يجتذب أحداً اليه وهل لديه من القوة ما يجعله قادراً على فرض نفسه على الحياة في الهند هل يستطيع هذا الإسلام وحاله كما بينت أن ينقذ بقية أعضائه من غواشي الموت أو أن ينقذ نفسه من الزوال وطوفان الكوارث ينتابه من كل جانب؟

وهكذا فان النتيجة المتوقعة سوف لا تحقق أمر الله تعالى ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ ذلك بأن آفة التمرد وشق عصا الطاعة على الإسلام والتنكر له آخذة في التعاظم والازدياد وهي على وشك أن تجتاح المسلمين أنفسهم. ولا يوجد مكان في الهند أو الأقطار المجاورة لها يعمل فيه النظام الإسلامي بحيث يتاح للناس أن يشهدوا آثاره العظيمة ونتائجه الباهرة وأن يعترفوا بقيمته وبالفوائد التي تنجم عن تطبيقه إن الذي يرونه ان هو إلا صورة مشوهة للاسلام العظيم أخذت مكان الصورة الحقيقية الرائعة.

وبينما يذهب قوم في الطعن في الإسلام صراحة وعلانية يمنع الجبن آخرين في إعلان عصيانهم باللسان ولكنهم يطعنونه بأفعالهم أشد وأقسى وهناك فريق ثالث قد انحرفت قلوبهم عن الإسلام ولكن لما كانت الثورة عليه لم تتفش الى الحد الذي يشجعهم على اعلان هذا الانحراف على الناس دونما خوف من النتيجة فقد حرصوا على المحافظة على نسبتهم اليه ولكن الغدر المبيت هنالك في قلوبهم، يبذرون بذور التمرد على الشريعة بين سائر الطبقات حتى إذا آتت ثورتهم المزعومة أكلها وكثر جندها أسقطوا القناع عن وجوههم ورفعوا أعلامهم البغيضة. وهناك فئة أخرى ليست من الجسارة بحيث تعلن انكارها وجحودها ولكنها تهمس في آذان كل من تلقاه بأن يستعد للاندماج في (قومية) جديدة وحضارة حديثة آخذتين في الظهور والاستعداد لذلك اليوم، لأن المسلمين قد بلغوا درجة في الجمود والانحطاط تجعلهم لا هم يفيدون الغير ولا

يسمحون لهم بالاستفادة من الثمرات التي تقدمها حضارات الأمم الأخرى وثقافاتها ثم هناك فئة ترى أن الحل السليم للمشكلة هو في تجميد هذا الإسلام وحصر سلطانه في محيط العبادات والعقائد ثم بتطبيق نظم الحياة والادارة التي طبقها غير المسلمين.

وأنا لا أعلم إذا كان هؤلاء يعتقدون حقيقة بصواب أفكارهم ونظرياتهم أم أنهم يعرفون الحقيقة ولكنهم يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس ولكن شيئاً هاماً قد غاب عن أبصارهم على كل حال هو أن المسلمين إذا عاشوا في ظل نظام لا يقوم على أساس الإسلام الحنيف فان معتقداتهم ستتعرض حتما لعوامل الفساد والضلال فلا (الايمان) يستطيع أن يعيش طويلا في مثل هذه الظروف المعادية له ولا (العبادات) تستطيع أن تحتفظ بجاذبيتها وسحرها ناهيك عن أن محيطاً كهذا أمين بألا يسمح بتطور النزعة الاسلامية تطوراً يؤدي في النهاية إلى إقامة بنيان الحياة وكيان المجتمع على أساسها ولنأخذ طفلاً ولد ونشأ في ظل هذا النظام الذي يقترحونه فانه سائل نفسه لا محالة ما لهذه المعتقدات التي لا فائدة منها والطقوس التي لا معنى لها موصولة بحياتي؟ ولماذا يجب علي أن أدرس القرآن وأؤمن به بعد أن انقطعت صلته بواقع الحياة وفقد تأثيره فيها؟ لماذا يجب علي أن أؤمن برجل عاش منذ أربعة عشر قرناً على أنه رسول من عند الله! وإذا لم يستطع هذا الرجل أن يحقق لي نفعاً في هذه الحياة الدنيا فما هو الخير الذي أصيبه إذا آمنت به كرسول وما هو الضرر الذي يقع علي إذا لم أفعل ؟ وما

دمت أعيش سعيداً في ظل هذا العالم(الرائع) فأي فرق بين أن أصلي وأصوم وبين أن أنـزع عن نفسي هذه الأغـلال! ثم كيف تستقيم هذه الأفعـال مع حياة المدنية؟ ولماذا تستمـر هذه النغمـة النشاز في إفساد لحن الحياة التي أحياها. تلك هي النتيجة الطبيعية لعزل الدين عن الحياة وهي نتيجة منطقية مع الأسباب التي مهدت لها إذا ما أصبح العزل تاماً من الناحية النظرية والعملية.

وهكذا فكما أن القلب يصبح فاقـد القيمـة إذا ما فصـل عن الجسد فإن العقيدة وسائر العبادات تفقد أثرهـا وفعاليتهـا كذلك عندما تعتزل الحياة. ان العقائد والعبادات هي العمد الشامخة التي يقوم عليها بنيان الحياة الاسلامية وهي بدورها تتلقى القوة والعافية من سيادة المبـادىء التـي تحميهـا وكما سبـق أن بينـــت، كلاهما كأعضاء الجسد الواحد لا يستغنـي أحـدهما عن الآخـر وفصـل أحدهما عن الآخر يعني الموت والفناءلكليهما معاً. وعلى هذا فإن الظن بامكان انتعاش المعتقدات الاسلامية في ظل نظام لا يقوم على أساس الاسلام ظن مغلوط إلا إذا جاز أن نضـع عقـلا وأطرافـاً بشرية لحيوان الغوريلا ثم نزعم بعد ذلك أن هذا الحيوان سوي الخلقة والتركيب.

وأحب أن يكون واضحاً في الاذهان أن أنظمتنـا الحـاضرة لا يقف تأثيرها المسموم عند شباب الجيل الصاعـد فحسـب ولكنـه يتجاوز إلى هؤلاء الذين ما زالوا على قسط من التمسك بتعـاليم الاسلام والذين ظلـوا على ولائهـم الموروث للعقيدة الاسـلامية

سواء كانوا من أبناء الجيل القديم أو الجديد إن الارتباك والتناقض الذي يسود حياة المسلمين في كل الأقطار هو بلاء عام لم ينج منه أحد وكل منا ينال قسطه من البلاء قدر استعداده للعدوى حتى علماؤنا وأئمتنا نالهم نصيب من هذا الطوفان الطامي ولكن جماهيرنا المنتشرة على رقعة من الأرض تقدر بستة ملايين من الأميال المربعة هي أشد عناصر الأمة تعرضاً للخطر، ذلك بأنهم ـ على الرغم من اخلاصهم العجيب للاسلام فإن إسلامهم إسلام إسمي فحسب وهم لا يعرفون الواجبات التي يفرضها عليهم هذا الاخلاص ولا يستطيعون النجاة بأنفسهم من هذه التيارات المنافية للاسلام والتي تسد عليهم المسالك كلها وتكاد تأخذهم من أقطارهم. ولهذه الأسباب أصبح هيناً على كل مضلل هدام أن يفيد من جهل هذه الجماهير فيزيف عقائدها وينحرف بأفكارها عن طريق الصواب وما عليه إلا أن يدس لها السم في الدسم ويقنعهم بأن النظريات والمفاهيم الجديدة التي تقدم اليهم لا تعارض بينها وبين الاسلام البتة وأن اعتناقها والايمان بها هو الصواب بعينه وهكذا تقاد جماهيرنا كل يوم إلى القاديانية مرة وإلى الشيوعية أو الفاشية مرة أخرى.

ويقتضينا الواجب أن نعترف بأنه لا تبذل جهود جدية لحل مشاكل هذه الجماهير الناجمة عن الفقر الذي يعانون ويلاته والحاجة التي يتجرعون غصصها على ضوء تعاليم الاسلام العظيم كما لا يوجد في العالم الاسلامي حزب منظم يتحدى الشيوعية بالدعوة

في عناد إلى الأخذ بالنظام الاقتصادي والاجتماعي في الاسلام وإبراز ما في النظم من روعة وكمال في علاجها لمشاكل الانسان في عصرنا الحاضر هذه المشاكل التي تقع في المرتبة الأولى من الأهمية قبل سواها ولهذا فليس عجيباً أن يقع كثير من المسلمين ممن ضربهم الفقر وأذلتهم المظالم الطبقية فريسة لتضليل الشيوعيين وأن يجد فيهم المغامرون وطلاب السلطة من أبناء الطبقة الوسطى بغيتهم لتحقيق أمانيهم وهكذا استغلوا في جماهيرنا حاجتهم للحياة الكريمة لأن الثورة الشيوعية علمتهم أن من أجدى الوسائل لنيل الحكم هو تأييد الطبقات العاملة واصطناع العطف على الفلاحين فبذروا في المجتمع بذور الأنانية والحقد وقدموا للطبقات المحرومة وعوداً معسولة بانصافها وتحريرها ورفع مستواها ولو أدى الأمر الى توزيع الثروة التي جناها أصحابها بالعرق والكد الشريف توزيعاً متساوياً باعطائهم ما يستحقون من ثمرات جهد الآخرين وبهذه الوسيلة يتم لهم الظفر بالسلطان الذي يستمتع به في ظل النظام الرأسمالي المملوك أو الديكتاتوري أو أصحاب الملايين.

وآلام هؤلاء الجماهير الاسلامية أشد من سواها ذلك بأن الشعوب الاسلامية تعاني أكثر من غيرها من آلام الفقر والعوز والمظالم الاجتماعية وينفذ هؤلاء الى قلوب الجماهير عن طريق (المعدة) وهي نقطة الضعف في الانسان الجائع المحروم فيعدونها بحلول اقتصادية تذهب بفقر الفقير وثروة الغني معاً وتحقق العدالة والرفاهية لكليهما واذا لجأت الجماهير اليهم تطالبهم بتحقيق الوعود

علموها كيف تقدس رغيف الخبز أشد من تقديسها كلمة الله ثم ذهبوا بالتدرج الى أكثر من ذلك في تطعيم أفكارها بالالحاد ومعتقداتها بالشك وسخروا أمامها بكل الأديان. ونفثوا في روعها أن (الخبز) وحده هو الشيء الحقيقي وأن طريقة الحصول عليه هي (الدين) الحق ووسيلة التحرر والخلاص. ليس للفقير أو المعوز أو العبد ديانة أو ثقافة على الاطلاق، ان اقدس الشرائع عنده رغيف الخبز، وأعظم الثقافات رداء ممزق يستر به عورته وأسمى عقائده هي التحرر من الفقر والعوز. إن الحاجة الى الغذاء والكساء تدفعه الى السرقة ان العالم الذي تسوده العبودية وتتفشى فيه المجاعات لا مكان فيه للدين « هذا هو الدرس الاول في التعاليم الشيوعية وفي اللحظة التي يتقبل فيها المسلم الجاهل هذه التعاليم يتلقى تأكيدا بأن دينه لن يمس بسوء في ظل الدولة الشيوعية وأن معتقداته ستحظى بالاحترام والتقدير : ما شأن الأديان والعقائد بهذه القضايا؟ وما هو الخطر الذي يتهددها من سيادة هذه المبادىء الاقتصادية البحتة ان الدين قد واكب التاريخ منذ أقدم الأزمنة وظل حياً يغمر باشعاعاته الحياة البشرية ما دام يحتفظ بمزاياه الروحية والخلقية. » هكذا تزعم الشيوعية للناس لكننا نعرف على وجه التأكيد تلك التغييرات التي أدخلها النظام الشيوعي على حياة المسلمين في روسيا خلال العشرين سنة الأخيرة هذه التغييرات التي تهدد مسلمي الهند كذلك. إن نار الجوع توشك أن تلفح قوة العقيدة بلظاها وإن الجدول المسموم الذي ينساب في بلادنا ببطء

يمكن أن نوقفه الآن بقطعة عصا صغيرة ولكن إذا مرت سنون أخر من التجاهل والاهمال فاني اخشى أن ينقلب طوفانا عاتياً لا تمنعه سدود ولا جسور.

وعلى ضوء الحقائق الآنفة الذكر يصبح من العبث الدعوة إلى الإسلام على طريقة التبشير المسيحية ولو طبعت ملايين النشرات تدعو إلى التمسك بالإسلام وتصيح بالناس أن (اتقوا الله) صباح مساء لما كانت ذات فائدة تذكر، إذاً ما هي الفائدة العملية التي ستنجم عن تأكيد ان الاسلام صالح لكل زمان ومكان وأن فوائده ومزاياه ليس لها مثيل عن طريق القلم والخطابة؟.

إن حاجة العصر تتطلب إبراز هذه المزايا بصورة عملية في عالم الواقع. ان مشاكل العالم المادية المعتنقة لن تحل لمجرد القول بأن الاسلام يملك حلها إن قيمة الاسلام الذاتية لا بد وأن تبرز إلى الوجود في هيئة نظام عملي مهيمن يلمس الناس آثاره ويجنون ثماره إننا نعيش في عالم يقوم على الصراع والكفاح والخطابة والوعظ في تغيير مجراه ولكن الكفاح الثائر وحده هو الذي يستطيع ذلك.

ولئن كانت الشيوعية بمبادئها المظلمة قد استطاعت أن تثير الخوف والهلع في العالم خلال نصف قرن، والفاشية بتعصبها الممقوت أن تثير الخوف والهلع في أنحاء الدنيا بأسرها والفلسفة (الغاندية) الداعية الى تجنب العنف أن تصبح شائعة ومقبولة على الرغم من منافاتها للطبيعة البشرية فليس هناك ما يمنع المسلمين من أن يحكموا العالم مرة أخرى بشريعتهم الخالدة التي تقوم على

الرحمة والعدل والاخاء البشري ولكن القبض على زمام السلطة لا يتحقق بالوعظ والارشاد ولكنه يحتاج لعمل دائب ونضال مستمر يستهدف ـ في حدود تعاليم السماء ـ القبض على أعنة الحكم وتطبيق شريعة الاسلام بعد ذلك.

إن كلمة (الكفاح الثائر) تبدو غامضة إذ أن لهذا الكفاح أشكالا وصوراً كثيرة لا تنتهي ولكن اختيار لون الكفاح يتوقف ـ أولا ـ على (نوع) الثورة المنشودة التي لا بد وأن تكون لها علاقة (نوعية) معه ونحن دعاة الاسلام لسنا بحاجة إلى ابتداع أساليب جديدة لانقلابنا المرموق لأن هذه الأساليب قد استخدمت من قبل في الثورة الاسلامية الأولى التي قادها الرسول عليه الصلاة والسلام وكانت متفقة تماماً مع روح الثورة وغاياتها ومما لا شك فيه أن حياة هذا النبي العظيم تعتبر معجزة سماوية ولكنها من ناحية أخرى تصلح أن تكون نموذجاً ومثالاً وأنى يتاح لانسان أن يكون على هذا القدر من عظمة الشخصية وسمو النفس والتحلي بمكارم الأخلاق كلها والاتصاف بالعدل والرحمة والقوة ومخافة الله وسائر الصفات العظيمة والشمائل الكريمة؟ ثم كيف يتسنى لبشر أن يحقق ثورة أخرى في كمال ثورة محمد وشمولها وقوتها؟ ومن هذه النواحي تظل حياة الرسول ﷺ معجزة عديمة النظير ولكن تظل الثورة التي قادها منذ أربعة عشر قرناً مثالا تحتذيه الأجيال ولهذا فان ثورتنا المنشودة إذا ما أتيح لها التشكل في إطار الثورة المحمدية الأولى والنسج على منوالها فان الثمرات المنتظرة ستكون شبيهة بالثمرات التي حققتها

ثورة الرسول عليه الصلاة والسلام وكلما كان التأسي صحيحاً والشبه بينهما قريباً تشابهت النتائج إلى حد بعيد. وسواء كانت في القرن الرابع عشر أو في القرن العشرين، في الهند أو أمريكا في أي مكان أو زمان فانك تستطيع القيام بهذه الثورة إذا وضعت نصب عينيك ذلك المثال الخالد. وهنا ليس مجال الحديث بالتفصيل عن الأساليب التي استخدمها النبي الأعظم في القيام بثورته تلك ولكن يمكنني القول إن فكرتي عن قيام (دار الاسلام) تحتضنه وترعاه انبثقت من خلال دراستي وتأملي لتلك الثورة العظيمة وأحداثها فعندما ألقيت أنوار الرسالة في صدر الاسلام للرسولﷺ لم يكن هناك مسلم واحد على سطح الأرض. وجاء محمد يعرض دعوته على العالمين. بدأ الناس يقبلون على دين الله في بطء وحذر أفراداً وجماعات وعلى الرغم من أن ايمانهم كان راسخاً كالجبال وولاءهم للمعتقد الجديد لايدانيه ولاء فقد كان تفرقهم في ارجاء الجزيرة ووجودهم في محيط يتعارض مع هذا المعتقد من أسباب ضعفهم وعجزهم عن تغيير الأوضاع التي كانت تنافيه وتتصدى له بالعدوان. وهكذا ظل الرسولﷺ يحمل لواء الكفاح فحمل (الدعوة) أربعة عشر عاماً كاملة حتى أفلح في أن يجمع حوله نفراً من المؤمنين المخلصين يشتعلون غيرة وإيماناً يبذلون نفوسهم وكل ما يملكون من مال ومتاع في سبيل الدين الذي اعتنقوه.

وهنا تنزل أمر السماء على الرسولﷺ يوجه خطاه نحو مرحلة أخرى من مراحل العمل أن يخرج بالفئة المؤمنة من محيط الكفر الى

محيط جديد تستطيع الدعوة أن تتنفس في أمان والأتباع أن يعملوا لها في حرية وانطلاق.

وهكذا اتيح للاسلام أن يجد (وطناً) تسري فيه تعاليمه وتنفذ فيه شريعته، وللمسلمين (دولة) تنمو في ظل حمايتها قوتهم الجماعية وتترعرع، وكانت يثرب أشبه ما تكون (بمحطة للطاقة الكهربائية) تجمعت فيها الطاقة الهائلة ثم انطلقت منها من جديد تبعث القوة في أوصال عالم خامد وترسل اشعاعاتها السنية إلى أقصى المعمورة لقد كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة تستهدف هذه الغاية ولهذا صدرت الأوامر إلى المؤمنين في أنحاء الجزيرة أن يتجمعوا في المدينة.

وبهذا انتقل الاسلام من مرحلة (الدعوة) المجردة الى عالم الواقع في هيئة نظام عملي يمارس نشاطه في الحياة، وفي هذا المحيط الطاهر أرسيت قواعد الحياة الاسلامية الصحيحة وأصبح كل فرد من أفراد الدولة الوليدة صورة حية للاسلام في أروع مظاهره فاذا رأيت أحدهم عرفت الاسلام وادركت رسالته الى العالمين. لقد تشربوا روح الاسلام واتسموا في كل أمرهم بطابعه: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ كما كانت أخلاقهم من المناعة والصلابة بحيث لم تصمد ازاء أخلاق الشعوب التي امتزجوا بها فحسب ولكن أخلاق هذه الشعوب هي التي تغيرت وانطبعت بطابع الاسلام. لقد تمكن الاسلام من قلوبهم واستحوذ على مشاعرهم بحيث كان له دائماً المقام الأول ازاء أمور الحياة الأخرى

وبالتعليم والمران كليهما استطاعوا أن يحققوا الصورة التي رسمها القرآن والسنة وأن يعالجوا بهما كل ما فسد من أحوال مجتمعهم وأن يجدوا لكل مشكلات عصرهم وأمراضه علاجاً في دين الله هذا هو النظام الرائع الذي ساد في يثرب في العصور الأولى للاسلام والذي يحتاج الى دراسة عميقة وتأمل دقيق ويمكننا القول ان نظاماً على شاكلته لكي يقوم يحتاج الى أربعة أصول رئيسية نجملها فيما يلي :

أولاً: تقوم في الأمة الاسلامية طائفة مهمتها العمق في فهم شريعة الاسلام بحيث تتوفر لديها المقدرة على شرح الاسلام وتبيان أهدافه في المجتمع والحياة في أحسن صورة ممكنة استجابة لأمر الله تعالى ﴿فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون﴾ (١).

ثانياً: تقوم الى جانبها طائفة أخري غايتها تكريس حياتها للدعوة الى النظام الاسلامي وبعثه للوجود ويتحتم على الجماعة الاسلامية أن تعفي هؤلاء من مهمة الكد في سبيل العيش ولكن عليهم أيضاً ألا يكترثوا لهذه المسألة سواء ضمنتها لهم الجماعة أم لم تفعل يجب أن يدفعهم حماسهم للرسالة المقدسة التي انتدبوا أنفسهم لها إلى الاخلاص التام والتضحية المطلقة في سبيلها بكل شيء: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون﴾ (٢).

ثالثاً: يجب أن يبلغ الايمان والاخلاص بكل عضو في الجماعات الاسلامية حداً يجعله يرى في اعلاء كلمة الله وقيام

---

(١) التوبة : ١٢٢.

(٢) آل عمران : ١٠٤.

سلطانه في الأرض واطاعة أمره أعظم غايات الحياة كما يجب أن يظل هذا المعنى مسيطراً على أفعاله وأقواله خلال عمله اليومي فالتاجر في متجره والزارع في حقله والصانع في مصنعه والخادم في بيت سيده يجب ألا ينسى هذه الرسالة ويجب عليه أن يذكر دائماً أن العمل ليس إلا وسيلة لحفظ الرمق وأن الحياة ليست إلا مجالا يتيح تحقيق هذه الرسالة الخالدة كما يتحتم عليه أن يتحري ما فرضه عليه الاسلام في سلوكه مع الآخرين ومعاملاته معهم فاذا ما تعارضت مطالب الحياة مع الاسلام فان عليه أن يكف عن محاولة التوفيق بينهما على حساب الدين وأن يرفض التضحية بعقيدته من أجل مغنم دنيوي في جرأة ومن غير ندم عليه كذلك أن يقدم لخدمة الفكرة الاسلامية كل ما يفيض عن حاجته من وقت أو مال وأن يحمل نصيبه من التبعات مع هؤلاء الذين وقفوا حياتهم على هذا الغرض: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [1].

رابعاً: يجب أن يتاح لغير المسلمين الدخول في دار الاسلام هذه وأن يتعرفوا على كتاب الله في جوٍّ تدور فيه الحياة نفسها على أساس القرآن الكريم وتعتبر ترجمة عملية لأهدافه وغاياته ومما لا شك فيه أنهم في مثل هذا المحيط سيستطيعون فهم القرآن بصورة أحسن من ذي قبل وسوف يبهرهم حتماً ما يشاهدون ويلمسون من آثاره في هذا المجتمع النموذجي ﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ [2].

---

(١) آل عمران : ١١٠.

(٢) التوبة : ٦ .

بهذه الوسائل استطاع الرسول ﷺ أن يوجد في (هذه المحطة الكهربائية) تلك الشحنة الهائلة من الطاقة خلال فترة من الزمن لم تتجاوز ثماني سنوات بحيث استطاعت أن تعم بضيائها جزيرة العرب وأن تشع بأنوارها على العالم من بعد وحتى اليوم وبعد أن انصرمت أربعة عشر قرناً كاملة ما زالت هذه الطاقة تشع بالنور والهدى في قلوب الملايين.

بعد عصر الخلفاء الراشدين تطرقت عوامل الانهيار الى النظام الاسلامي الذي أرساه الرسول ﷺ الأمر الذي أدى ببعض أصحابه رضوان الله عليهم أن ينشؤوا لهم (صوامع) أو زوايا يمارسون فيها الحياة الاسلامية كما عهدوها على الرسول الأعظم. وعلى الرغم من أن ذكر الصومعة بمعناها المفهوم في أذهان الناس في هذا العصر لا يعني أكثر من مكان ناء في قمة جبل لا تدخل أشعة الشمس ولا يعرف الهواء الى جوفه، مكان يعتزل فيه الناسكون الحياة حتى لا يكادون يشعرون بحركة الزمن أو تعاقب الليل والنهار نقول على الرغم من هذا الفهم فان الصوامع في الماضي كانت تستهدف المحافظة على تراث النبوة ومحاولة ترسم خطى النبي المباركة وأصحابه الميامين من بعده والعيش وفق النظام الذي عرفته مدينة الرسول في أيامها الزاهرات ولقد كان شأن قادة الأمة في عصورها الأولى أن يختاروا شباباً يؤهلهم إيمانهم الصادق وحماسهم نحو الاسلام فيضعونهم في هذه المدارس ويعدونهم لحمل أمانة الإسلام وينشؤوهم على حب الله ورسوله ويربوهم على مبادىء

الشريعة الحقة كما ربى القائد الأعظم أصحابه من قبل.
وعلى هذا فنحن مطالبون إذا كنا جادين في إحداث الانقلاب الاسلامي المنشود أن نترسم خطاهم ونسير على نهجهم وحيث أنه لا توجد (دار للاسلام) كمدينة الرسول خارج القارة الهندية فلا بد لنا من أن نوجد مثل هذه الدار في هذه البلاد ولو على هيئة مراكز تربوية يتحقق فيها المحيط الاسلامي الطاهر وتسوده أخلاق الاسلام ونظمه الاجتماعية وتصدر الأحكام على الأشياء بأنها خطأ أو صواب على ضوء ما قرره الله ورسوله بشأنها من حيث هي حلال أو حرام ويتضح لنا التناقض بين حاضرنا الذي نعيش فيه وبين حقيقة الاسلام الذي نعتقده ونؤمن به وحيث يمكن أن تحول دون هذه الامواج العاتية من الأفكار والعقائد المنافية للاسلام من أن تستولي على البقية الباقية من أثر الاسلام فينا وحيث يمكن أن روافد التشريع التي غذت الأمة الاسلامية بحاجات تطورها طوال قرون عديدة إلى أن دبت اليها عوامل الجفاف والقحولة في (دار الكفر) أن تعود للجريان مرة أخرى فاذا أنشئت مثل هذه المراكز التربوية فيجب أن لا يسمح بالانضمام اليها إلا لهؤلاء الذين يرغبون في خدمة الإسلام بعزم صادق وإخلاص تام، ويجب أن تعطى لهم الدراسات الملائمة والتدريب اللائق الذي يؤهلهم لحمل أمانة الاسلام. كما يجب أن يجري نظام العمل في هذه المراكز على نفس النمط الذي جرى على يدي الرسول صلوات الله وسلامه عليه أي ينقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: يتكون أفراده من أشخاص نالوا حظاً وافراً من الثقافة الدينية والعلمية فأما الذين تخصصوا في العلوم الدينية فيجب عليهم أن يدرسوا اللغات الأوروبية والعلوم الحديثة. وأما الذين نالوا قسطاً من الثقافة العصرية والعلوم الحديثة فيجب عليهم أن يتعمقوا في دراسة اللغة العربية والشريعة الاسلامية وعلوم القرآن الكريم والسنة المطهرة بحيث يتسنى لهم الحصول على درجة من المعرفة العميقة والفهم الصحيح لدين الله، ومن ثم يقسم هؤلاء الى فرق مختلفة كل فرقة تتخصص في فرع واحد من فروع العلوم الدينية وتكون مهمتها إعادة صوغ هذا العلم على أسس عصرية حديثة، ويتعين عليهم كذلك أن يحاولوا فهم مشاكل الحياة البشرية في الوقت الحاضر فهما موضوعياً عميقاً ثم يعملوا على حلها وفق مبادىء الاسلام وذلك بفصل المفاهيم الغربية الخاطئة التي تسللت اليها واعادة بنائها على أساس من نظرة الاسلام الى الكون والحياة. وباختصار يجب أن يكون هؤلاء من المقدرة والكفاءة بحيث يستطيعون خلق ثقافة صحيحة من نوع جديد لها من القوة والتأثير ما يحقق الثورة الفكرية المنشودة لصالح الاسلام.

القسم الثاني: أما القسم الثاني فسوف يكون مصنعاً (لتفريخ) الجند الذي سيناط بهم خدمة الاسلام، ويجب أن يتحلى هؤلاء بأخلاق فاضلة عمادها العفة والسمو عن الدلس كما يجب ألا تتحول أنظارهم مطلقاً عن غايتهم النبيلة، شعارهم

التضحية من أجلها والبذل في سبيلها. ومن هذه الفئة الفتية ستتكون نواة الحزب الانقلابي المنشود طابع أفراده البساطة والكد والمثابرة في العمل تسودهم روح النظام والاخاء والتعاون من خلال أعمالهم وسلوكهم يرى الناس الاسلام يمشي على قدمين، هذا الحزب سيقدم للناس الصورة العملية للنظام الجديد والاطار البشري للحضارة الجديدة التي ستقوم على أساس الاسلام ومن البديهي أن من غايات الحزب الرئيسية حشد الجماهير تحت لوائه عن طريق (الدعوة القدوة) كيما يظفر بالسلطة ويشكل الحكومة التي سيغرب بقيامها الى الابد شبح الطغيان وتشرق مع مولدها شمس الحرية والعدالة والمساواة.

القسم الثالث: ويتكون القسم الثالث من هؤلاء الذين لا يستطيعون التفرغ للدعوة للاسلام تفرغاً كاملاً ولكنهم يرغبون في الانضمام لهذه المنظمات لفترة من الوقت فحسب، وواجبنا نحو هؤلاء أن نغرس فيهم فضائل الاسلام ونزودهم بقبس من هديه ثم نخلي هؤلاء وسبيلهم يذهبون أنى شاؤوا وعندئذ ستكون لديهم المناعة الخلقية التي تعصمهم من الوقوع في مهاوي الضلال، وتجعلهم يؤثرون بسلوكهم فيمن يتصل بهم من الناس. ويتعين على هؤلاء أن يكونوا ممن لا يساومون على المبادىء ولا يقبلون موقفاً وسطاً بين الحلال والحرام راسخين في إيمانهم لا يخبطون في دروب الحياة على غير هدى بل هم قد يدركون النية من وجودهم ويعملون على تحقيق هذه الغاية. انهم يكسبون قوتهم بما أحل

الله من عمل أو تجارة وينفقون في سبيل الدعوة ويمدون يد العون المادي والأدبي الى العاملين في حقل الاسلام من أفراد القسمين السابقين، وبهذا يهيئون المحيط المناسب لولادة الانقلاب الاسلامي ونشأته وازدهاره.

القسم الرابع: أما القسم الرابع فيتكون ممن يرغبون في الاندماج في هذه المنظمات من المسلمين وغير المسلمين بقصد التعرف على البيئة الاسلامية والاتصال بأهلها وتفهم لون الحياة التي يحياها أفرادها ويجب أن يقدم لهؤلاء الأفراد كل تيسير ممكن كي يحظوا بفكرة صادقة عن الاسلام في صورته العملية وعن فضائل أهله وعن أثره المبارك إذا ما أتيح له أن يخرج من هذا النضال المحدود الى ساحة الحياة الرحيبة.

هذا تخطيط تقريبي للنظام الذي نعتقد بضرورة قيامه كخطوة أولى نحو تحقيق الانقلاب الاسلامي. وبداهة أن نجاح هذا النظام يتوقف على مدى انطباقه مع روح النظام الذي أقامه الرسول ﷺ في المدينة. وهنا أحب أن أزيل لبساً خطيراً قد يتبادر الى الأذهان من دعوتي إلى التأسي (بمدرسة المدينة) لتحقيق الانقلاب. إن تقليد المجتمع والتأسي به لا يجب أن يفهم على أنه دعوة إلى التقليد في المظاهر، أو أنه (ردة) عن التقدم الثقافي والعلمي الذي أحرزته البشرية في العصر الحديث الى ذلك المستوى الحضاري البسيط الذي ساد الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرناً. ان مثل هذا التصور للتأسي والاقتداء تصور مغرق في

الخطأ بعيد عن الصواب. ولعله مما يؤسف له أن كثيراً من دعاة الاسلام والمتدينين من أبنائه ظلوا يعملون له في ظل الفهم الخاطىء. فهم يرون أن اقتفاء آثار هذا الرعيل المؤمن لا يتم بغير ارتداء ملابسهم وأكل طعامهم وتقليدهم في الحياة المنزلية وهم لا يعلمون أنهم بهذا إنما يجمدون على صورة ذلك المستوى الحضاري القديم حتى قيام الساعة وأنهم يتجاهلون ما يقع حولهم من تغيير في كل شؤون العالم وانهم لا يستطيعون مهما فعلوا أن يوقفوا حركة الزمن، وأن يحولوا بين ما يمكن أن ينجم عن هذه الحركة من نتائج وبين التأثير في أفكارهم وحياتهم ومصيرهم إن هذا الفهم المغلوط للتأسي والاقتداء، والذي عمل في ظله كثير من قادة المسلمين خلال عصور الانحطاط التي المت بالامة الاسلامية ليتعارض تعارضاً صريحاً مع روح الاسلام. ان الاسلام لا يدعونا إلى الجمود، ولا أن نجعل من أنفسنا عاديات أثرية ساعية على أقدامها في دروب الحياة ولا من حياتنا (دراما) تاريخية في دار الآثار. إنه لا يدعونا الى حياة النسك ولا يرضاها لنا وليس من أهدافه أن يخلق أمة تقف حجرة عثرة في سبيل التطور البشري بل على العكس من ذلك يستهدف خلق الأمة لتتولى تنظيم هذا التطور وتوجيهه بحيث يتدفق في مجاريه الصحيحة بعيداً عن مجاري الخبث والضلال. ان الاسلام يمدنا بالروح التي نقيم على أساسها حضارتنا ولكنه لا يعطينا (الشكل) ويريد منا أن نستهدي تلك الروح في كل طريق نسلكه وكل عمل نقوم به ويجب

علينا ـ كمسلمين ـ أن نعلم بأن هذه الميزة هي التي أعطتنا مقام الامامة للشعوب وجعلتنا ﴿ خير أمة أخرجت للناس﴾ كيما نقود ونرشد ونقف من القافلة البشرية مقام (الطليعة) الهادية وليس في مؤخرة الصف خلف الأمم التي تشق طريقها في مضمار التقدم. ان النموذج الذي قدمه لنا الرسول ﷺ واصحابه يرينا كيف حققوا رسالتهم كخلفاء لله في الأرض باخضاع قوانين الطبيعة لحكم الشريعة. لقد طعّموا ثقافة عصرهم بروح الاسلام وأخضعوا القوى الطبيعية التي كانت تحت هيمنة الانسان في زمنهم لخدمة الحضارة التي جاءوا بها وسبقوا غيرهم من الشعوب التي عاصرتهم في الاستفادة من ثمرات التقدم الحضاري الذي أحرزته الانسانية حتى ذلك الوقت وهكذا تم لخلفاء الأرض أن يبسطوا سلطانهم على الأمم التي تمردت على سلطان الله. وكيف لا يفعلون ذلك والقرآن يناديهم بأمر الله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾؟ لقد أدرك مسلمو العصور الأولى أن لهم الحق قبل سواهم في استغلال قوى الطبيعة التي سخرها الله لعباده وعلى هذا فان الاقتداء الصحيح بالرسول الأعظم وأصحابه يتطلب منا كذلك أن نعمل جاهدين كي نسخر كل ما حققته لنا العلوم الحديثة من سيطرة على الطبيعة في خدمة الحضارة الاسلامية التي نروم انشاءها.

ان الشر والفساد لا يكمن وراء هذه القوى التي أخضعها الانسان لارادته بالعلم وبالبحث والمعاناة ولكنه يكمن في الحضارة الملحدة التي تنمو وتترعرع على حساب جهده ونضاله. ان المذياع

ليس شراً في ذاته، ولكن الشر في روح الحضارة التي جعلت منه وسيلة لنشر الاضاليل وافساد الأخلاق واشاعة الميوعة والتخنث، والطائرة ليست فساداً في ذاتها ولكن الفساد كمن في روح الحضارة التي جعلت منها آلة مسخرة في يد (ابليس) تقذف النار والدمار على الآمنين، والسينما ما كانت لتصبح عدوة للاخلاق لو لم تتحكم فيها روح الحضارة الشريرة وجعلها مباءة لنشر الفساد والفجور واشاعة الفسق. هذه الحضارة تنمو فروعها السامة وتزدهر لأن القوى الطبيعية التي سيطر عليها الانسان سخرت بالتالي لخدمة هذه الحضارة وتحقيق فلسفتها في الحياة فاذا أردنا أن نعمل لخير الانسانية بتشييد الحضارة (السماوية) التي نبغيها ونحقق فلسفتها فلا مناص لنا من السيطرة على هذه القوى لأنها كالسيف يفوز من يحمله بغض النظر عن الغرض الذي سيستخدمه فيه شريفاً كان أم وضيعاً. فاذا قنع هؤلاء الذين يستهدفون الخير للجنس البشري بالقعود وتمني الأماني دون أن ينتزعوا (السيف) من أيدي الخصوم فان الخطأ خطؤهم وتبعة القعود عن نصرة الحق بالقوة تقع عليهم وحدهم دون سواهم. إننا نعيش في عالم يحكمه قانون ثابت هو السبب والنتيجة، وانه لمن المستحيل أن يخرج هذا القانون الثابت عن قواعده من أجل انسان من الناس أو امة من الامم.

وبعد فلعلي في هذه الحالة العاجلة قد قدمت صورة للحركة التي أرجو وقوعها. هذه الحركة التي ليست (رجعية) بالمعنى

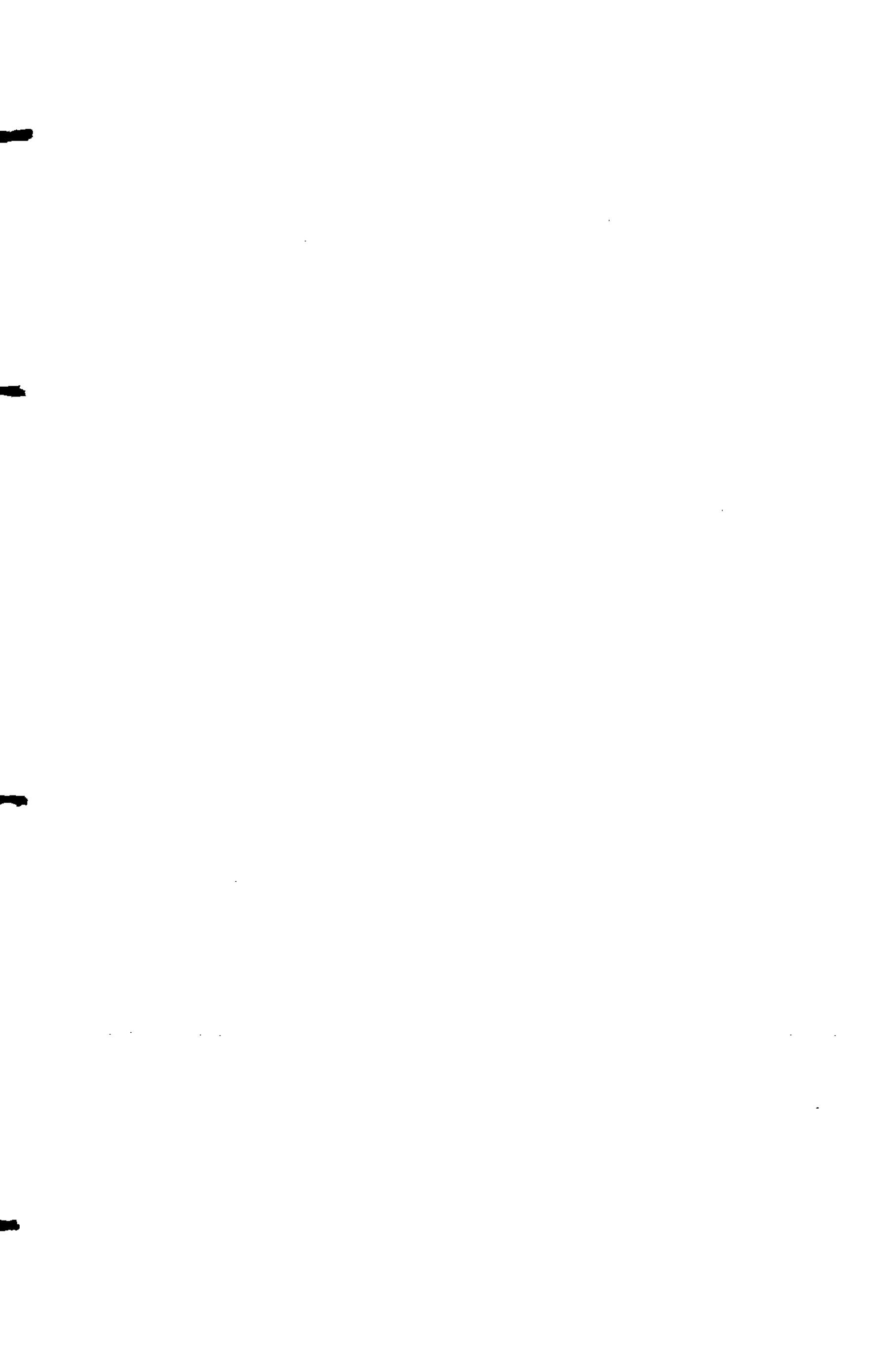
المفهوم في أذهان الناس وليست (تقدمية) بمعنى أنها تستهدف التقدم المادي فحسب. ان المراكز التربوية التي أتخيلها يجب أن توجد في كل مكان والانقلاب الذي أنشده ليس شبيهاً بحركة الفاشست في ايطاليا ولا بالحركة (النازية) التي شهدتها المانيا إن النموذج الوحيد الذي تتخذه هذه الحركة قدوة ومثالا هو مدرسة النبوة في المدينة والحزب الذي تتأسى به هو (حزب الله) الذي صنعه محمد العظيم فغير به وجه التاريخ.

مشاهد من السيرة

عبد الملك بن هشام الحميري

صاحب السيرة المتوفى سنة ٢١٣ هـ .

ربيع الاول ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في الدنيا مغرياتها وأنزل فيها القرآن، وبث فيها الشياطين يوسوسون لبني آدم ويزينون لهم الغواية، وأرسل فيهم الرسل ينذرونهم ويبينون لهم سبيل الهداية. وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه واكرم رسله الذي أرسله رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين، فكانت أقواله وأعماله طريقاً للحق والخير والسعادة يتيّمها أهل الحق والخير والسعادة.

وبعد، فلقد طال على الناس الأمد، وقست من اكثرهم القلوب، وفسد الناس، فقام من فسادهم أمام أعينهم حجب وحول قلوبهم أغشية، وفشت في الأمة مذاهب، وسادت فيهم عادٌ وأعراف، فغامت سماؤهم بعد إشراق، واضطربت بهم فتن كقطع الليل المظلم يرقق بعضها بعضاً، حتى احتار الحليم، وتوقف الحكيم، وأشفت الحال على خطر عظيم.

ولا بدَّ لمن أراد الخلاص من هذا المرض، والنجاء من هذا الخطر، من احداث ثورة في حياته، ليصلح فسادها، ويقوّم اعوجاجها، ويقيم بناءها من جديد على أساس سليم، ليسير آنذاك على المنهج السويّ والصراط المستقيم..

ولكنه لن يستطيع هذا مع هذه المفاهيم المنحرفة والتصوّرات الخاطئة، التي تغلغلت في العقول من هذه البيئة القذرة، التي

تسربت اليها وعشّشت فيها تلك المدينة الذميمة. فلا بدّ له اذن، إذا أراد الحق، ورغب في الخير، من أن يصحح أولاً ما اضطرب من مفاهيمه وتصوراته، ويعدّل ما اختل من مقاييسه وموازينه، ويسدّد ما انحرف من نظراته إلى الحياة والكون.

وأداة هذا وسبيله والطريق الموصلة اليه كتاب الله عزّ وجل يتمعن فيه، وحديث رسول الله ﷺ يتأمله، وسيرته يدرسها ويعيش في ظلالها.

وقد اغتنمنا هذا الشهر، شهر المولد، لنساعد على هذا من يرغب فيه، مقدمين له هذه الصفحات من السيرة، استقيناها من سيرة ابن اسحق لابن هشام، ليتمعن فيها ويتأمل، ويبحث ويدرس، وينتهي إلى نتائج يرفض معها ما خالفها مما أَلِف وظنّ واعتاد، وتدفعه بعد ذلك الى تناول السيرة بكاملها، يستبدل بواسطتها جواً بجو، وطريقاً للحياة بطريق.

والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

لجنة المسجد

- ١ -

كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرُضعاء قالت: وهي في سنة شهباء (أي شديدة القحط) لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على اتان قمراء (أي انثى حمار يميل لونها الى الخضرة) معنا شارف (أي ناقة مسنّة) لنا والله ما تبضّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صَبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكنا كنّا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرّضعاء، فما منّا امرأة الا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ ، فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم، وذلك انا إنّما كنّا نرجو المعروف من أبى الصبي، فكنَّا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمّه وجدّه؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه، قال: لا عليكَ أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت اليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حِجري أقبل عليه

ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِي، وشرب معه أخوه حتى رَوِي، ثمّ ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شافنا تلك، فاذا إنها الحافل (أي ممتلىء ضرعها من اللبن) فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمةُ لقد أخذت نسمة مباركة. فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب، ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى أنّ صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذُؤَيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فاقول لهنّ: بلى والله، إنها لهي هي، فيقلن: والله إنّ لها لشأنا، قالت: ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شِباعاً لُبّناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تَبِضّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شِباعاً لُبّناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفَصَلْتُه وكان يشِبّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً (أي غليظ الجسم شديداً كأنه ابن أربعة أعوام)، قالت: فقد منا به على أمّه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنّا نرى من بركته.

- ٢ -

كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطّ، فمن رجل يسمعوه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » رافعاً بها صوته ﴿الرحمن عَلّم القرآن﴾ ثم استقبلها يقرؤها، وتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: انه ليتلو بعض ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقاموا اليه فجعلوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثمّ انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان اعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

- ٣ -

عن ابن شهاب الزهري: أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شَريق الثقفي، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم

مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرّة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثمّ تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه.

كان بلال مولى أبى بكر رضي الله عنهما، لبعض بني جُمـع، مولداً من مولديهم، وكان صادق الاسلام طاهر القلب، وكان أمية ابن خلف الجمحي، يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.

وكان ورقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك، وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع به ذلك من بني جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتّخذنّه حنانا (أى مظنة رحمة، فأتبـارك به، وأستمطـر عنده رحمة الله). حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقـال لأمية بن خلف، ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينـك، أعـطيكه به، قال: قد قبلت، قال: هو لك، فأعطاه أبـو بكر الصـديق رضي الله عنـه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه. ثم أعتق معه قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب بلال سابعهم: عامر بن فُهيره، شهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً (كان عامر بن الطفيل أخزاه الله يقول: من رجل منهم لما قُتل رأيته رُفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء

من دونه؟ قالوا: هو عامر بن فُهيره) وأم عُبَيْس، وزنّيره، وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزّى فقالت: كذبوا وبيت الله، ما تضرّ اللات والعزّى وما تنفعان فردّ الله بصرها، وأعتق النهدية وبنتها. وكانتا لا مرأة من بني عبد الدار، فمرّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلٌّ يا أم فلان (أي تحللي من يمينك، ولا تصرى على هذه اليمين الفاجرة)، فقالت: حِلٌّ؟ أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما وهما حرتان، أرجعا اليها طحينها، قالت: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نردّه اليها، قال: ذلك أن شئتما.

ومرّ بجارية بني مؤمل ـ حيّ من بني عدى بن كعب ـ وكانت مسلمة، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر اليك، إني لم أتركك إلاّ ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

وقال أبو قحافة لأبي بكر: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو إنك إذ ما فعلت، أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبي، إني إنما أريد ما أريد لله، فيتحدث انه ما نزل هؤلاء الآيات الا فيه وفيما قال له أبوه: ﴿ فَأما منْ أعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا

لأَحد عنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْـهِ رَبّـهِ الأعلى وَلَسَـوْفَ يَرْضى ﴾

- ٥ -

عن ابن عمر قال: لما أسلم أبي عمـر قال: أي قريش أنقـل للحديث؟ فقيل له: جميل بن مَعْمَر الجمحي، فغدا عليه قال عبد الله بن عمر: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له أعلمـت يا جميل أنـي قد أسلمـت ودخلت في دين محمد؟ فو الله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول باب الكعبة، إلا أن عمر بن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر من خلفه: كذب ولكني قد اسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وثاروا اليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم وطَلحَ (أي تعب وأعيا) فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنّا ثلاثمائة رجل لتركناها لكم، أو لتركتموها لنا، (لاحظ أن المسلمين كانوا في بدر ثلاثمائة تقريباً) فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حِبرَة وقميص موشى حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبـأ عمـر، قال: فمـه؟ رجـل اختـار لنفسـه أمـراً فماذا تريدون؟ أترون بني عديّ بن كعب (عشيرة عمر) يسلمون لكم

صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه، فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينـة: يا أبـت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك جزاه الله خيراً؟ قال: يا بنيَّ ذاك العاص بن وائل لا جزاه الله خيراً.

- ٦ -

قدم رجل من أراش (قبيله) بإبل له مكة، فابتاعها منه أبـو جهل، فمطلـه بأثمانهـا، فأقبـل الأراشي حتـي وقـف على ناد من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش، من رجل يُؤْديني على أبي الحكم بن هشام (أي يعيننـي على أخذ الحق منه) فإني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي. فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس، لرسول الله ﷺ ، وهم يهزؤون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة، إذهب اليه فإنه يؤديك عليه فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله، إن الحـكم بن هشـام قد غلبني على حق لي قبَله، وأنا غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقى منه فأشاروا لي اليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله. قال: انطلق اليه، فقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: إتبعه، انظر ماذا يصنع. وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ فقال: محمد فاخرج إلى. فخرج، اليه وما في وجهه من

رائحة، (أي بقية روح) قد انتُقع لونه، فقال: أعطِ هذا الرجل حقه. فقال: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل فخرج اليه بحقه فدفعه اليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للأراشي: إلحق بشأنك. فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي. وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك! ماذا رأيت؟ قال: عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج اليه وما معه روحُه فقال له: أعط هذا حقه، فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج اليه حقه، فدخل فخرج اليه بحقه فأعطاه إياه.

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا: ويلك! مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط، قال: ويحكم! والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت منه رعباً، ثم خرجت اليه وإنّ فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصَرَته (أي رأسه وعنقه) ولا أنيابه لفحل قط والله لو أبيت لأكلني.

- ٧ -

كانَ رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف أشد قريش « فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعض شِعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ : ياركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك اليه؟ قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق؟ قال: نعم،

قال: فقم حتى أصارعك فقام ركانة اليه فصارعه، فلما بطش به رسول الله ﷺ، أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عد يا محمد، فعاد، فصرعه، ثم قال: يا محمد، والله ان هذا للعجب، أتصرعني؟ قال رسول الله ﷺ فاعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري!

قال: ما هو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني. قال: ادعها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقال لها: ارجعي إلى مكانك، فرجعت إلى مكانها فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف: ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحر منه قطّ، ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.

- ٨ -

كان عمرو بن الجموح ممن بقوا في المدينة على دينهم من الشرك، وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة وبايع رسول ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سليمة، وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة، كما كانت الأشراف يصنعون تتخذ إلهاً تعظمه وتظهره، فلما أسلم فتيان بني سلمه معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو، في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمه وفيها عِذَر الناس، منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال:

ويلكم! من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فاذا أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهّره ويطيّبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله فطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو، عدَوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عِذر من عِذَر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه، حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم يرحمه الله وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة، فقال :

والله لو كنت إلهاً لم تكن
انت وكلب وسط بئر في قرن
أفّ لملقاك إلهاً مستدن
الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمـد لله العليّ ذي المنن
الواهـب الـرزّاق ديان الدِّين
هو الـذي أنقذني من قبـل أن
أكون في ظلمـة قبـر مرتهن
بأحمـد المهـدِي النبـيّ المؤتمن

- ٩ -

لما هاجر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت إقامته بقُباء، وكان يقول : كنت نزلت بقباء على امـرأة لازوج لهـا مسلمـة، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج اليه، فيعطيها شيئاً معه، فتأخذه، فاستربت بشأنه، فقلت لها : يا أمـة الله، من هذا الرجـل الـذي يضرب عليك بابـك كل ليلـة فتخرجين اليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت : هذا سهل بن حُنَيف بن واهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسَّرها ثم جاءني بها فقال : احتطبي بهذا.

فكان عليّ يأثرُ ذلك (أي يرويه ويحدث به) من أمر سهـل بن حُنيف، حين هلك عنده بالعراق.

- ١٠ -

عن أبي أيوب الأنصاري قال : لما نزل على رسول الله ﷺ في

بيتي، نزل في السّفل، وأنا وأم أيوب في العلّو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعُظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظْهَر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: يا أبا أيوب، أن أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت. فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحِاف غيرُها نُنشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به اليه. فإذا ردّ علينا فضله، تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة. حتى بعثنا اليه ليلة بعشائه، وقد جعلنا له فيه بصلا، أو ثوماً، فرده رسول الله ﷺ، ولم أرَ ليده فيه أثراً. فجئته فزعاً فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أرَ فيه موضع يدك، وكنتَ إذا رددته علينا تيممتُ أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة، قال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه.

قال: فأكلنا، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

- ١١ -

كان مخيريق حبراً عالماً (من أحبار يهود) وكان رجلا غنياً كثير

الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحُد يوم السبت، قال : يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا : إن اليوم يوم السبت، قال : لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد،، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قُتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول : مخيريق خير يهود. وقبض رسول الله ﷺ أمواله. فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

وعن صفية بنت حييّ بن أخطب قالت : كنت أحَبَّ ولد أبي اليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطّ مع ولدهما إلا أخذاني دونه، قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حييّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. فهششت اليهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيي بن أخطب : أهو هو؟ قال : نعم والله، قال أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم، قال : فما في نفسك منه؟ قال : عداوته والله ما بقيت.

قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم : العاقب، أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح. والسيد، ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وأمامهم وصاحب مدارسهم، وكان أبو حارثة قد شَرُف فيهم ودرس كتبهم حتى حَسُن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له، فوجها إلى رسول الله ﷺ وإلى جانبه أخ له يقال له كور (ويقال كوز وكرز) بن علقمة، فعثرت بغلة أبي حارثة فقال كوز : تعس إلا بعد، يريد رسول الله ﷺ ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست، فقال : ولم يا أخي؟ قال : والله أنه للنبيّ الذي كنا ننتظر، فقال له كوز : وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا الا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقة حتى أسلم بعد ذلك فهو كان يحدث عنه هذا الحديث.

قال رسول الله ﷺ ـ يوم أحد ـ : من يأخذ السيف بحقه؟ فقام اليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام اليه أبو دجانه سماك بن خَرَشَة أخو بني ساعدة، فقال : وما حقه يا رسول الله؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني. قال : أنا آخذة يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلا شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل.

يقول الزبير بن العوام : وجدت في نفسي، حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت : أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت اليه فسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني والله لأنظرنَ ما يصنع فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي
ونحن بالسفح لدى النخيلي
أن لا أقوم الدهر في الكيول
أضرب بسيف الله والرسول

(ويروي في الكبول، يعني آخر الصفوف) فجعل لا يلقى أحداً

إلاّ قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً الا ذفَّف عليه (أي أجهز عليه وقلته) فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدَرَقَتَه (أي بترسه المصنوع من الجلد) فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبه (التي لاكت كبد حمزة) ثم عدل السيف عنها فقلت (أي الزبير) : الله ورسوله أعلم.

قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يحمش الناس (أي يحرضهم على القتال) حمشاً شديداً، فصمدت له (أي قصدت اليه) فلما حملت عليه السيف وَلْوَل، فاذا إمرأة فاكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به أمرأة.

وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل.

- ١٤ -

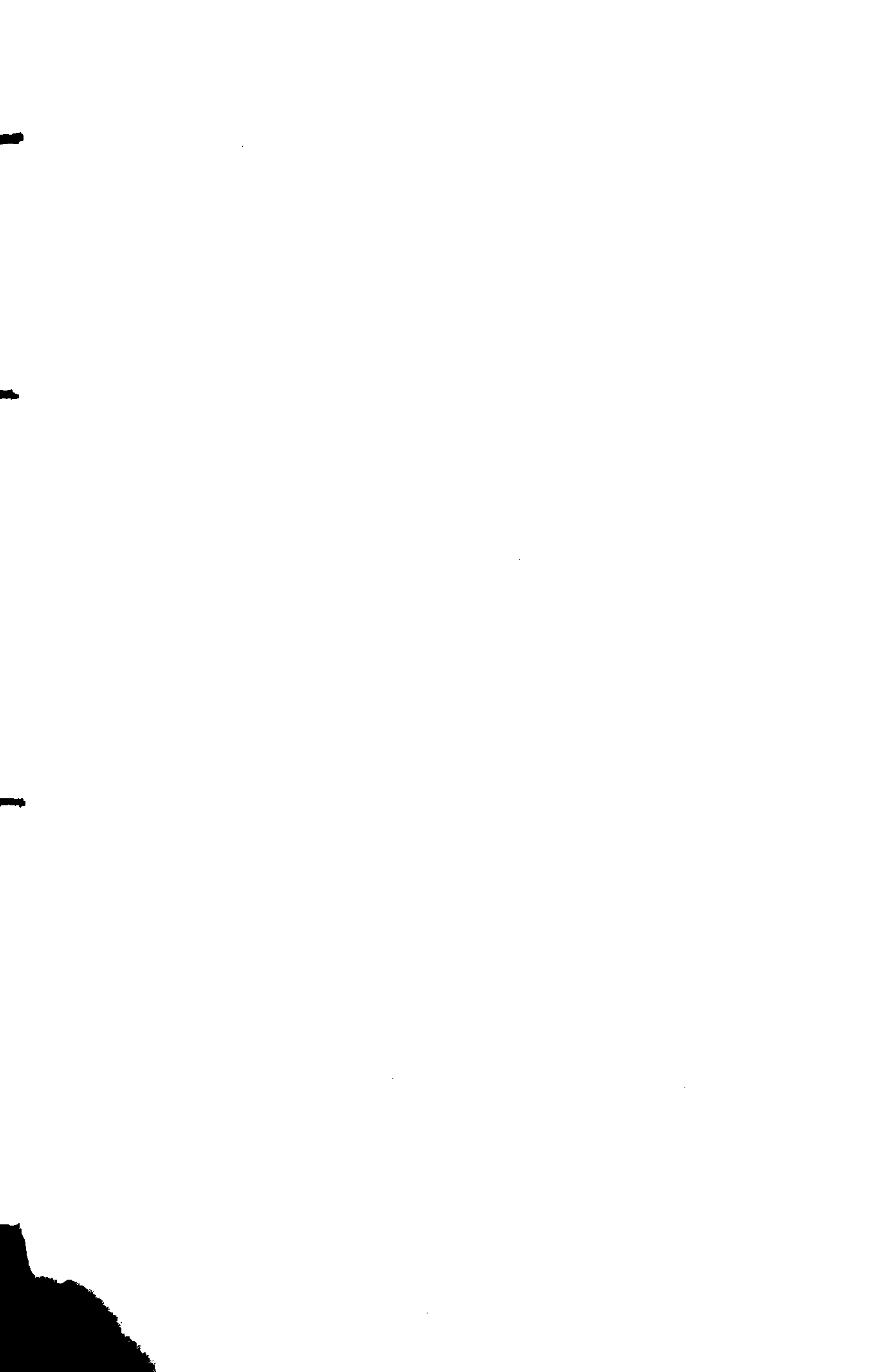
وقاتلت أمّ عُمارة نُسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد، فكانت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول : دخلت على أم عُمارة فقلت لها : يا خالة، أخبريني خبرك، فقالت : خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه. والدولة والريح (أي الغلبة والنصر)

للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انْحَـزْت إلى رسول الله ﷺ ، فقمت أباشر القتال وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليّ، فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت : من أصابك بهذا؟ قالت : ابن قمئة ، اقمأه الله (أي أذله وجعله وضيعاً) لَّما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ ، أقبل يقول دلّوني على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربني هذه الضربة، فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان.



العلّامة الأستاذ سليمان النّدوي

ربيع الثاني ١٣٨٢ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

ان الثقافة الغربية قد واجهت العالم بسيل غامر من احاديث أبطالها رجالا ونساء، ونحن اذ نتحدث عن الفضليات من نساء المسلمين قديماً وحديثاً نجد أنفسنا في جو قد امتلأ بأسماء الغربيات، ففي مدارسنا الاسلامية تجري على ألسنة الأساتذة والطلاب أسماء فتيات كان لهن في الحروب والوقائع مواقف وجهود، كتبت لهن الرفعة والخلود، فيذكرون ام جان دارك، أو يتحدثون عن بعض أولئك المتطوعات من اسبانيا في حرب نابليون. ولدينا في تاريخ الاسلام ذكريات حافلة بنجوم مشرقة من اولئك الخيرات المستبسلات اللواتي وقفن حياتهن لاعلاء كلمة الاسلام ورفع رايته، وناضلن الى جانب الرجل في الحدود التي تسمح بها أنظمة الدين وتقاليد الآداب. ونحن ذاكرون لك بعض هؤلاء المجاهدات من خواتين الاسلام من العرب والترك والهند بقدر ما يتسع له المجال.

ان تاريخ قوميتنا الاسلامية مملوء بالعشرات بل بالمئات من الوقائع الكبرى ومن الاسماء المجيدة الخالدة التي تحيي في قلوبنا العزة والفخار، ولكن آذاننا ـ واحسرتاه ـ قد أصيبت بصمم عن هذا التاريخ، لأن أسماء أخرى قد تكدست بها أفكارنا وعقولنا

فأصبحنا لا نسمع طنيناً ولا دويا ولا نصغي الى صوت الا اذا أقبل ذلك كله من ناحية الغرب. جرت عادت العرب قبل الاسلام أن كان الابطال من الرجال يتقدمون الى المعارك ومن خلف صفوفهم النساء والاطفال. ولقد كان لأولئك المجاهدات يد عاملة في كسب المعركة، فهن يواسين المرضى ويسعفن الجرحى ويتعهدن الخيول والأسلحة ويراقبن الأسرى ويحافظن على كل أمتعة الجيش ويلقين الأراجيز والقصائد التي توقد نار الغيرة والحمية في قلوب الأبطال ويذكرنهم بأسلافهم الماضين الذين عادوا من حروبهم منتصرين.

لست في هذا القول متجنياً على التاريخ مختلقاً تلك المفاخر والمناقب العليا التي مثلتها رسالة المرأة العربية، فان كنت في ريب مما أقول، فاني أحيلك على عمرو بن كلثوم الشاعر صاحب المعلقة يسمعك بنفسه صدى هذه الحقيقة.

على آثارنا بيض حسانٌ	نحاذر أن تقسّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً	إذ لاقوا كتائب معلمينا
لكي يسلبن أفراسا وبيضا	وأسرى في الحبال مقرنينا
ظعائن من بني جشم بن بكر	خلطن بميسم حسبا ودينا
يفتن جيادنا ويقلن لستم	بعولتنا اذا لم تمنعونا

وبقي هذا الأسلوب من الجهاد في الاسلام، فكان للنساء نصيبهن من أعباء المسؤولية التي يقوم بها الرجل في الغزوات، ففي احدى المواقع كانت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها

تسقي الجرحى من جنود المسلمين بالقربة، ومع ذلك فان رسول الله ﷺ كان يكره أن يحمل الأزواج نساءهم الى الموقعة في غير حاجة. وقد سألت عائشة رسول الله ﷺ بما معناه أن الرجال ينالون الأجر ويفوزون بالدرجات العالية عند الله لجهادهم في سبيل الله، فقال : جهاد المرأة الحج.

ويروي لنا أبو نعيم صاحب الحلية أن جيش المسلمين لما توجه مع رسول الله ﷺ الى غزوة خيبر خرج من المدينة خلف الجيش ست نساء، فلما علم بأمرهن رسول الله ﷺ غضب لذلك، فقلن له يا رسول الله قد خرجنا ومعنا الدواء لنسعف الجرحى ونخرج من أجسامهم السهام ونعد للجيش الطعام، فأذن لهن ﷺ ، ولما انقضت غزوة خيبر وكتب فيها النصر والفلاح لمسلمين جعل النبي ﷺ لهؤلاء النساء قسما في الغنيمة وأسهم لهن فيها مع الغزاة من الرجال « انتهى بالمعنى ».

ويروي لنا الطبري في احدى المواقع أن الرجال كانوا يخرجون قتلاهم الى مكان خلف الصفوف. وكانوا يعمدون بالجرحى الى النساء ليقوموا بتجهيز الشهداء. وفي حرب الأغواث والأرماث من سلسلة حروب القادسية كانت النساء ومعهن الأطفال يقمن بالتجهيز وحفر المقابر للشهداء. « راجع الجزء السادس صفحة ٢٣١٧ طبع أوروبا ».

وفي فتح القادسية أيضاً تقول بعض النساء اللائي شهدن الحرب : لقد كنا نشمر عن سواعدنا ونمضي خلف الصفوف والى

الأطراف، وبأيدينا العصي فمن وجدناه من الجرحى حملناه.

ويتبين مما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب وهـو المعـروف بشدته على النساء لم يضن بفرض العطاء لأم سليط الصحابية لأنها أبلت بلاء حسناً مع المسلمين في غزوة أحد، عندما تكاثر الرمـاة على المسلمين وأحدقوا بهم فكانت تضمد الجرحى وتسقيهـم الماء من قربة كانت معها.

ومما سبق يتجلى ما كان للمرأة المسلمة من صدق اليقين، وكمال الغيرة على الـدين ، وحرصهـا أن لا تحـرم من شرف الجهـاد مع المسلمين لتنال فخر المجاهدين وأجر الصابرين. ويعلم مما سبـق أيضاً أن المشروع من الجهاد كان ينحصر تقريباً في هذه الأمور.

١ - سقي الجرحى واطفاء ظمئهم في المعركة الحامية.

٢ - تنظيم الاطعمة للجنود.

٣ - حفر القبور للشهداء.

٤ - نقل المصابين من بين الصفوف، كيلا يحدث بقاؤهم على هذه الحالة اضعافاً للروح المعنوية، أو اخلالا بأنظمة الصفوف.

٥ - امداد المصابين بوسائل الاسعاف الممكنة.

٦ - امداد الجند واثارة النخـوة والغـيرة، وبعـث روح الهمـة والاستبسال اذ دعت الضرورة الى ذلك.

واذا تتبعت سجل الجهاد في القـرن الاول الهجـري صحيفـة صحيفة وجدت المرأة المسلمة تؤدي فريضتها كاملة خلف صفوف الرجال، ، في حومه النضال، ولكن القـارىء قد يستـولي عليه

العجب اذا علم أن ربات الحجال من الجنس اللطيف، قد أتيح لهن أن يقاتلن أيضاً كما يقاتل الرجل في بعض الضرورات الحازبة فينتصرن كما ينتصر الرجـل، وأتيح لليد الناعمـة أن تضرب بشجاعة الايمان رأس الكفر فترديه صريعاً.

وفي غزوة الخندق تجمع أحزاب المشركين وغيرهم، وعسكرت قبائلهم قرب المدينة وشغل النبي ﷺ والمسلمون بأمر الخندق، ثم خان بنو قريظة في معاهدتهم فأحدثوا بذلك ثغـرة داخليةً في قوة الاسـلام إذ ذاك. وهنالك ابتلي المؤمنون زلزالا شديداً. وكان بنو قريظة يؤدون المسلمين من الخلف ويساعدون الأحزاب.

وفي مكان بالمدينة كان النساء بمعزل عن الجيش ولم يكن لديهن من الجنود من يمنعهن غائلة اليهـود من بني قريظة وفي تلك الاثناء أقبل يهودي فاطلع على مكانهن، ورأته صفية أم الزبير بن العوام وعمة رسول الله، فطلبت الى حسـان أن يقتـل ذلك اليهـودي، خشية أن يطلع بني قريظة على عورات المسلمـين ولـكن حسـان اعتذر وتخلف عن الاقدام فتقدمت صفية رضي الله عنها وحملت عموداً من بعض الخيام وضربت به رأس اليهودي فسقط على الثرى قتيلا. وهنا يقول المؤرخ ابن الأثير الجزري مامؤداه : أن صفية هي التي ضربت المثل الرفيع في البطولة الاولى للمرأة المسلمة. وفي أسد الغابة أن أم سليم والدة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، شهدت المغازي كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد كان جهاد المرأة المسلمة في خدمة الاسلام واضحـاً قوياً،

منذ فجر الدعوة. والتاريخ يحفظ لنا اسم تلك الصحابية الوفية أم عمارة، فقد اشتركت مع المسلمين في بيعة العقبة. ولما توجه رسول الله في السنة السادسة الى الحج عام الحديبية وأرسل عثمان رضي الله عنه الى مكة، ثم شاع بعد ذلك نبأ قتل عثمان أخذ رسول الله ﷺ البيعة من أصحابه على قتال المشركين، وكانت تسمى هذه بيعة الرضوان، وقد اشتركت فيها ام عمارة، كما أنها شاركت زوجها زيد بن عاصم في غزوة أحد.

وفي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ظهرت فتنة مسيلمة الكذاب، فوجه اليه جيشاً باليمامة استشهد فيه كثيرون من المسلمين وقتل الكذاب اللعين، وفي تلك الموقعة كانت أم عمارة مع الجيش، وقد حاربت بنفسها حتى جرحت يدها، وأصيبت في هذه الموقعة اثنى عشر اصابة.

وفي عهد أمير المؤمنين، عمر الفاروق، رضي الله عنه، كان لا بد للاسلام لكي يرفع علمه ويثبت قدمه من مواجهة أعظم قوتين تسيطران على ذلك العصر في الشرق، وهما الفرس والروم، وأعظم موقعة هدمت بنيان الدولة الرومانية إذا ذاك كانت موقعة اليرموك، كما أن القوة العظيمة التي لم يكن العرش الكياني في الدولة الفارسية يستطيع أن يعد أكثر منها تتمثل في ذلك الجيش الكبير الذي ظهر عند فتح القادسية.

هاتان المعركتان تتمثل فيهما البطولة العظمى والجهاد المجيد، الذي مهد الطريق بعد ذلك لانتشار الاسلام بين ربوع الشرق

والغرب فيما بعد. ولا نستطيع أن ننسى أن نجاح الاسلام في هاتين الموقعتين كان يرجع الفضل في كثير من نواحيه إلى نساء الاسلام وكلماتهن النارية فقد التقى المسلمون بالفرس عند القادسية سنة ١٤ هجرية في المحرم وكان الجيش الفارسي في نحو مائة الف أو يزيدون، ولم يكن جيش المسلمين يزيد على الثلاثين الفاً، جرح كثيرون منهم، فكان النساء ومعهن الاطفال يقمن بحفر قبور الشهداء ويرفعن الجرحى من الصفوف، ليقدمن لهم ما يستطعن من العلاج والاسعاف.

أما ايقاد الروح المعنوية وامدادها بنار قدسية من الايمان الصادق فحدث عن ذلك، فما يستطيع تاريخ في العالم أن يحدثنا عن بلاغة نسوية كتلك الكلمات الخالدة التي تروى لنا عن امرأة نخعية تقول لأولادها :

« إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تثربوا، ولم تنب بكم البلاد، ولم تقحمكم السنة، ثم جئتم بأمكم عجوزا كبيرة فوضعتموها بين أهل فارس، والله إنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، انطلقوا واشهدوا أول القتال وآخره »(انظر الطبري جزء ٦ ص ٢٣٠٧).

وقد مضى أولادها بعد وصيتهالهم، وأقبلوا على الميدان شجعانا مستبسلين. فلما اختفوا عن نظرها توجهت الى الله داعية لهم بالسلامة والنصر. وبعد أن أنتهت المعركة بفوز المسلمين، عاد أولئك الابناء سالمين مظفرين وألقوا بين يديها الغنائم والأسلاب.

وليس في الناس من يجهل الخنساء التي كانت مضرب المثل في شعر الدموع والرثاء، رفع الاسلام نفسها، وأثار قلبها، ودفع بها الايمان الى حرب القادسية اشتركت بأبنائها الأربعة، وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى جمعتهم وزودتهم بنار من الايمان ونور من اليقين، في تلك الكلمات الخالدة :

« يا بني إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين، من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل :﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. فاذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. وإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها واضطرمت، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة » (أسد الغابة).

ولما كان الصباح احتدم وطيس الحرب، فتقدم أبناؤها الأربعة واشتدوا على عدوهم غير مبالين بالموت حتى قضوا نحبهم جميعاً. ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء لم تجزع بل قالت : الحمد لله الذي شرفني بهم. وقد فرض لها عمر رضي الله عنه من بيت المال ما كانت تحصل عليه من ابنائها، أي ثمانمائة دينار.

وبعد واقعة الجسر التي اشتد فيها ضغط الفرس على المسلمين حدثت معركة عنيفة تسمى «حرب البويب». وهي التي كانت مقدمة لحرب القادسية، وفيها فاز المسلمون بنصر مبين، ونالوا من الفرس غنائم وفيرة لا تحصى. وإذ ذاك كان نساء المسلمين، قد ضربت لهن الخيام بعيداً عن الموقعة.

ولما كان أمر تدبير الطعام والمؤونة وقد وكل اليهن، فقد أرسل المثنى قائد الجيش ما وقع له من الغنائم الوفيرة الى خيام النساء في حراسة بعض الجنود. ولما رأى النساء سواد القافلة عن بعد خيل اليهن أن القادمين إنما هم فرقة من الأعداء جاؤوا للاغارة عليهن ولم يكن معهن في ذلك الوقت سلاح يدفعن به هجوم المغيرين، فلم يقفن عاجزات مستسلمات - بل القين بأطفالهن وفلذات اكبادهن وأقبلن على أعمدة الخيام وأوتادها يقلعنها ليتخذن منها أسلحة يقمن بها في وجوه الاعداء. ولما رآهن كبير القافلة على هذه الحال صاح صيحة الاعجاب والتمجيد لبطولة جيش الاسلام تلك البطولة التي غمرت الرجال والنساء والكبار والصغار. ثم بشرهن بنصر المسلمين وأدى اليهن الغنائم.

وفي حرب ميسان ظهرت للنساء بطولة عجيبة وذلك أن المسلمين التقوا بأعدائهم من أهل ميسان قريباً من نهر دجلة بقيادة المغيرة، وكان هذا القائد قد ترك جموع النساء في مكان يبعد عن الميدان، ولما اشتبك الفريقان واستحر القتال، نظرت بنت الحارث فوجدت أن العدو يكاد يحيط بالمسلمين فأشارت على صواحباتها أن

من الخير التقدم إلى الجهاد وتقوية ظهور المسلمين، ثم أخذت منديلها فصنعت منه علماً واقتدى بها النساء وسار جميعهن الى الميدان تحت الاعلام المرفرفة فلما نظر الاعداء اليهن من بعد ظنوا أن جيش المسلمين أرسل اليه المدد من القوة والعتاد والرجال فأدركهم الرعب واستولى عليهم الهلع والاضطراب فانكسرت شوكتهم وتزعزعت روحهم المعنوية، فولوا مدبرين، وفروا من المسلمين. وكان الفضل في ذلك الفوز للفرقة التي ألفتها بنت الحارث.

وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفي غرة العام الثالث عشر من الهجرة غزا المسلمون دمشق وحاصروها بعد عدة معارك طاحنة واشتد الأمر على من كان فيها. وبينما المسلمون يحاصرون المدينة بلغهم أن تسعين ألفاً من جنود الروم عسكروا في أجنادين بمعداتهم الحربية القوية، وكان جنود المسلمين إذ ذاك قد انتشروا في مختلف التخوم والأطراف من بلاد الشام، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه قد انضم إلى أبي عبيدة بعد قدومه من العراق فأجمعا أمرهما على لمّ شعث الجيش الاسلامي المنتشر بين الأصقاع والمدن وقرروا أن يتوجهوا بالجيش لمحاربة الأعداء في أجنادين، وأخذ الجيش الاسلامي ينصرف عن دمشق يتقدمه خالد، وسار أبو عبيدة خلف الجيش بما معه من عدة وعتاد يصحبه النساء والأطفال.

ولما رأى أهل دمشق انصراف المسلمين عنهم رأوا أن الفرصة قد

أتيحت لهم ليثأروا وينتقموا منهم، ثم فتحوا باب المدينة ووثبوا عليهم. وكان قيصر الروم قد أرسل بالمدد إلى دمشق فوصل جنوده في نفس ذلك الوقت وبدأوا يعترضون طريق المسلمين، وكان طباعياً أن يجد المسلمون أنفسهم في حصار ضيق بين نارين مستعرتين من الخلف والأمام وفي حالة يضطرب معها الاحساس ويتبلبل معها الشعور وتضيع الثقة، ولكنهم على العكس من ذلك قويت فيهم روح الإيمان والثبات فناضلوا العدو من الجهتين نضال الشجعان والأبطال المؤمنين بنصر الله وتأييده، ولكن همهم الأعظم كان موجهاً إلى المحاربين من الجهة الأمامية فافترض الدمشقيون هذه النهزة للهجوم على المسلمين ورائهم وأحاطوا بمن معهم من النساء محاولين سبيهن وسوقهن إلى دمشق فنظر بعض النساء إلى بعض وأخذت خولة رضي الله عنها تصيح في جموع النساء بما معناه : هل تقبلن يا معشر المؤمنات أن تقعن في حبائل مشركي دمشق اسارى؟ وهل فيكن من تقبل أن تدمغ بوصمة العار والشنار مجد العرب وبطولة المسلمين، إن الموت لأجدر بنا من حياة الذلة والهوان.

فعلت هذه الكلمات النارية فعلها، فتشجع أولئك الفضليات واستشعرت قلوبهن روح اليقين والثبات فوقفن في صفوف منتظمة وأخذن يقتلعن أعمدة الخيام ليتخذن منها أسلحة ودروعا يدفعن بها جيش المشركين. وكان في مقدمتهن خولة ثم عفيرة بنت عفار، فأم أبان بنت عقبة وسلمة بنت نعمان بن مقرن وغيرهن.

وفي مدة وجيزة استطاعت أولئك الخفرات المستبسلات أن يدفعن أمامهن رجال المشركين ويسقطن منهم ثلاثين محارباً يتخبطون في دمائهم. وقد حاول المشركون أن يعاودوا الكرة عليهن فاستبسل المسلمات ودفعنهم إلى الوراء منهزمين مدحورين. ثم أقبل المدد من جيش المسلمين بعد فراغهم من المعركة، فألحقوا بالبقية الباقية من المشركين هزيمة منكرة، ثم ثنى جيش الاسلام عنانه مولياً وجهه شطر أجنادين لإبادة جيوش الروم المجتمعة هنالك.

وقد نقل المؤرخ أدوارد جيبن في تاريخه هذه الوقعة في شيء من التفصيل وتناول بالحمد والثناء تلك العفة والعصمة والبطولة والشجاعة التي تجلت في سجايا المسلمات الفضليات. ثم قال: «لقد كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديراً بالاجلال والتقدير. كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمي السهام، واستطعن بتلك الخلال العالية أن يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج».

ولقد كانت موقعة اليرموك تعد اولى الحروب المنظمة بالنسبة للمسلمين، فقد اشتمل جيشهم فيها على أربعين ألفاً من صفوة الشجعان المنتخبين، وكان جيش الروم يربو على مائة الف، وكان هذا الطوفان العظيم من الخلائق في جيش الروم مزهو بكثرته، وظن اولئك الجنود أن سيسحقون المسلمين عن بكرة أبيهم بضربة واحدة، وكان عددهم يجاوز أربعة أضعاف الجيش الاسلامي

وتقدموا بهذا الغرور وأقاموا من خلفهم استحكامات تمنعهم من الفرار على مثل ما فعل طارق بن زياد فيما بعد. ثم أقبلوا بعد ذلك في هجوم عنيف واغاروا بعددهم الزاخر حتى دفعوا بميمنة المسلمين والحقوهم بخيام النساء، وكان في ميسرة جيش المسلمين عدد كبير من قبيلتي لخم وجذام، فهاجم جيش الروم ودفع بهم الى قرب خيام النساء أيضاً واخذوا يتقهقرون بغير انتظام، أمام حكامهم القدماء، فثارت الغيرة والحمية على أشدهما في قلوب أولئك النساء وبرزن من خيامهن ليقتلعن أعمدتها ويحملن ما استطعن حمله من السلاح ثم أقبلن على العدو فأنزلن به هزيمة نكراء، وأخذ اولئك الذين كانوا يندفعون كالسيل الجارف يرتدون مولين الأدبار ثم عاد اولئك الفضليات الى رجال المسلمين يشعلن في قلوبهن نيران الغيرة والحمية، فعاد الجيش الاسلامي الى نظامه وأزاح من أمامه ذلك الطوفان من جيش الاعداء.

وكان نساء قريش كذلك يتقدمن بذلك الايمان الصادق حتى دفعن الأعداء من أمامهن وتقدمن صفوف الرجال في تلك الموقعة. وقد تقدمت جويرية أخت معاوية بفرقة من النساء، وأخذت تناضل حتى جرحت. وما زالت صيحات أم معاوية هند بنت عتبة تتردد بكلمات الشجاعة في مسمع أجيال التاريخ! وما أعظم تلك الحمية التي تجلت في خولة بنت درار، وهي تنشد الأشعار، وتدفع بالأبطال الى خوض الغمار. وهي تقول:

يا هارباً عن نسوة تقيات　　　رميت بالسهم والمنيات

وقد نوه الطبري في تاريخه بفضل أم حكيم بنت حارث. وذكر ابن الأثير الجزري أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم. كما حدثنا ابن عمر الواقدي عن أولئك الأعلام من الفضليات اللائي ابلين في هذه الحرب خير بلاء، فمنهن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وزوج عبادة بن الصمت من رواة الحديث وخولة بنت ثعلبة وكعوب بنت مالك وسلمى بنت هاشم وعفيرة بنت عفارة رضي الله عنهن.

مضى المسلمون بعد حرب « اليرموك » يتعقبون جيش الروم، وأقاموا قريباً من دمشق، وهنالك تزوج خالد بن سعيد من أم حكيم بنت الحارث، وأقام وليمة فاخرة للمسلمين، وضرب قبة لأم حكيم على مقربة من جسر لا يزال يسمى باسمها حتى الآن. وبينما كان المسلمون في شغل بالوليمة وأطعمتها أقبل نذير جيش الروم فرفعوا أيديهم من صحاف الطعام، الى امتشاق الحسام. ثم وثبوا على الروم وثبة الأسود الغضاب، وأسكنوا في صدورهم الأسنة والحراب، حتى مزقوهم أشتاتاً بين الربا والهضاب.

أما « أم حكيم » فلم تنس نصيبها من البطولة والشجاعة، فنسيت زينة العرس وحلة الزفاف، وأقدمت لارتداء حلة الشرف والاستبسال ونسيت أنوثتها وقاتلت بعزيمة الرجال فأبادت من جيش الروم سبعة من المحاربين وربما قتلت اكثر من ذلك. وليست العبرة بالقتل ولا بالمقتولين، وانما العبرة بالايمان والعزم واليقين.

ولو سلمنا برواية الواقدي عن فتوحات الشام للزمنا أن نذكر للمرأة أكثر مما نذكر عن الرجل في كثير من تلك الفتوحات. وقد حدثت موقعة الجمل وكانت عائشة الصديقة رضي الله عنها أحد ركني النضال فيها، وكلنا نسلم بأنه قد وقع خطأ اجتهادي في هذه الموقعة. والمجتهد يثاب على خطئه، ولكننا نرى في هذه الحادثة كيف يسمو مركز المرأة المسلمة ويعلو شأنها في الاستقلال، وتحمل مسؤولية النضال.

ولعلك تذكر فيما أسلفنا أسماء أم حكيم وهند وأم أبان وأم عمارة وخولة ولبنى وعفيرة، فقد تحدث عنهن الواقدي في فتوحات الشام، ومن رواياته يتبين أن اولئك الفضليات قد أبلين بلاء المؤمن الصادق وساهمن مع الرجال في ادارة رحى القتال، بما خلد أسماءهن في صحائف الأجيال.

وقد كان عتبة بن غزوان أميراً على بعض الجيوش من قبل عمر رضي الله عنه، فلما التقى بأهل مدينة الفرات كانت زوجه أزدة بنت الحارث طبيب العرب تقوم بدورها في تشجيع الناس وإذكاء نار الحمية والغيرة في قلوبهم مما كان له عظيم الأثر في اكتساب النصر والظفر.

وعندما استشهد أبان بن سعيد اثناء الحملة على دمشق بيد حاكمها « توما » كان وقع نبأ قتله أليماً في قلب زوجته أم أبان بنت عتبة فهاجها مقتله وخرجت بكل سلاح أمكنها ومضت تطلب الثأر من القاتل الآثم لزوجها المقتول. وقد صابرت الأعداء مدة،

وكانوا محاصرين داخل المدينة إلا أنهم كانوا يواجهون المسلمين من بعض الأبراج، فلمحت أم أبان بعض فرق الجيش متجمعين في برج منها، وأمامهم الكاهن يحمل صليباً ذهبياً كبيراً ويدعو أربابه الثلاثة للنجدة والانقاذ، وكانت أم أبان ذات براعة فائقة في تسديد الرماية، فوجهت ضربة قاصمة وسهماً نافذاً الى حامل ذلك الصليب. فما لبث الناس أن أخذتهم الدهشة واستولى عليهم العجب حينما رأوا ذلك الصليب الذهبي يهوي على الأرض بجانب القلعة محطماً قد تناثر الى قطع وجذاذات.

وقد هال الجيش المحاصر ما صنعت هذه المرأة بذلك الشيء المقدس في نظرهم وقد هوى على الأرض في ذل وهوان وهو موضع الشفاعة والقربان، فثارت فيهم النعرة الصليبية ونسوا التضييق والحصار، وثار قائدهم « توما » ففتح باب القلعة وانساب جيش الروم كأنه سيل يجتاح السد والجسور وقد أخذ المسلمين شي من الرعب أول الأمر لما رأوا من اندفاع القوم بلا تؤدة ولا روية، وكانوا يحاولون أن يستردوا صليبهم الذهبي بأي ثمن، وكلما اقترب منه جندي وقفت له « أم أبان » بالمرصاد ترشقه السهم النافذ في صميم الفؤاد فترديه الى الأرض صريعاً، إلا أن « توما » قائد القوم لم يجد في نفسه صبراً على ترك الصليب في أيدي المسلمين، فتقدم في جرأة لا تعرف الهوادة فأدركته « أم أبان » بسهم نفذ إلى عينه فذهل عن الدنيا وعن الجيش والصليب وعن نفسه ايضاً، وأخذ يدور في

الميدان يبحث عن الموت أو يبحث الموت عنه. وقالت « أم أبان » في ذلك رجزاً:

« أم ابان » فاطلبي بثاركِ   صولي عليهم صولة المداركِ
قد ضج جمع القوم من نبالكِ

وفي حروب اليرموك كان أشد أيامها يوم التعوير، وفيه اشتد الامر على المسلمين وكادوا يولون الأدبار لولا أن وقف النساء يرددن جيوش الروم بما فيهن من أيمان وغيرة حولت انوثتهن الناعمة الى بطولة خشنة تستهين بالموت وتفرح بالاستشهاد في سبيل اعلاء كلمة الله. وكانت أسماء بنت أبي بكر الى جانب زوجها الزبير رضي الله عنها تقاتل جنباً الى جنب على جوادها.

وقد روت لنا مصادر التاريخ في حرب صفين مواقف عظيمة للمرأة، وحوار الزرقاء مع معاوية بعد قتل علي كرم الله وجهه يدل على مقدار مساهمة المرأة في الحرب ان لم يكن بالسلاح فبالتحريض الذي هو أمضى من الاسلحة وأنفذ من الرماح. وقد وقفت الزرقاء وأم الخير وغيرهما من النساء تحرضن الرجال بالخطب المثيرة والكلمات القوية المؤثرة مما لا يزال كثير منه محفوظاً في كتب الأدب والتاريخ.

وفي خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٠ هجرية هجم جيش المسلمين على بخارى، وكان قتيبة بن مسلم قد تولى قيادة الجيش، وكانت قبيلة أزد مضرب المثل في الشجاعة والاستبسال بين قبائل العرب، وكان لرجالها في الفتوحات الاسلامية أحسن الاثر أيضاً،

فلما رأوا طوفان الجيش التركي مقبلا من بخارى، استأذن رجال تلك القبيلة قتيبة ليتقدموا في الطليعة فأذن لهم والتحموا بأتراك بخارى، ولكنهم وجدوا أمامهم أقداماً ثابتة لا تتزلزل، فحمي الوطيس واستحر القتال الى أن هزم أولئك الأزديون وارتدوا الى مراكز الجيش وتعاظم الأمر قتيبة ومن معه، وكاد عسكر المسلمين يولون فراراً في غير انتظام، فثار النساء من كل مكان وتصايحن بالجنود وأخذن يضربن الخيول ويرددن الفرسان الى الميدان فعادوا وثبوا وثبة كتبت لهم النصر والفوز المبين.

ان النساء المسلمات لم يحملن في هذه الحرب أسلحة ولا دروعاً، ولكن جهادهن لم يكن أقل من السيوف مضاء، فاليهن يرجع الفضل في كسب تلك المعركة بعد الهزيمة فيها.

ان تعاليم المدنية الغربية تنقل الينا تاريخ أبطال الغرب من رجال ونساء. وقد اصبحت أدمغة الشباب سجلا لأسماء النابغين والنابغات من الغرب ومحيت من الذاكرة أسماء رجال الشرق ونسائه على السواء. لقد غدا لفظ « جان دارك » ومثيلاتها الشغل الشاغل لكل من يريد أن يتحدث عن البطولة أو يتناول صحائف تاريخ المجد. وقد سمعت أيها القارىء كيف وصل السمو الخلقي والديني بالمرأة المسلمة الى الحد الذي سجلت به اسمها على جبين الدهر، وساهمت في أعظم الانتصارات الاسلامية الباهرة. ولن يستطيع كتاب الغرب ولا أذنابهم في الشرق أن يأتوا بأسماء ولا بحوادث ترفع مقام المرأة في العالم مثل تلك الحوادث الجليلة

والأسماء النبيلة ﴿ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾.

لا يخفى ما قام به الخوارج في أواخر عصر الخلفاء الراشدين وبعدهم من الأعمال الارهابية العنيفة التي عرضت أعناقهم للسيوف وأوردتهم موارد الحتوف ولكن شجاعتهم واستبسالهم كان لهما أثر بالغ في بقاء جماعتهم طوال الأجيال المتعاقبة، ولا تزال لهم بقية باقية حتى الآن في بعض الأقطار الاسلامية.

نذكر هذا بمناسبة ما كان يبدو من بعض نسائهم فضلا عن رجالهم من ضروب المقاومة والشدة في المخاصمة. ونحن في صدد الكلام عن مقام المرأة في الاسلام، لا يسعنا أن نهمل المواقف المشرفة للمسلمة كيفما كانت النحلة والمذهب الذي تنتمي اليه، فهي مسلمة على كل حال.

في سنة ٧٧ هجرية كان الحجاج والياً على العراق من قبل الخليفة عبد الملك وفي تلك الأثناء قام شبيب الخارجي في الموصل بثورة ضد الخلافة واشتركت في هذه الحرب زوجه غزالة وأمه جهيزة، فأرسل الحجاج حملة قوية للقضاء على هذه الفتنة، وأرسل خمسة قواد كان نصيبهم جميعاً القتل دون أن يظفروا بطائل، وأخيراً أرسل عبد الملك جيشاً عظيماً من جنود الشام قاده الحجاج بنفسه. وفر شبيب من الموصل الى الكوفة، ولكن الحجاج كان قد سبقه اليها ووصل الى قصر الامارة وجاءت غزالة الآنفة الذكر لتوفي نذراً سابقاً كان عليها وهو أن تصلي ركعتين بمسجد الكوفة، فأقبلت في صحبة زوجها يحيط بهم سبعون من أنصارهم ووقف شبيب خارج

المسجد مجرداً سيفه، وأقامت صلاتها فأدت ركعتين قرأت في أولاهما بعد الفاتحة سورة البقرة، كما قرأت آل عمران في الثانية وهي مثال للاطمئنان يملأ قلبها السكينة والخشوع في الركوع والسجود، وفي القيام والقعود. تفعل ذلك على مرأى ومسمع من جنود الشام وهم يملأون الكوفة ومسجدها وينظرون الى تلك المصلية نظرة يملؤها العجب والاعجاب معاً بتلك النفس التي لا تبالي بأن تجاهر بمعتقدها بين الحراب المسنونة والسيوف المصلتة بأيدي عشرات الألوف من جيش الشام والعراق.

خرج الحجاج لتلك الحرب مجهزاً بأقوى عتاد من البصرة والكوفة والشام وقام خلف الصفوف بنفسه يحرض تلك الجموع الزاخرة واعداً ومتوعداً. وكان جيش الخوارج هزيلا ضئيلا الا انه ثبت أمام الكثرة الساحقة من رجال الحجاج ولكنه مهما بذل وحاول فقد كانت الهزيمة أمراً لا مناص منه. وكانت غزالة وجهيزة تشتركان في الحرب وتساهمان فيها بشجاعة منقطعة النظير، الى أن أرسل الحجاج بعض رجاله سراً خلف الصفوف لقتل غزالة، أما شبيب فقد فر الى الأهواز ـ تاركاً خلفه عدداً كثيراً من القتلى.

وهنا يقول ابن خلكان: ان جهيزة أيضاً قضت نحبها في هذه الحرب، بيد أن الطبري وابن الاثير يذكران أن شبيباً قد سقط به فرسه في دجلة عندما كان يجتاز جسر النهر، وكان اذ ذاك في دروعه وأسلحته فلم يملك سبيلا الى النجاة. ولما قيل لأمه: ان شبيباً قد

مات قالت: أما بيد الاعداء فلا. ثم قيل لها: انه قد غرق قالت: ذلك ممكن.

ويروى كذلك أن غزالة قد بارزت الحجاج فلم يثبت أمامها بل رجع القهقرى ولاذ بالفرار. هذا الحجاج الذي كانت ترتعد فرائس العراق وتهتز جوانب الجزيرة تحت أقدامه رهبة وخشية، استطاعت تلك المرأة الجريئة أن تزلـزل طغيان هذا الجبـار وتـرده خائفـاً مذعوراً. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تصفر من صفير الصافر

هلا برزت الى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

وفي سنة ١٣٩ هـ في عهد خلافة المنصور اعتدى قيصر الروم على مدينة « ملطية » فخربهـا. فوجـه المنصـور لتـأديب ذلك القيصر والانتقام من عدوانه جيشاً عظيماً على رأسه صالح بن علي وعباس ابن محمد. واستطاع ذلك الجيش الظافر أن يعيد الى المدينة عمرانها وازدهارها وواصل المسلمون زحفهم حتى استولوا على مقاطعات أخرى واقتربوا من القسطنطينية.

ومما هو جدير بالتخليد أن أم عيسى بنت علي ولبابه بنت علي أختي صالح خالتي المنصور، ومعهن فضليات النساء شهدن هذه المواقع وسعدن بالاشتـراك في تحقيق تلك الانتصـارات الباهـرة. وكان شهودهن لهذا الغزو وفاء منهن فقد سبق لهن في خلافة بني أمية أن عقدن لله نذراً أن يجاهـدن في سبيل الله إذا زال الحـكم الاموي من الخلافة الاسلامية.

وفي سنة ١٧٨ هـ حدثت في خلافة الرشيد فتنة من الخوارج وكان على رأس القائمين بها وليد بن طريف، فاستولى هو وجماعته على الخابور ونصيبين. ثم وجه الخليفة لاخماد تلك الفتنة جيشاً بقيادة يزيد الشيباني وكان من المشهود لهم بالبراعة الحربية والاقدام الفائق فحارب الخوارج وهزمهم بعد بضعة معارك وقتل رئيسهم الوليد. ولما سمعت فارعة أخته بمصرع أخيها ثارت ثائرتها وخرجت من خدرها وجردت من انوثتها بطلا شجاعاً يتقدم الى الميدان ولا يبالي بالموت. وهكذا لبست الدروع وتقلدت السيف وتقدمت للنضال، فبرز لها يزيد نفسه ولما رآها طعن بالرمح فرسها ثم وجه اليها شيئاً من العتاب لاقدامها على موقف ينال من سمعة أهلها وكرامة قومها، فعادت من الميدان مخضبة بدموع الحسرة والالم لا يردها عن حومة الوغى جبن ولا خوف، ولولا ما كان يلحقها من سوء السمعة في تهورها وجرأتها على ما ليس من شأن النساء لما ردها عن الميدان سوى الاجل المحتوم. وقد تركت لنا من ذكريات ألمها هذه الأبيات :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف

عليه سلام الله وقفاً فانني ... أرى الموت وقاعاً بكل شريف

وقد بلغت هذه المرثية مقاماً عالياً من الشهرة والذيوع فقد نقلها أبو علي القالي في أماليه، بينما نرى ابن خلكان يعدها في مصاف

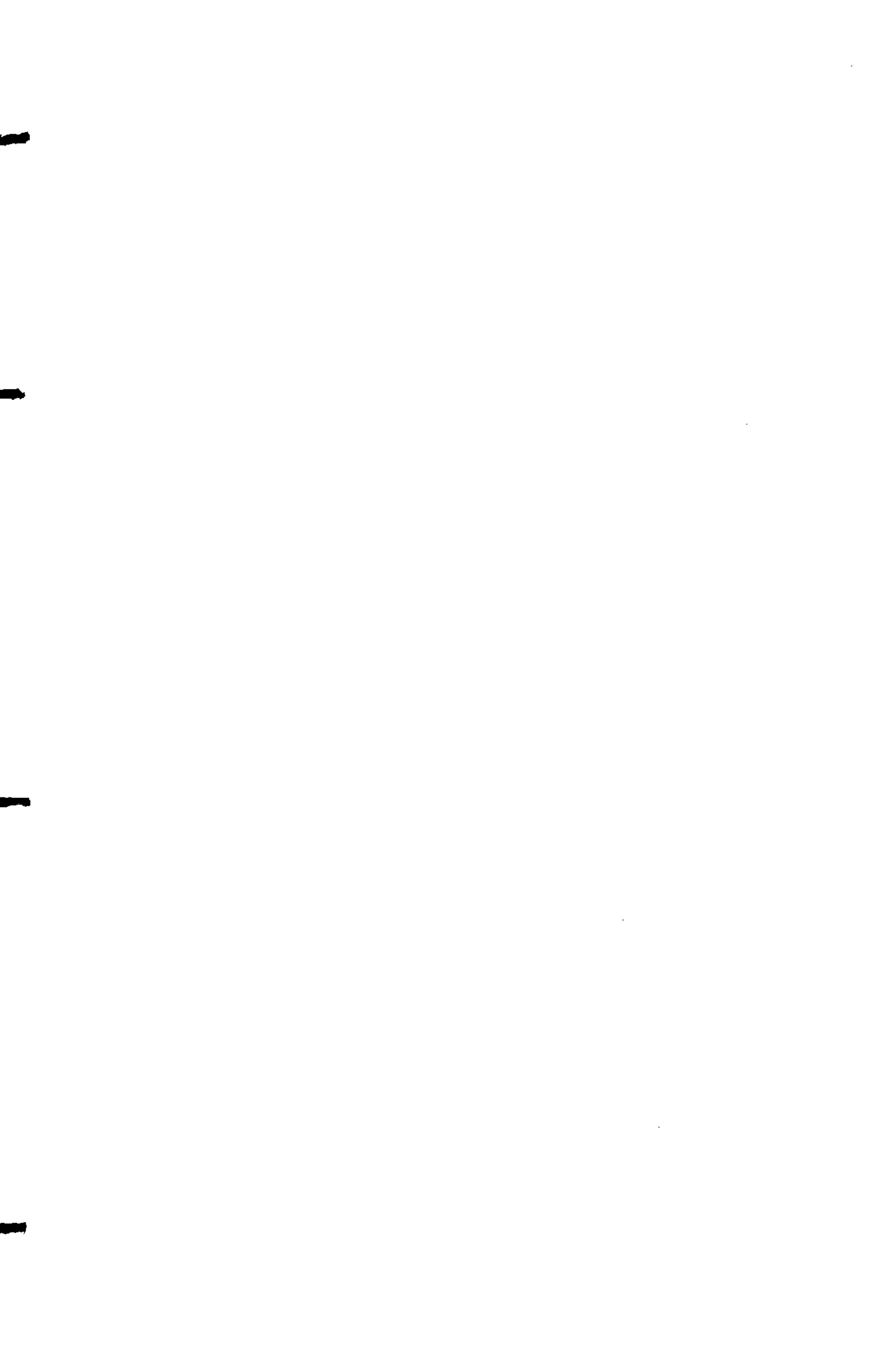
مراثي الخنساء، ويقدمها علماء البديع كمثال حسن في باب تجاهل العارف من قسم المحسنات المعنوية للكلام.

وقد ذكرت أخت الوليد باسم فارعة ما سبق، وقد عرفها ابن الاثير باسم ليلى، وابن خلدون يقص ا لواقعة دون أن يذكر أسمها، وربما عرفت في بعض المواضع باسم فاطمة، ولكن المهم على كل حال هو الاعمال، لا الأسماء والأقوال.

وفي القرون الوسطى عندما اشتعلت نار الحرب الصليبية على أشدها كان من بين أمراء الجيوش قائد يسمى « اسامة » وكان في صحبته والدته واخته، وقد ساهمت كلتاهما في الحرب متقلدة السلاح ناسية الحلي الجميلة بالدرع الرهيبة حتى سجلتا للمرأة المسلمة نصيبها من الانتصار، ومكانتها من ذروة الفخار.

وفي أزمنة هذه الحروب الصليبية كانت الامهات يرضعن أطفالهن أفاويق الشجاعة ولبان التضحية ويعلمنهم حب الاسلام قبل أن يشبوا عن الاطواق.

ولما أحرز الصليبيون بعض الانتصارات واستولوا على عكة أصبح الاختلاط بين الفريقين المتحاربين أمراً عادياً فحاول الصليبيون أن يقوموا بامتحان الذرية الناشئة واختبار الجيل القادم فأقاموا حرباً شكلية بين أطفال المسلمين وأبنائهم، وفي تلك الحرب كانب دروس الامومة قد آنت أكلها وانضجت ثمارها في ابناء المسلمين فغلبوا أعداءهم الصغار وأخذوهم في ذل الاسار، وكتبوا للاسلام في هذا الدور من اللعب مثالا جميلا من الفوز والانتصار.

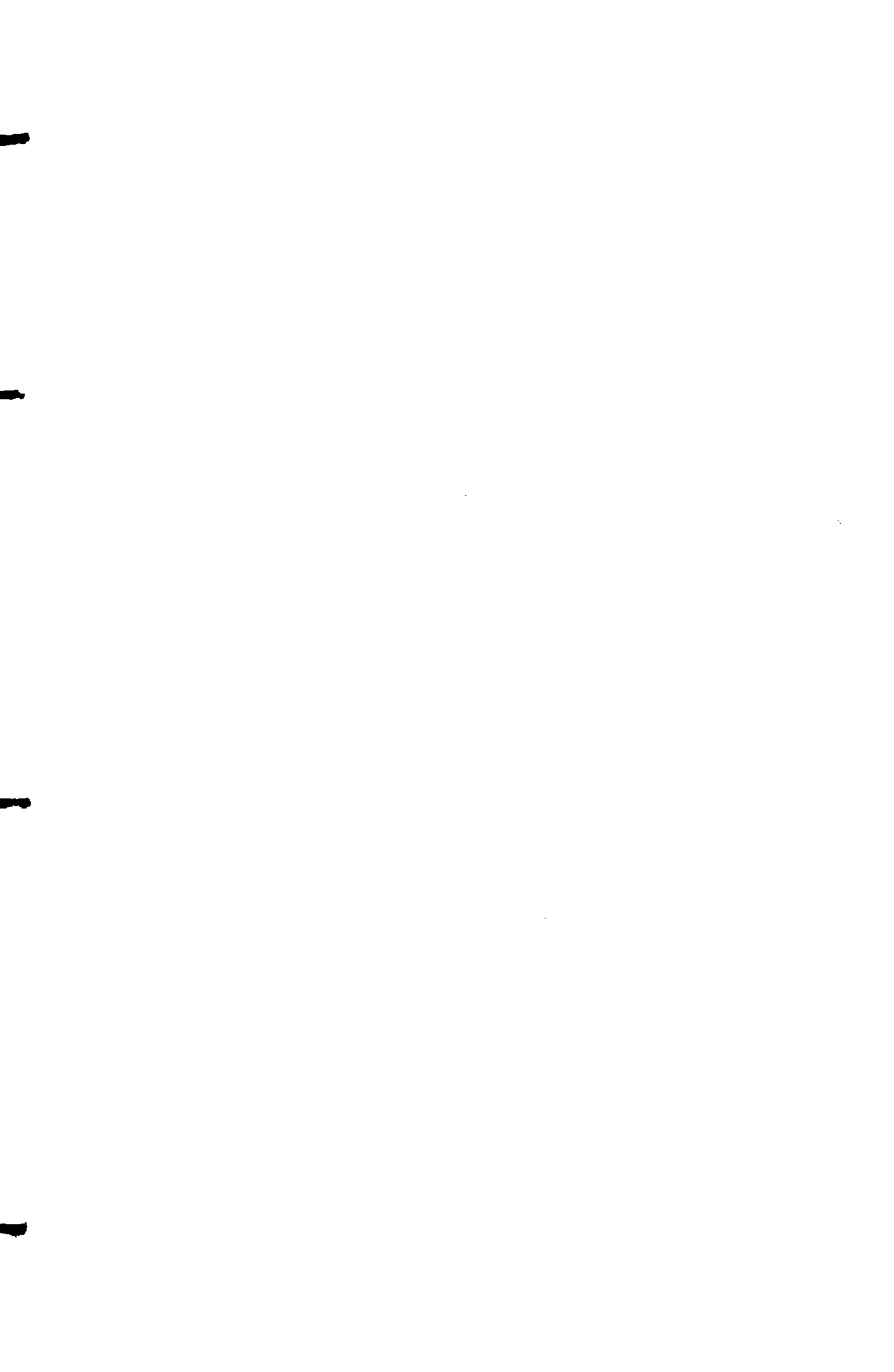




للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

جمادى الثانية ـ ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، الذي جعل الشر والخير فتنة، يبتلى بهما الناس، حتى يتميز أهل الخير وأهل الشر، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الكريم محمد، الذي بين الخير وحث عليه ووضع له موازينه، ووضّح الشر ونفّر منه وعين له مقاييسه، ورضى الله ورعى وأعان، من استقام على سبيل الخير ورفض الشر، وأخلص نفسه لله.

وبعد، فقد يعجب قارىء هذه الرسالة من عنوانها وقد يفكر في الجواب، الا أن عليه أن لا يتردد في أن يكون جوابه: لا، بشكل جازم حاسم، لا يدع مجالا لشك ولا يصدّنّه عن ذلك أنه سيقرأ في هذه الرسالة كثيراً من وجوه الخير في حادثة الإفك. التي حاول بها المنافقون أن يسيئوا الى عائشة أم المؤمنين، ويؤذوا رسول الله ﷺ ويشوّهوا الاسلام، فالخلاف ليس في هذه الفوائد، التي لم يستعرض في هذه الرسالة إلاّ جانب منها، وانما فيما يظنه بعض الناس من أن حادثة الإفك شر! وهو مرفوض قولاً واحداً، فليس في الشر خير، وإنك لا تجني من الشوك العنب، وليس بعد قول الله عز وجل: ﴿لا تحسَبوه شراً لكم، بلْ هوَ خيرٌ لكم﴾ من قول.

ولكن إثارة مثل هذه البحوث في مثل عصرنا هذا فيها كثير من

الخير، اذ تدلنا على جانب غير قليل من عُوارنـا، وتساعدنـا على تشخيص أدوائنا. تدلنا مثلاً على:

١ ـ : كثير من السطحية عند أكثرنا في النظر إلى الحياة والى الامور، فتراه يقف عند الطبقة القشرية، لا يحاول أن يتعداها الى حقيقة الأمر، ولا يسعى لتفهمه ومناقشته وربطه بحقائق الحياة، لينتهي الى وضعه في موضعه.

٢ ـ : تسرع كبير في الحكم على أكثر الأمور، فترى الواحد منـا يبادر عقب النظرة الأولى الى الحـكم على الأمـر على ضوء الفـكرة البدائية التي خطرت له، ثم لا يبالي بعد ذلك بأن يصـم، بكل بساطة، كل من خالفه بأنه مخطىء وقد يتبرع له ببعض الصفات، من جهل وسخف وتسرع يتحفه بها.

٣ ـ : استعمال المقاييس الفاسدة في الحكم على ما يمر بنا، فقـد يفكر بعضنا، وقد يبحث ويناقش، ولـكن على قاعـدة فاسـدة، ومقاييس مختلة. وقليل منا من ينتبه الى أن نشأتنا في هذا المجتمع الفاسد، وحياتنا في هذا الجوالموبوءلم يؤثـر على هيئتنـا وسلوكنـا فقط، وانما تعدى هذا الى تفكيرنا ومقاييسنا، وما لم ننتبه الى هذا ونعترف به ونعالجه فنحن عما نريد بعيدون.

٤ ـ : الطريقة ا لمنحرفة المشوهة، التي ندرس بها ونتعلم، والتي نصرف فيها كثيراً من الجهد والوقت، كما نعلم، دون أن نصيب إلا أخسَّ الثمرات.

لقد كان الرجل من أسلافنا، يدرس بضع سنوات ليخرج على

الدنيا، عملاقاً في عقله، بحراً في علمه، عظيماً في نفسه، يجابه الدنيا، ويزلزل الفساد ويصلح العصور، في حين أن كثيراً من الناس في هذه الايام، يدرس الواحد منهم أضعاف الوقت الذي درس فيه ذاك، ويتعب اكثر مما تعب، ثم لا تكون النتيجة الا ما نرى ونعلم...

وهذا يقف بنا أمام حقيقة هامة، علينا أن نواجهها: يجب لنغير هذا الوضع الذي لا نرضى عنه، أن نغير كثيراً من تصوراتنا ومقاييسنا وطرائقنا في الحياة، وأن نخص بمزيد من العناية: اسلوب الدراسة.

ولست أريد هنا أن أتناول طريقة الدراسة، وكثرة الخطل والخطأ فيها، والاسلوب الناجع في اصلاحها، وإن كنت أود لو خصت لجنة المسجد هذا البحث الهام بإحدى رسائلها، تكلف به من يصلح لبحثه، علّ الله يوفقه للاستجابة..

ولكني أحب في هذه الرسالة أن أقدم نموذجاً، في هذه الحادثة التي شعر كثير من الناس، بأنها من الصفحات السوداء في تاريخ الاسلام، ويظنون أنها ألحقت بلاء وسوءاً بالمسلمين، فترى مدرسي السيرة يسرعون في ايرادها والموجهين يغفلونها ويعرضون عنها، وما ذاك إلا لأننا لم ننظر اليها النظرة الصحيحة، ولم ندرسها بالشكل المستقيم اللازم، ولم نتمعن فيها ونتأمل، على أساس سليم، كما هو الواجب في الدراسة الصحيحة المنتجة.

وعلى هذا، فسنورد أولا هذه الحادثة كما جاءت، ثم نستعرض بعض النقاط التي وفق الله تعالى لتبيِّنها آملين أن يساعد هذا على زيادة العلم، وتوسيع المعرفة، ويعين على تسديد الفكر، وتصحيح اسلوب الدراسة واصلاح الأوضاع.

والله نسأل السداد والرشاد.

* * *

خبر الإفك

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

كان رسول الله ﷺ، اذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، « أي وقعت عليها القرعة » فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان النساء إذ ذاك انما يأكلن العُلق « أي الطعام القليل » لم يهجهن اللحم فيثقلن، وكنت اذا رُحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحِّلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به. فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجه قافلا، حتى اذا كان قريباً من المدينة، نزل منزلا فبات فيه بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي، فيه جزع « أي خرز » ظَفار « مدينة باليمن » فلما فرغت، انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت الى الرحل، ذهبت التمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت الى مكاني الذي ذهبت اليه، فالتمسته حتى وجدته وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رَحلته « أي من وضع الرحل

عليه » فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت الى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس، فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أن لو افتقدت لرجع إلي، فوالله اني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف علي وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وانا اليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ ! وأنا متلففة في ثيابي، قال: ما خلفك يرحمك الله؟ فما كلمته. ثم قرب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا فارتعج « أي ماج واضطرب »العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت « أي مرضت » شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث الى رسول الله ﷺ والى أبويَّ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت اذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان اذا دخل عليّ وعندي أمي تمرضني قال:

كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك، حتى وجدت « أي حزنت » في نفسي فقلت: يا رسول الله ـ حين رأيت ما رأيت من جفائه لي ـ لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك. « أي لا مانع من ذلك ».

قالت: فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم. نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، فوالله أنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها « أي ثوبها » فقالت: تعس مسطح! قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً! قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل إفك. قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان.

قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ قالت: أي بنّيه، خفضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم - ولا أعلم بذلك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي.

قالت: وكان كبر ذلك «أي معظمه» عند عبد الله بن أبي سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني «أي تساويني» في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل الا خيراً، وأما حمنة بنت جحش، فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادُّني لأختها فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، ان يكونوا من الاوس نكفيكهم، وأن يكونوا من اخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم! فقام سعد بن عبادة، وكان من قبل ذلك يرى رجلا صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله لا نضرب أعناقهم اما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: وتساور «وفي رواية تثاور، يعني وثب بعضهم إلى

بعض » الناس، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الاوس والخزرج شر، ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليّ فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى علي خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل وأما علي فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء كثير، وانك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها تصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، فقام اليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل علي رسول الله ﷺ، وعندي أبواي وعندي امرأة من الانصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس فحمدالله واثنى عليه، ثم قال: يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً « أي أتيت ذنباً » مما يقول الناس فتوبي الى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، فوالله ما هو الا ان قال لي ذلك فقلص دمعي « أي أمسك وكف » حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما، وايم الله لانا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيّ قرآناً يقرأ به في المساجد ويصلى به ولكني قد كنت ارجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من

براءتي، أو يخبر خبراً فأما قرآن ينزل فيّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.
فلما لم أر أبويّ يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ ؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه، ووالله ما أعلم اهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الايام.

فلما ان استعجما عليّ « أي سكتا فلم ينطقا » استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً! والله اني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني. قالت ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ - يوسف ١٨ - فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشاه، فسجّى بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة، وان الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما، فرقاً « أي خوفاً وخشية » من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس. قالت: ثم سرى عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان « أي عرق كالدر » في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك، قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا

عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن افصح بالفاحشة، فضربوا حدهم.

وعن بعض رجال بني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته ام ايوب: يا أبا أيوب، أتسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: والله ما كنت لافعله. قال: فعائشة والله خير منك.

قالت: فلما نزل القرآن بذكر من قال من اهل الفاحشة ما قال من إهل الافك فقال تعالى: ﴿إنّ الذينَ جاؤوا بالإفك عُصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بَل هو خير لكم لكل امرى منهم ما اكتسب منَ الإثم والذي تولى كِبره منهم له عذاب عظيمٌ﴾ وذلك عبدالله بن أبي وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال تعالى: ﴿لولاَ إذ سمِعتُمُوهُ ظَن المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنْفِسِهِمْ خَيراً﴾ أي فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته، ثم قال: ﴿إذْ تَلَقَّوْنَهُ بِألْسِنَتِكُمْ وَتقُولُونَ بِأفْواهِكُمْ مَا ليسَ لَكْم بهِ علْمٌ وَتحسبُونهُ هيناً وَهْوَ عنْدَ الله عظيمٌ﴾ فلما نزل هذا في عائشة وفيمن قال لها ما قال، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح، لقرابته وحاجته : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة وادخل علينا. قال : فانزل الله في ذلك : ﴿وَلا يأتل أُوُلو الفضْل مِنكم وَالسَّعةِ أن يُؤتوا أولِي القُربى والمساكِينَ وَالمهاجِرينَ في سبيل الله وَليعْفوا وليصفحوا ألاَ تحُبونَ أن يَغفَر الله لكم والله

غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ ـ النور ١١ ـ ٢٢ ـ فقال أبو بكر بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع الى مسطح نفقتـه التـي كان ينفـق عليه. وقال : والله لا أنزعها منه أبداً.

٣ ـ دروس من الحادثة :

١ ـ كان هذا الأمر تمييزاً وفضحاً للمنافقين ومدّعي الايمان، الذين يوهنون المجتمع الاسلامي، ويكيدون للمسلمين، فلما كان هـذا الأمر، الذي عصم الله المؤمنين ـ إلاّ ما ندر ـ من الخـوض فيه، انـكشف بسببـه أمـر كثـير من المنافقـين، المندسّـين في المجتمـع الاسلامي، ووقى الله المسلمين بذلك شرّ وساوسهم ودسائسهم.

٢ ـ كما كان بين المسلمين أنفسهـم، بعض الغافلـين المعرّضـين للانزلاق، يستهينون بأمثال هذا الأمر، ولا يلقون له بالاً، فكانت الحادثة تنبيهاً وايقاظاً لهم، يرتدعون بها ـ لما سمعوا ما جاء فيها من عظيم الوعيد ـ من الوقوع بأمثالها.

(٣) وإذا كان هذا الأمر فضحاً للمنافقين، وتنبيهاً للغافلين من المسلمين، فقد كان تثبيتاً للمؤمنين، وبرهنة على إيمانهم ووعيهم بعدم انزلاقهم اليه وتقبّلهم له.

٤ ـ بالاضافة إلى أنّه اختبار وامتحان، به يكشف حقيقة النـاس وطويّة كل منهم، ككثير مما جاء في الكتاب الكريم : ﴿وَإذْ قُلْنَا لَكَ إنّ ربَّك أحاطَ بالنّاس وما جعَلْنا الرُّؤْيا التي أريْناكَ إلا فِتْنَةً لِلْنَاس، وَالشَّجَرَةَ الْمْلعُونَةَ في القُرْآنِ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إلاّ طُغْيَـاناً كَبيراً﴾ (الاسراء : ٦٠) ﴿وَمَا جَعَلْنَا

أصْحَابَ النَّارِ إلاّ مَلائِكه وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذينَ كَفَروا لِيَسْتَيْقِنَ الذِينَ أوتُوا الكِتَابَ. وَيَزْدَادَ الذِينَ آمَنُوا إيمَاناً، وَلاَ يَرْتَابَ الذِينَ أوتُوا الكِتَابَ وَالْمُؤمِنُونَ، وَلِيَقُولَ الـذِينَ في قُلُوبِهِـمْ مَرَضٌ وَالْكافِرونَ مَاذَا أرادَ الله بِهَذا مَثَلاً؟ كَذَلِكَ يُضِـلُّ الله مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ، وَمَا هِيَ إلاَّ ذِكْرى لِلْبَشرِ﴾ (المدثر: ٣١).

٥ ـ وهو استدراج للظالمين، هؤلاء المنافقـين، الـذين لم يتـركوا مناسبة لإيذاء رسول الله ﷺ ، او خِذلانـه، أو الـكيد للاسـلام والمسلمين، إلا اغتنموها، فكان في أمر الإفك مجـال يغتنمونـه، فيؤدي بهم الأمر الى الوقوع فيه، ومن ثمَّ الى استحقاق عقابه.

٦ ـ كما أنَّه تحذير للمؤمنين، وتنبيه للناس، للتثبت في كل أمـر، وحضّ على البعد عن التسرّع، ودفع للتبينّ كي يتبصرّ المؤمن في كل خطوة من طريقه، فلا يغمض عينيه ويتبع ما يقوله الناس أو يبديه له هواه.

٧ ـ ويبينّ أمر الإفك، أن المسلم، مهما ارتفـع مقامـه، وعلـت منزلتـه، وسما به تقاه، معرّض لاي لون من البلاء. فعليه أن لا يستكين إلى درجته، ويطمئنّ إلى مكانته، بل عليه ان يتوقع دوماً كل أمر من أيّ نوع، وذلك أنه أذا وطّن نفسه على السرّاء دوماً، أو على الاقل على عدم البلاء، أو وطّن نفسه على بلاء في جسمه وماله فقط؛ فإنه حين تنزل به نازلة، أو تحل بساحته مصيبة، قد يتزعزع

إيمانه! وينحرف، والعياذ بالله، عن الطريق ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ . . ﴾ . (الحج : ١١).

ولهذا لم يكن ابتلاء الله عزّ وجلّ رسولَه، بما تُحدِّث به عن سمعة زوجه، غضباً من الله عليه، وإنما كان تعليماً لكل مؤمن.

٨ ـ ويصحح لنا أمر إفك المقاييس التي نستعملها في فهم الحياة، والتي قد يكون من بينها، ما يحسبه بعض الناس من أن النعم دليل رضا الله عن العبد، وأن البلاء يكون دوماً عقاباً أو دليلاً على السخط.

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن ... إذن لم يكن فيها معاشر لظالم
ليد جاع فيها الانبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

٩ ـ ويبصرنا ايضاً بالحياة، فيذكرنا بأن الغاية منها ليس الاستمتاع والسعي للأهداف الجزئية أو طلب الربح المادي أو العمل لتجنب الضرر المادي، وبعبارة أخرى ليست الحياة غاية بذاتها، وان شئت فقل: ليست غاية الحياة ضمن الحياة وانما بعدها. فهذه الحياة انما جعلت للاختبار ﴿ أحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنونَ؟ ﴾ ـ العنكبوت ٢ ـ وهذا الاختبار قد تكون أداته ما تميل اليه النفس، كالعافية والغنى والجاء، أو ما تكرهه وتنفر منه، كالابتلاء في الجسم والسمعة والمال والولد. . ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ والخَيرِ فِتْنَةً ﴾ ـ الأنبياء ٣٥ ـ .

١٠ ـ كما يذكرنا بأن البلاء قد يكون نعمة، ينعم الله بها على عباده

الذين يعلم منهم انهم يتحملون هذا البلاء، ويصمدون فيه، ويظلون واعين لمبدئهم، فاهمين لغايتهم راضين ـ في كل أمورهم ـ عن ربهم. ولذلك كان: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل).

ولما في الصبر على البلاء من خير كبير، وأجر عظيم، كان فرصة للخير كريمة، ومجالا لنيل الثواب والرضوان من الله واسعاً: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه).

وعلى هذا فلم يكن ابتلاء الله عز وجل عائشة رضي الله عنها بحديث الإفك مصيبة من الله عز وجل تدل على نقمته عليها أو على الأقل على عدم إكرامه لها، وإنما كان من أعظم المن والنعمة والفضل.

١١ ـ وفي أمر الإفك عظة بليغة، إذ فيها مواساة كبيرة لكل من وقع في شدّة أو اختبار، وخاصة اذا كانت المحنة تتعلق بعرضه وسمعته، فله أسوة في ذلك برسول الله ﷺ، ولن يكون أحد أكرم على الله من رسوله، فاذا امتحن الله رسوله بذلك ليزيد في أجره ومنزلته ودرجاته، فله في التأسي به، والتذكر له، ما يخفف عنه مصابه، ويثبّت على الاستقامة على الطريق والرضا عن الله أقدامه.

١٢ ـ وأمر الإفك يبين لنا ـ في بعض جوانبه ـ صفاء المؤمن، وصحة نظريته، وسداد تفكيره، فلا يقبل أن تعمّي الأباطيل عليه الأمور، أو تعكر عليه نفسه. فها هو أبو أيوب الأنصاري تقول له زوجه أم أيوب رضي الله عنهما: يا أبا أيوب، أتسمع ما يقول الناس في

عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت والله ما كنت لأفعله. فقال: فعائشة والله خير منك.

١٣ ـ كما أن هذا الأمر يُنَبّه المسلمين إلى أمر خطير هو أنهم يجب ألا ينتظروا المهاجمة من الميدان الخارجي فقط، وألا يتوقعوها من أعدائهم فحسب، فيغفلوا عن الميدان الداخلي. وقديماً تقول العرب: يؤتى الحِذر من مأمنه فاللذين جاؤوا بالإفك، ليسوا بعيدين عن المدينة، وليسوا كلهم بعيدون عن الاسلام، بل قد تورّط فيه بعض الكبار، تاب الله عليهم وغفر لهم.

١٤ ـ ويذكرنا حديث الإفك، بأن المسلم معرَّض دوماً لهجوم عدوه ـ الشيطان ـ عليه في كل لحظة، وأنه يستعمل في وسوسته وتضليله، كل أداة يصادفها، وكل وسيلة يستطيعها، فهاجم عدد من المسلمين ـ وان كان قليلا استطاع ا لشيطان أن يغريهم ـ لفترة من الوقت بالانحراف فانحرفوا، وكادوا يوغلون، لولا أن منّ الله عليهم فثابوا وعادوا: ﴿ إنَّ الذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذكَّروا فإذا هُم مُبْصِرونَ ﴾ ـ الاعراف ٢٠٠ ـ

١٥ ـ وحديث الافك بعد هذا بلسم للمذنبين، ودعوة رفيقه للخاطئين وتأييد وشرح للمبدأ العظيم ﴿ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ ﴾ الأعراف ١٥٥ ـ وتطبيق لأكرم دعوة: ﴿ يا عبادِيَ الذينَ أسْرَفوا على أنْفسِهِم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله، إن الله يَغْفرُ الذُنوب جَميعاً ﴾ ـ الزمر ٥٣ ـ فهؤلاء النفر من المسلمين، الذين وقعوا في

هذا الأمر العظيم، أساؤوا الى زوج رسول الله والى رسول الله ﷺ ، وقد وسعتهم رحمة الله لما تابوا فتاب الله عليهم.

١٦ ـ وهو تعليم للمؤمنين أن يحكموا في موقفهم من إخوانهم المؤمنين؛ ما يعرفون من إيمانهم واستقامتهم وتقويهم سابقاً، لا ما يسمعونه عنهم من الإشاعات والأقاويل ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيراً ﴾ـ النور ـ فإن ما عرفوه من الخير عن إخوانهم حقيقة لمسوها بأنفسهم. أما الإشاعات والأقاويل فتبقى محتملة للخطأ والكذب والبطلان، ولهذا جاء الوعيد الشديد عليها في الآيات والأحاديث : « . . . وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الافاق. .» رياض الصالحين. باب تحريم الكذب. الحديث ١٥٤٣ عن سمرة ـ.

١٧ ـ كما أن الإفك يشير لنا أيضاً الى ما يخطىء به كثير من الناس حينما يرون سوءاً قد انتشر فينزلقون اليه. ويغرقون فيه، ظانين ان بقاءهم وحدهم لا معنى له، وقد وقع الناس فيه، ويحسبون أن انتشاره في الناس، كاف لتغيير حكمه، ورفع العقاب عن مجترمه، فالآيات التي نزلت بشأن الافك، تنص بوضوح على أن ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ ـ النور ١١.

١٨ ـ وأمر على جانب من الاهمية كبير، له شقان احدهما زهد كثير من الناس بأن يكونوا في المقدمة حينما يدعون الى خير قد أباه الناس

وساروا على خلافه، فتراهم يزهدون في الاجر العظيم أجر القائد في الخير الذي يقتدى به الناس ويتشجعون (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة). وشقه الاخر أنهم لا يأبهون كثيراً ولا يبالون بأن يقوموا بأمور من الشر ويبتدعوا من المخالفة، وينحرفوا في الضلالات بما يتبعهم فيه غيرهم مقلدين لهم متشجعين بهم. فهم يحسبون أن إثمهم - إن فكروا في الإثم أي فرد آخر ممن هوى بهم وانحرف بسببهم، غافلين عن أن (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة) ولكن الاية من حديث الافك واضحة صريحة: ﴿ والذي تولى كِبره منهم له عذاب عظيم ﴾.

١٩ - ثم إنه يدفعنا إلى توسيع أفقنا؛ وتصحيح نظراتنا للامور فلا ننظر اليها من جانب واحد، كما يفعل معظم الناس حينما تقع بهم نازلة، أو تصيبهم مصيبة فيتذمرون ويشكون ويتسخطون، إذ لا يرون في الأمر إلا الوجه القاتم..

ولكن القرآن يعلمنا أن نتبين الأمور على حقيقتها، وننظر إليها من جميع أطرافها فهذا الامر الخطير، أمر الافك الذي يحسبه معظم الناس لأول وهلة أمراً بالغ السوء، ومصيبة شديدة النكاية، هو في الحقيقة أمر فيه من الخير للمسلمين، وتعلموا منه دروساً وعظات ووجدوا فيه من الخيرات - التي أشير هنا الى جزء منها - ما جعلهم يعون قول الله تعالى: ﴿ لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم ﴾ - النور ١١ - .

٢٠ ـ وهو دعوة صريحه، لما يغفل عنه كثير من المسلمين الآن أيضاً، دعوة من الله تعالى أن لا نستصغر ما نحسبه صغيراً ولا نستهين بما نظنه هيناً، وخاصة من ذنوبنا وأخطائنا (فالله عز وجل يقرعنا وينهانا عن الوقوع في ذلك ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾، النور ١٥ ولذا بين رسول الله ﷺ (أن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ولا يلقى لها بالا يهوي بها في جهنم)، وجاء ما معناه (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في ارضكم هذه ولكنه رضى بما تحقرون من اعمالكم).

وابن مسعود رضي الله عنه يجسم لنا هذا الأمر ويمثله ويعطينا بنفس الوقت ميزاناً يزين الرجل به ايمانه إذ يقول: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في اصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب طار على أنفه، فقال به هكذا وهكذا) ـ خرجه البخاري ـ والشاعر يقول:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

٢١ ـ المجتمع المثالي، ليس هو الذي لا توجد فيه الإشاعات الباطلة التي تهدف الى توهين المجتمع وضعضعته وتهديمه، وانما هو المجتمع الذي لا تنمو فيه هذه الإشاعات فتبقى مقتصرة على أصحابها، وبذلك تنتهي الى الموت.

وكلما انحط المجتمع كلما زاد عدد الافراد فيه الذين يتبرعون لسذاجتهم بحمل الاشاعات وترويجها بالالسنة والصحف، ولو اعتذروا بأن (العهدة على الراوي). لذلك رأينا أبا أيوب يجيب زوجته هذا الجواب الحازم الجازم المقنع. ورأينا أسيد بن حضير لا يكتفي بان يقول لرسول الله ﷺ أنه وجميع من يعرف لم يشترك بهذا الأمر ولم يروجه، وإنما أبدى استعداده للضرب على أيدي المروجين مهما كانوا.

٢٢ ـ وهذه الحادثة دليل آخر على سمو مجتمع المدينة وطهره في عهد ذلك الجيل المثالي. فقد وقف أفراد هذا المجتمع أمام هذه الاشاعات تلك الوقفة المثالية التي كان من جرائها أن الاشاعات ـ بالرغم من مضي شهر قبل نزول القرآن بتبيين حقيقة الأمر ـ قد بقيت مقتصرة على أفراد لا يزيد عددهم على أصابع اليد.

٢٣ ـ وفيها عظة عظيمة، وحض ـ لكل امرأة ـ كبير أن تنتبه كل الانتباه، فلا تتعرض لشبهة، ولا تقف موقف تهمة ولا تسلك سبيلا أو تعمل عملا يؤدي اليه. فان المجتمع الذي هو أفضل من مجتمعها بكثير، قد افترى على من تفوقها بكثير، فاذا فهمت المرأة هذا، وفقهت أن جميع حالها قد بنى على الستر، نالها آنئذ خير كبير.

٢٤ ـ ونتعلم أيضاً أن لا ننفرد بأمورنا، بل نستشير في موضع الاستشارة، ونعلن في موضع الاعلان، ونعلم حين لا يدعو مهم

الى الكتمان، فان السيدة عائشة لو أعلمت من حولها أنها ستبحث عن عقدها، لما احتملوا الهودج وساروا بدونها.

٢٥ ـ يلاحظ في حادثة الافك أن القرآن لم ينزل مباشرة ببيان الأمر وإنما كان ذلك بعد الحادثة بما يزيد عن شهر. وكأن ذلك ليحث المسلمين في ما ينزل بهم، على البحث عن حقيقة الأمر بأنفسهم، سالكين السبيل السديد القويم في البحث، وبذلك يتمرسون بالطريقة الصحيحة، التي يحسن استعمالها لاتخاذ الموقف الصحيح، فان أمور الحياة أوسع وأكثر من أن تحصر، فاذا لم يصبح لدى الناس التفكير السديد والتصرف الحميد، زاد خطؤهم، وكثر زللهم، وأدى ذلك إلى انحراف المجتمع وانهياره.

٢٦ ـ وهناك أمر هام، فإن هذه الحادثة كانت سبباً في نزول البيان الواضح بأنه لا يصح أبداً أن يطعن مسلم في مسلم، أو يلغ مؤمن في عرض مؤمن، أو يؤذيه.. فكيف نرى بعد ذلك من يقوم في أيامنا هذه من المسلمين بالطعن والقذف والايذاء لإخوانهم، مما يضعف الأمة، ويوهن الجبهة، ويضعضع الصف، والأمر قد جاء صريحاً واضحاً مؤكداً في آل عمران: ﴿ واعْتَصِموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ مبيناً موقف المؤمنين من بعضهم!

فإذا ظن أنه لا يجب عليه القيام بمحاولة الاصلاح في هذا الظرف الفاسد، فهو خطأ عظيم، وان ظن أنه يستطيع لوحده القيام بذلك دون جبهة وتعاون، فهو خطأ لا يقل عن السابق...

٢٧ ـ هؤلاء المنافقون، أعداء الإسلام. الذين اغتنموا ما حسبوه

فرصة فاختلقوا وافتروا . . ماذا كان مصيرهم؟ الفضيحة والجلد وخزى الأبد، ولعذاب الآخرة أشد.

فلماذا لا يرعوون منافقوا هذه الايام؟ يا من يكرهون الإسلام، اعتبروا بإخوانكم المنافقين، يا من يكيدون للاسلام، اذكروا نتيجة سلفكم في هذه العداوة. . ماذا تريدون؟ هدم ما يحفظه الله؟ ماذا تحاولون؟ ان تطفئوا نور الله! ماذا تنتظرون؟ أن تغلبوا الله؟ لقد خسرتم الآخرة، فهل ضمنتم الدنيا؟ لقد تخلى الله عنكم. إذا عرضتم عنه، فبمن تعوضتم؟

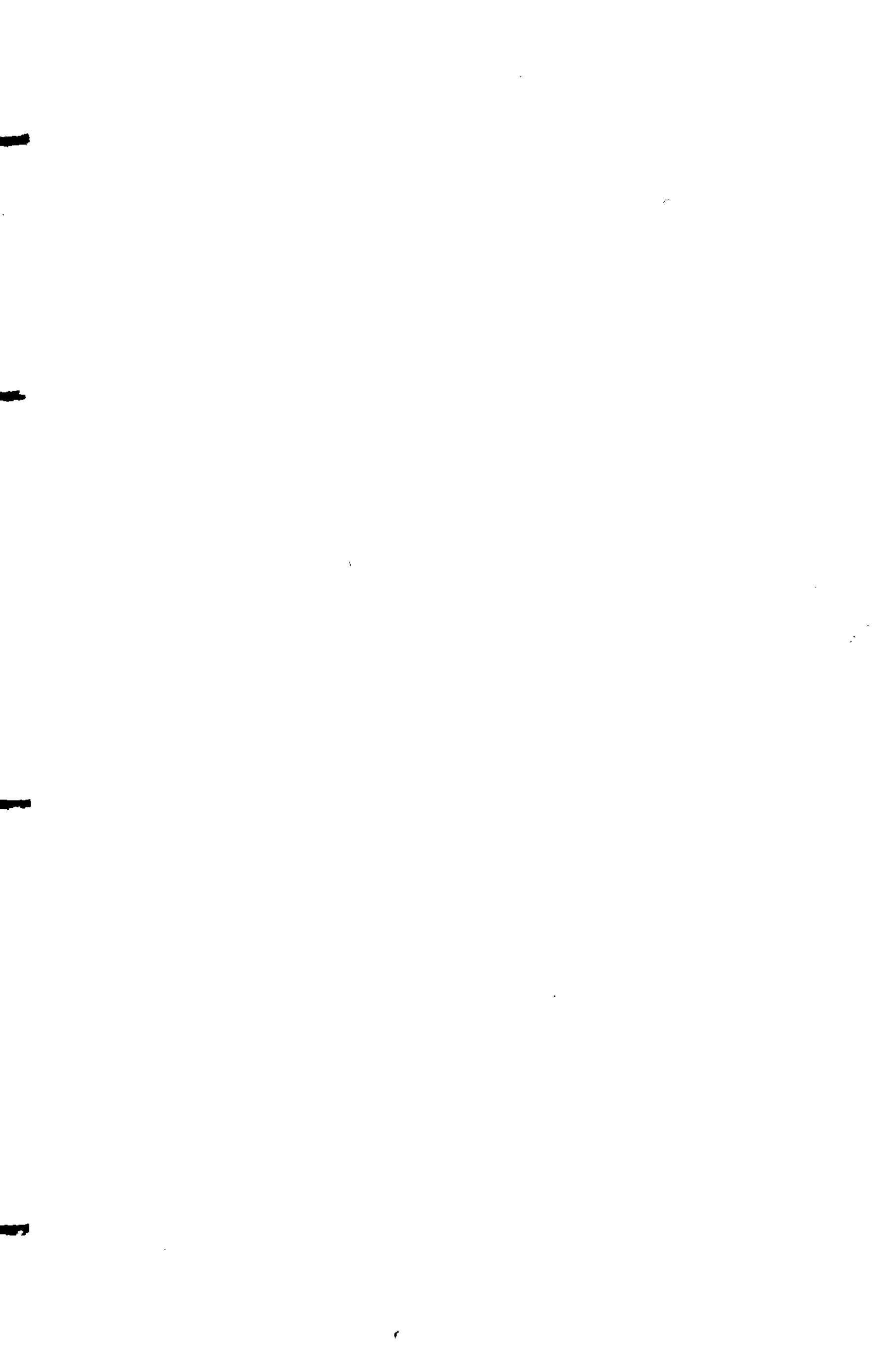
﴿ إنَّها لا تعْمى الابْصارُ ولكنْ تَعْمى القُلُوبُ التي في الصُدُورِ ﴾ - الحج : ٤٦ -.

الاخطاء والنقائص في الطّريق الحاضر للدّعوة الإسلاميّة

للأستاذ

أمين أحسن إصلاحيّ

١ شعبان ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾، والصلاة والسلام على خير مربّ عرفته البشرية محمد ﷺ وعلى دعاة الخير والحق أجمعين وبعد.

فإن المدقق في الحركة الاسلامية في العصور الحديثة يرى انها لم تبلغ الآمال المرجوة لها على كثرة ما بذل في سبيلها من جهد ومال، وعلى وفرة العاملين والدعاة. وحق أن نبحث في الأسباب التي اخرت هذه الحركة، وابطأت بها عن الغاية المقصودة، وهي بنظرنا كثيرة تنحصر في أمور خارجية عن نطاق الحركة وداخلية تنحصر في الحركة. وانما يهمنا بشكل خاص ما يتعلق بالحركة الاسلامية نفسها وتظهر في المفاهيم والطريقة والدعاة.

فمن الواضح أن كثيراً من المفاهيم الاسلامية لا تزال مجهولة لدى عدد كبير من الدعاة المسلمين، وهي لم تتميز بشكل خاص مستقل بل هي تتداخل مع مفاهيم غريبة عليها. حتى أصبحنا نسمع عن ديموقراطية الاسلام واشتراكيته، وان الاسلام لا يمانع في التأميم ولا في مصادرة الاموال لمصلحة المجموع.

كما أن هناك مشكلات كثيرة قد حدثت وهي تحتاج لحلول اسلامية واضحة ومستمدة من الاسلام بصحة ولا تزال حتى يومنا هذا مجمدة. ان اصابها البحث فإنما يكون فجاً وغير عميق، هذا بالاضافة الى التحريف الذي يصيب عديداً من المفاهيم الاسلامية

تحت ضغط المصلحة، والوطنية، ووحدة البلاد، فيتناسى بعض الدعاة قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون اخوة ﴾ وقوله تعالى ﴿ لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ فينعتون النصارى وهم كفرة بأنهم اخواننا وأحبتنا وأن ما بيننا وبينهم سلام تام، ويتناسون المكائد والمؤامرات التي تهدف الى القضاء على كلمة الاسلام.

والطريقة الاسلامية الواضحة المستمدة من طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة الى الله لا تزال مجهولة لدى كثير من المسلمين بينما يسيطر منطق الغاية تبرر الواسطة، كما أننا نلحظ نقصاً فاضحاً في معرفه كل ما يمس الاسلام من حركات ومجتمعات وتعدم التخطيط البعيد الكامل الذي يرسم للمسلمين طريقة سليمة توصل الى الهدف المنشود، وتعود بالاسلام الى عزته. ومع أن موضوع التخطيط للحركة الاسلامية من أهم الأمور التي يحس بها أصحاب الحركات الاسلامية فانهم لم يبرحوا تجاهلهم له حتى سبقتنا الحركات الأخرى مع أنها لا تملك ما نملك من امكانات ورجال.

والدعاة أيضاً مشكلة تحتاج الى حل جذري فأكثر من يتصدى للدعوة لا يعلم شروط الدعاة، والأهلية التي يجب أن يتمتع كل واحد منهم. وما كان أصحاب محمد ﷺ إلا أصحاب عقيدة اتضحت في نفوسهم فكانوا بها عالمين غير جاهلين، وشعروا بمسؤولياتهم نحو هذه العقيدة فوهبوها أجسامهم وأموالهم

وأوقاتهم ولم يجعلوها على هامش حياتهم ولا على فضلة أوقاتهم، واندفعوا في سبيلها بوعي واضح، وجرأة وصلابة وأخلصوا لها تمام الاخلاص ولم يبالوا بما أصابهم من أذى وضرر ولم يحسبوا للدنيا حساباً، وكان كل واحد منهم بمثابة القاعدة الفكرية التي يمكن أن تنطلق منها الدعوة فتعم البشرية كلها.

تلك بعض النقائص والحاجات التي تحسها الحركة الاسلامية وثمة نقائص أخرى شعر بها الأستاذ أمين أحسن اصلاحي فسطرها يراعه ويسر لجنة مسجد جامعة دمشق أن تقدمها للاخوة المؤمنين حتى يتداركوها ويعملوا على تسديد خطوات الحركة الاسلامية والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

من الطبيعي أن يبادر ذهن المرء بمجرد سماعه بكلمة « الدعوة الى الاسلام » الى الطرق والتدابير التي راجت في المسلمين، واقبلوا عليها للقيام بهذا العمل منذ زمن غير يسير، ولا عجب، فالناس اذا مرَّ عليهم زمن طويل وهم يمارسون عملاً من الأعمال حسب منهج خاص، فكأنهم ينطبعون به انطباعاً، ويصبح في نظرهم طريقاً فطرياً وحيداً للاضطلاع بذلك العمل وتحقيق مقتضياته، فكل من يريد القيام به منهم لا يكاد يمرُّ بخلده ان يختار اليه منهاجاً غير ذلك المنهاج المعهود، بل انه يخرج بعض الأحيان من بيته آخذاً على نفسه اجتنابه وموطداً عزمه على الانسلاخ منه. ولكنه لا يكاد يخطو خطوات قلائل حتى تقع أقدامه - على غير شعور منه - على نفس هذا الطريق. فيجدر بنا قبل كل شيء أن نستعرض على وجه الايجاز ما في الطريق الرائج في المسلمين « للدعوة الى الدين » من الاخطاء والنقائص.

ان هذا الطريق للدعوة توجد فيه - عندنا - الاخطاء من كلتا الحالتين: العلمية والعملية. أي أن الطريق الجاري للدعوة خاطىء من جهة فلسفته، وكذلك خاطىء من جهة منهاجه واسلوبه. ومن ثمة أن كل ما قد بذل في بلادنا للآن من الجهود باسم الدعوة الى الدين ما رجعت بالجدوى من حيث غرضها

وغايتها، بل قد ضرت ايما ضرر بدعوة الاسلام ورسالته الحقيقية.
فلنشر اولاً الى أخطاء هذا الطريق من الوجهة العلمية.

١ ـ الخطأ الأول:

ان أكبر خطأ جاء به دعاة الاسلام في بلادنا، هو أنهم ماأدركوا موقف الاسلام ولا موقف أنفسهم في هذه الدنيا. فما عرضوا الاسلام على الناس من الوجهة الحقيقية التي عرضه بها القرآن الكريم. فقد عرضه القرآن الكريم من حيث هو دين الله الوحيد منذ أول عهد الانسان بحياته في هذه الدنيا، وكلما وحيثما بعث الله تعالى نبياً من أنبيائه فانما بعثه بهذا الدين نفسه، وان أمم الأرض هي التي ما زالت تفسد هذا الدين وتدخل عليه المنكرات من عند نفسها، فما زال الله تعالى يتدارك هذه المفاسد والمنكرات بالاصلاح، حتى أنزله على أكمل وأصح صورة على خاتم أنبيائه ﷺ وضمن له اسلامه من أي فرج أو تحريف أو تغيير الى يوم القيامة، فهو محتفظ به اليوم كل الاحتفاظ في صورة القرآن، وما هو دين أمة خاصة دون سائر أمم الارض، بل هو دين جميع أبناء البشر قاطبة، جاءت به جميع أنبياء الله تعالى ورسله. وكل من آمن به فهو مسلم ومن لم يؤمن به فليس بمسلم. وهذا الدين لا يكذب نبياً من أنبياء الله تعالى، ولا يكفر بكتاب من كتبه، ولا يدعي لنفسه الفضل المطلق على غيره. وانما دعواه انه هو المجموع الموثوق به لتعاليم كل من جاء في هذه الدنيا الى امة من الامم من النبيين

والرسل؛ والمهيمن عليها أي المكمل لنقائصها، والساد لخللها، والمحك للتمييز بين غثها وسمينها.

ان هذه هي دعوة الاسلام كما قد عرضها القرآن. أما دعاتنا وكتابنا، فما عرضوا الاسلام على الدنيا، إلا من حيث هو دين أمة خاصة ومنافس لسائر الأديان ومحارب لتعاليمها. ومن ثم كلما أرادوا أن يبرهنوا على صدقه، لم يجدوا لذلك بدًّا من الاستهزاء بتعاليم الكتب السماوية الاخرى. بل قد تجاوزوا الحد وجاؤوا يستهزئون بعض الأحيان حتى بتعاليمها التي كانت التبعة في الايمان بها تقع عليهم أكثر من غيرهم باعتبارهم المسلمين المصدقين لجميع أنبياء الله تعالى ورسله:

قابلوا بين النبي محمد ﷺ وغيره من الأنبياء وبذلوا الجهد المستطاع في اثباتهم أحط شأناً وأدنى درجة منه ﷺ مع أن القرآن نهى بكل شدة وصراحة عن البحث في مثل هذا التفاضل المطلق بين الأنبياء والرسل، وأعلن أن الله تعالى فضل كل نبي من أنبيائه بناحية من النواحي ووجه من الوجوه. أما النواحي لفضل نبينا ﷺ فقد أوضحها بالتعيين. وكذلك أكد النبي ﷺ نفسه النهي عن الدعوى بفضله المطلق عن سائر الأنبياء؛ ولكن المسلمين عرضوا الاسلام وبني الاسلام بعصبية قوية شديدة عمياء. والذي يدعو الى الأسف أنه ما اقترف هذا الخطأ عامة الوعاظ والدعاة فحسب، بل اقترفه أيضاً كبار الكتاب الذين كانت مؤلفاتهم حجة ووسيلة وحيدة لفهم الاسلام عند المسلمين وغير المسلمين معاً. فاذا قرأت

لهؤلاء الكتاب الكبار، ملأوا صفحات كتبهم بفقرات مسمومة تطعن في الأنبياء الأقدمين وتعاليمهم، وتشعرك بأن المسلمين أيضاً قد أصيبوا بداء التفريق بين الرسل،كما كان قد أصيب به من قبل اليهود والنصارى. ولكن المسلمين تلقوا مثل هذه الكتب بغاية من القبول والاحترام، واستمعوا لخطب أمثال هؤلاء الوعاظ بغاية من الاستبشار والتحبيذ، لانها تشجع نخوتهم القومية وتذكي نارها في أذهانهم، أما الكتّاب والوعّاظ الذين ما كانت توجد مثل هذه « العذوبة » في كتبهم وخطبهم فما نالوا أي حظوة لدى الجمهور ولا لدى الخواص. نعم، لا ننكر ان الذين أطالوا ألسنتهم بشتم الاسلام والطعن في تعاليمه من غير المسلمين، لهم أيضاً يد في اخراج هذه الكتب المليئة بسم العصبية القومية، ولكن من اخطاء المسلمين أنفسهم انهم ردُّوا الشر بالشر، وعاونوا الشيطان على احداث الفتنة واشعال نارها، فكان من نتائج هذا الخطأ ان نشأت البغضاء والغيرة والاشمئزاز من الاسلام في قلوب غير المسلمين، فاعادوا ينظرون اليه من حيث قد جاءَ ليذكرهم بما نسوه وينقل اليهم ما ترك لهم أنبياؤهم ورسلهم من تعاليم الصدق والعدل والأمانة، بل نظروا اليه بالريب والاشمئزاز والنعر نظرهم الى منافس وناهب يريد أن يسلبهم دينهم ويفرض عليهم نفسه قهراً وإكراهاً.

٢ ـ الخطأ الثاني:

والخطأ الثاني الذي جاء به دعاة المسلمين ووعاظهم أنهم ما

عرضوا الإسلام من حيث هو نظام شامل للحياة البشرية يخرط مسائل الناس الفردية والاجتماعية كلها ومسائل ما بعد الطبيعة في سلك واحد، ويحلُّها وفقاً للعقل والفطرة بل بذلوا كل ما أوتوا من الكفاءة والقوة في مسائل حدثت أخيراً بالتصادم الديني مع غير المسلمين من الهنادك والنصارى كالبحث في حدوث الروح والمادة وقدمهما ومسألة تناسخ الأرواح ومسألة ألوهية المسيح والتثليث وما اليها، ان مثل هذه المسائل إنما يشغف بها ويرتطم في وحلها نفر قليل من محترفي المناظرة في كل أمة، ممن يرون نجاحهم في تعقيد هذه المسائل وادخال الإعضال فوق عليها الإعضال لا في حلها، فليس بذل الجهود في افهام مثل هؤلاء القوم إلا اضاعة للقوة والوقت والكفاءة. . . ولكن مما يفجع القلب ويبكي العين ان عامة دعاتنا ما صرفوا هممهم ولا قتلوا أعمارهم إلا في مثل هذه المعارك والمجادلات، ولم يوفقوا قط في أن يتأملوا أن مثل هذه المسائل والمباحث لا يولع بها إلا نفر قليل من الناس لا يريدون حلها بل يبغون إعضالها وتعقيدها، وإن المسائل التي تواجه اليوم سائر أبناء البشر وهم قلقون مضطربون لايجاد حلها، وفي حلها تنحصر سعادة النوع البشري، فإنما هي مسائل من نوع غير نوع هذه المسائل والمباحث. ولعمر الحق ان دعاتنا لو عرضوا الإسلام على هذه الدنيا الحائرة التي ما باءت إلا بالفشل الذريع واليأس المميت بعدما جربت طرقها، والتي لا تجد اليوم حلا لمسائل حياتها المدنية والاجتماعية لو أنهم عرضوا الاسلام على هذه الدنيا كنظام

شامل يهدي البشر ويضع النبراس الساطع في كل شأن من شؤون حياتهم بل أن يعرضوه عليها كمجموع للعقائد والطقوس والرسوم، لتبدلت الأرض غير الأرض، وشمل الإسلام وجه الإسلام وجه العالم كله، ولكن الذين قاموا منا بالدعوة إلى الاسلام ألَّفوا الكتب لهذا الغرض، لعله ما كان للدين في اذهانهم تصور غير التصور المسيحي: « الدين مجموعة من الطقوس والشعائر تقام في جدران المعبد، ولا علاقة له بمسائل الحياة من الناحية الايجابية ». مما كان من نتيجته انه لم يلتفت المثقفون من أهل الأرض إلى مسائل الاسلام هذه، كما لم ترغب الدنيا قبل في مسائل المسيحية الدقيقة فبقيت هذه الحماسة في « الدعوة الى الاسلام » والتطلع اليه منحصرة في دائرة ضيقة، وما نتج عنها شيء غير اضاعة المال والوقت.

٣ ـ الخطأ الثالث:

والخطأ الثالث من الناحية العلمية في هذا الطريق أن مختلف الطرق التي ألَّفها علماء المسلمين للدعوة إلى الاسلام هي أما كتب علمية بحته، أو مؤلفة على طراز الناظرة، أو على طراز المعتذرين، أو على طريق المتكلمين. ويجوز القول في كل نوع من هذه الأنواع الأربعة بأنه لا يحرك ساكناً، ولا يسمن ولا يغني من جوع في الدعوة إلى الاسلام. أما البحوث العلمية البحتة فلا شك انها نافعة للذين يريدون أن يزدادوا بصيره في تلك الناحية الخاصة التي بها تتعلق هذه البحوث العلمية من نواحي الاسلام، ولكن

أصحابها لا يكتبونها لتكون اداة للدعوة إلى الاسلام ولا يكون فيها شيء يجذب القلوب ويعجب الاذهان والابصار. أما الكتب المؤلفة على طراز المناظرة والمجادلة فانها تتعلق - كما قلنا آنفا - بمسائل خاصة لا تمثل الاسلام ولا تعرض دعوته، وتتضمن جميع المفاسد التي تنفر القلوب وتبعدها عن الاسلام بدل أن تقربها اليه وتحببه اليها. أما الكتب المؤلفة على طريق المعتذرين أي مؤلفات الذين فتنتهم نظريات الغرب، وبهر أنظارهم بريق ثقافتهم، فوضعها أصحابها ليشيعوا بها بين المسلمين ما كان شائعاً ممدوحاً بين أهل الغرب ويثبتوا له وجوداً في الاسلام أيضاً، ولو كان بعيداً عنه كل البعد، وكذلك حاولوا أن يجمعوا الدلائل من الاسلام على انكار كل ما كان مبغضاً مرفوضاً عند أهل الغرب ولو كان هو من أركان الاسلام ومبادئه الأساسية. فالظاهر أن كل ما كتبه أمثال هؤلاء القوم المفتتنين بالغرب، المفعلين بثقافته ونظرياته، ليس بترجمان صادق للاسلام، وليس فيه من قوة اليقين وثقة الدعوة ما يجذب قلوب الناس ويعجب ابصارهم واذهانهم. أما الكتب المؤلفة على طراز المتكلمين، فانها أكثر من كل شيء ايئاساً للناس من الاسلام وطردهم من ارتياد منهله الصافي. إن طريقهم في الاستدلال أبعد ما يكون عن العقل والفطرة ولا يمكن به حل مسألة من المسائل، بل قد يزيد به إعضالاً وتشويشاً، وهو لا يناسب إلا المولعين بالجدل، ولا يلائم إلا الراغبين في المناظره. فليس اتخاذه وسيلة للدعوة الى الدين إلا تنفير الناس عن الدين واساءة ظنهم به،

فالطريق الوحيد الفطري لعرض دعـوة الاسـلام على البشر هو ما اختاره كتاب الله ورسوله ﷺ ، ولكن المتكلمين لما كانوا منفعلين بفلسفة اليونانيين، ومتأثرين بطريقهم في الاستدلال، وهذا خطأ شامل جاء به المتكلمون فينا قديماً وحديثاً، وكان من نتائجه أن بدأ يقول من كان يحب من المسلمين أن يبقى مسلماً أو أراد أن يعده الناس على الأقل الأقل مسلماً ، إن الاسلام شيء يؤمن به القلب ولا يستدل على صحته وصدقه بالعقل من الوجهة العملية.

إن الاخطاء في الطريق الرائج للدعوة من الناحية العملية لا تقل عن أخطائه من الناحية العلمية وها نحن أولاء نشير إلى بعضها في ما يلي :

الخطأ الأول:

إن الخطأ العملي الأول أن المسلمين لا يظهرون للدنيا بمظهرهم الحقيقي، فتراهم يدّعون في جانب انهم جماعة لا يقوم بنيانهم إلا على قواعد الاسلام والايمان، وفي الجانب الآخر يحوزون في أنفسهم جميع الخصائص والصفات التي توجد أمثالها في أمة تجمع بين مختلف أفرادها وعناصرها المشاركة في النسل أو العصبية للنسب أو الوطن والاتحاد في الثقافة والمدنية.

يقولون في جانب إن المسلم هو من كان مؤمناً بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر وملزماً نفسه في كل ناحية من نواحي حياته اتباع أوامر الله ونبيه والابتعاد عن نواهيهما ، وفي الجانب الآخر

يضمون اليهم كثيراً ممن لا يشاركونهم في شيء سوى أنهم قد حصلت ولادتهم في بيت من بيوتهم.

يدَّعون في جانب أن محمداً ﷺ هو إمامهم ومرشدهم في كل شعبة من شعب الحياة، وفي الجانب الآخر اسلسوا قيادهم وسلموا زمام أمرهم إلى رجال استغنوا كل الاستغناء عن الله ورسوله في علمهم وعملهم.

يَدْعون الدنيا ـ في جانب ـ إلى نظام للأخلاق والعمل كامل، ويقولون إن المنحرف عنه والمخالف له ليس من الاسلام في شيء، وفي الجانب الآخر قد تفشَّى فيهم كل نوع من أنواع الانحلال الخلقي والعملي يوجد اليوم في سائر أمم الأرض وشعوبها، وزعموا أن ليس ذلك مما يعيبهم في « إسلاميتهم ».

يدَّعون في جانب أنهم منخرطون في سلك نظام للحق ويقولون إنه لا يجوز الانحراف عنه ولو قيد شعرة، وفي الجانب الآخر يعدُّون تاريخهم من عهد النبي ﷺ الى عهد مصطفى كمال تاريخاً اسلامياً مع أن معظمه لا يتفق مع نظام الاسلام الخالص.

يدَّعون في جانب أن الاسلام نظام شامل للحياة ومستقل بنفسه ولا نجاة للدنيا ولا فلاح إلا في اتباعه. وفي الجانب الآخر يشدُّون الرحال إلى أميركا وبريطانيا ليتبينوا أي النظامين ـ الأميركي أو البريطاني ـ أكثر « إسلامية ».

وسواء أكان المسلمون في ذات أنفسهم يحسون بموقفهم ذي الوجهين هذا أو لا يحسون به، فليس هناك ما يمنع سائر أمم

الأرض وشعوبها من الضحك عليه والحيرة في التضاد الموجود بين قول المسلمين وعملهم. فأصبحوا بذلك التناقض الفاحش بين دعواهم وعملهم عقبة كأداء في سبيل الدعوة إلى الإسلام وانتشاره في الدنيا، حتى أن المائل اليه بسلامة فطرته كثيراً ما يحجم عنه حين يجد المسلمين امة كأمته التي يريد الخروج عنها والدخول في الإسلام، فأي معنى للخروج من امة والدخول في أخرى مثلها؟ وإذا وجدنا رجلا سليم الفطرة من غير المسلمين قد أسلم على هذا التضاد الفاضح بين قولنا وعملنا، فاعلموا أنه ما اسلم لدعوتنا إياه إلى الإسلام، بل لأن الله تعالى اطلعه على كون المسلمين على الخطأ مع اطلاعه إياه على خطأ دينه الذي كان عليه من قبل، فهو ينظر إلى الإسلام بغير النظرة التي ينظر بها إلى المسلمين. ومن الظاهر أن مثل هذه النفوس الطاهرة قليلة جداً في الدنيا.

٢ ـ الخطأ الثاني:

إن الخطأ العملي الثاني أن المسلمين أيضاً إنما وجّهوا أنظارهم إلى الطبقات الدنيا وحصروا فيها جهودهم للدعوة، وذلك تأسياً بالبعثات المسيحية واقتداء لها على منهاجها. وليس ذلك من الصحة في شيء أبداً، فإنه ينبغي أن تكون الطبقات العليا التي تحت قيادة أفكارها ونظرياتها يسير المجتمع والتي تفسد كل امة بفسادها وتصلح بصلاحها، ينبغي أن تكون هذه الطبقات العليا أول المخاطبين في الدعوة، فإنها إذا صلحت صلح المجتمع كله، وإذا بقيت مرتطمة في غيها وضلالها وفسادها، فلا يكاد أي جهد

للاصلاح يؤثر في الطبقات الدنيا، وإن أثر بعض التأثير، فلا تلبث طبيعتها المنفصلة أن تعود لجميع المفاسد والسيئات التي تدفعها اليها الطبقة المؤثرة الفعالة من فوقها. ومثل ذلك كمثل القلب والجوارح: إذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد لا يكاد أي دلك أو ضماد على الجوارح يصلح الجسد. ان البعثات المسيحية إنما كان قصارى همها أن تكثر عدد رجالها. وإلى هذه الغاية كانت تسعى دائماً، فكان من الممكن أن تنفعها مثل هذه الجهود والاجراءات بعض الشيء، ولكن المسلمين لا يجوز لهم أبداً أن يقوموا بمهمة الدعوة لا يبتغون بها شيئاً إلا الزيادة فيعددهم، فإنهم إنما اخرجوا للناس ليرشدوا الضالين من عباد الله إلى صراطه المستقيم ويصلحوا حياتهم بقضّها وقضيضها. ولا يمكن مثل هذا الاصلاح إلا باصلاح المجتمع ولا يرجى صلاح المجتمع على هذا الوجه إلا إذا قبلته الطبقة العليا علماً وثقافة وذكاء في المجتمع [1].

وهذا هو الخطأ الذي جاء به أكثر الذين قاموا من المسلمين بمهمة الدعوة في داخل المسلمين أو خارجهم. قصروا انظارهم وجهودهم للدعوة في الطبقات العامية وزعموا بعد أن لقنوها الشهادتين أو علموها طريق الصلاة، انهم قد برئت ذمتهم من

(١) لا شك ان على الدعاة الا يحصروا الدعوة في طبقات العوام ولا بد من دعوة المثقفين الذين يملكون من وسائل الفهم والتأثير ما لا يملكه العوام. ولا شك ان الكاتب الفاضل لا يقصد بذلك اهمال العوام وعدم دعوتهم.

مهمة الدعوة ولا شك أن بعض الاصلاحات الجزئية تحصل بمثل هذه الجهود، ولكن الحياة من حيث مجموعها لا تقبل ولا يمكن أن تقبل أي تغيير بمثل هذه المساعي. ذلك بأنه اذا كان الجو في مجموعه فاسداً، فعلينا باستئصال أسباب المرض وتسوية المستنقعات وتنظيف الغدران القذرة التي تنشأ منها الجراثيم وتفسد الجو قبل أن نهتم بعلاج المرضى، وكل اصلاح يحصل بدون هذا، إنما مثله كمثل رجل مريض في مكان قد فشا فيه الطاعون، فيتحرى شفاؤه بالتلقيح، فقد تدفع هذه العملية عنه المؤثرات الفتاكة، ولكن إلى متى؟ لا بد ان يكون فريسة سائغة لذلك المرض آخر الأمر. فمن أجل ذلك ما خاطبت الانبياء عامة الناس في أول الأمر، بل بذلوا جهودهم كلها لاحداث الانقلاب في عقلية العناصر الفعالة المؤثرة في المجتمع واتخذوها وسيلة لاصلاح الجمهور وعامة الناس.

٣ ـ الخطأ الثالث

الخطأ الثالث أن المسلمين إنما جعلوا « الألفاظ » هي الأداة للدعوة إلى دينهم، ولم يعنوا في قليل ولا كثير بتمثيل الاسلام تمثيلاً عملياً حقيقياً في مظاهر حياتهم، مع أنه لا يمكن أن يؤمن بالاسلام لمجرد النظر إلى محاسن مبادئه إلا قليل ممن يكونون على ذكاء بالغ وجرأة غير عادية، ولا يقر ولا يمكن أن يقر بصدق هذه المبادىء وعلوها وطهارتها معظم سكان الدنيا إلا عندما يرونها متمثلة في الحياة العملية مفضية بالمؤمنين بها الى النتائج المرضية،

ولكن الجهود التي بذلت عندنا للدعوة الى الاسلام منذ زمن غير يسير، لا تعدو عن أنه قام منا وعاظ رنانون وخطباء مصاقع وكتاب منشؤون فأسمعوا الناس خطبهم ومقالاتهم ورتعوا بهم في الجنة الخيالية للحياة الاسلامية. زد على ذلك أنه ما زال هؤلاء القوم يستنفدون جهودهم في ترديد محاسن الاسلام والاطراء على بركاته في التمدن والاجتماع في جانب، وفي الجانب الآخر ما زال المجتمع المسلم يكذب بدعاويهم بكل ما كان فيه من مفاسد الجاهلية وآثارها، فما كانت النتيجة إلا أن تلاشت خطبهم ومحاضراتهم في الفضاء ودفنت مقالاتهم في بطون الأسفار والكتب، ذلك لأن لسان العمل الساكت أكثر تأثيراً في الأذهان وأسرع نفوذاً في القلوب من لسان الدعوى الناطق. ولعمر الحق لو كان فينا جماعة ضربوا الصفح عن الألفاظ المجردة وبذلوا شيئاً من عنايتهم بتأسيس المجتمع على مبادىء الحق التي آمنوا بها، لكانوا قد أسدوا الى دعوة الاسلام خدمات أجل وأكثر نفعاً وأغلى قيمة من خدماتهم التي قد أسدوها اليها الآن على كونهم ناجحين كل النجاح في خطبهم ومقالاتهم. والحقيقة أنه لا يكفي لإثبات أن الاسلام خير وبركة للدنيا أن تتلى على الناس وقائع مؤثرة مثيرة لعواطفهم من تاريخه الماضي ولا أن تدبج المقالات الممتعة وتذاع المحاضرات الرنانة عن إمكاناته العقلية، وإنما الطريق لذلك أن تقوم الجماعة المؤمنة بهذه المبادىء وتمثلها تمثيلاً حقيقياً في مظاهر الحياة الاجتماعية ولكن الجهود التي بذلت لذلك محصورة محدودة.

٤ ـ الخطأ الرابع

الخطأ العملي الرابع أن المسلمين أيضاً اختاروا للدعوة إلى دينهم مثل تلك الوسائل والذرائع الدنيئة التي كان يتذرع بها رجال البعثات التبشيرية المسيحية أو الآريون في الهند، فأرادوا أن يحذوا حذوهم في مضمار إدخال الناس في دينهم بطريق من الاغراء والأطماع، وكما كان الآريون والمسيحيون يفرحون ويعلنون بانتصارهم إذا دخل في دينهم رجل على سوء فهم منه كذلك كان المسلمون يفرحون أشد الفرح ويبالغون في الثناء على رجل أظهر عزمه على قبول الاسلام من غير المسلمين. وكما كان خطف الأطفال وإغوائهم جزءاً مهماً من «نشر دعوة الدين» عند غيرهم كذلك بدأوا هم أنفسهم يستسيغون مثل هذه الاعمال في نشر دعوة دينهم الاسلام، فكلما سولت لامرأة من غير المسلمين نفسها وطاوعت رجلاً دنيئاً من المسلمين على أهوائه وهربت معه من عند أهلها حيث شاء، أقام المسلمون الافراح على ذلك وعدوه انتصاراً باهراً لدينهم فكانت النتيجة لكل ذلك أن جعل كثير ـ من النساء الفاسقات والرجال الفاسقين ـ التحول من دين إلى دين، حرفة لانفسهم يتعاطونها لكسب الدنيا، فكانوا اذا أعلنوا إسلامهم صباحاً ونالوا من المسلمين ما أرادوا، يعلنون الانحراف عنه والدخول في دين المسيحيين أو الآريين مساء وينالون منهم أيضاً ما يريدون من متاع الدنيا. واني أتذكر أنه لما كانت حركة تهنيد المسلمين في بعض أصقاع الهند على أشدها، فكانت النتيجة لكل

هذا وذاك أن انحط الاسلام وصار شيئاً لا قيمة له ولا وزن في نظر غير المسلمين وظنوه وسيلة في أيدي المسلمين يستخدمونها لإكثار عددهم وانما يعرضونه على الدنيا باسم دين الله مخادعة للعامة ولعباً بعقولهم. ومن ذا الذي يمكنه الشك في عدم كونهم على الصواب في هذا الظن، ما داموا يرون أن الغاية التي كانوا يستعملون لها دينهم والطرق التي كانوا يستعملونه بها، قد جاء المسلمون أيضاً يستعملون دينهم « الاسلام » لها وبنفس هذه الطرق، فكيف كان يرجى منهم أن يعتبروا الاسلام ديناً أنزه وأعلى من أديانهم.

٥ ـ الخطأ الخامس:

الخطأ الخامس أن هناك أمرين قد عاد المسلمون لا يشعرون بأي حاجة إلى الكفاية العملية لهما، لو كانوا يشعرون بالحاجة اليهما للقيام بامور غيرها، وهما: الامانة في الصلاة، والدعوة إلى الدين، وإذا كان لا يصلي بالناس من قبل إلا الخليفة أو رجل نائب عنه، قد أفضى الأمر اليوم إلى أن بدأ المسلمون يبحثون لإمامتهم في الصلاة عن رجل قد تعطل وعجز عن أي أمر آخر من أمور الدنيا. وكذلك إذا كان كل رجل من المسلمين يعتقد من قبل ويشعر شعوراً قوياً بان الله تعالى ما أخرج هذه الامة المسلمة إلا لتبلغ دينه للعالمين بنفس ما بلغه به إياها رسوله الأمين محمد ﷺ من الاخلاص والحماسة والشعور بالتبعة، وما كانت الخلافة الاسلامية بجميع شعبها وعمالها إلا وسيلة لأداء فريضة الرسالة التي كانت قد انتقلت من رسول الله إلى هذه الأمة، إذا كان

المسلمون على كل ذلك من قبل، وقد أصبح مجتمعهم الاسلامي اليوم متصرفاً بجميع أفراده الأذكياء وطبقاته الفعالـة المؤثـرة، إلى خدمة نظام من نظم الجاهلية غير أنه قد توجد فيهم جماعة قليلة قد يخطر ببالهم أن الدعوة إلى الاسلام عمل صالح، فيجمعون المال من المسلمين ويستخدمون عدداً من الرجال ليقوموا بمهمة الدعوة إلى الاسلام وإن أكبر صفة ينشدونها في هؤلاء المستخدمين إن هي إلا أن يكونوا على بعض المعلومات « صحيحة أو غير صحيحة » عن الأديان الأخرى وقادرين على الخطابة والمناظـرة. ثم يتـدرب هؤلاء على شيء من الخطابة والمناظـرة وينتشرون في مختلف المدن والقرى يدعون الناس إلى الاسلام من قبـل جمعية من الجمعيات الدينية. والحقيقة أن هؤلاء الرجال لا يكونون على أدنـى معرفـة بالاسلام ولا بالأديان الأخـرى ولا يكون عليهـم أية مسحـة من الأخلاق الاسلامية بل إن أكبر صفة يكونون متحلـين بهـا، هي إطالة اللسان في المجادلة والمناظرة، ولا يخفى على أحد عاقبة دعوة لا تقوم إلا على المجادلات والمناظرات.

فها قد أشرنا إلى ما في الطريق الحـاضر للدعـوة من الأخطـاء والنقائص من الوجهتين العلمية والعملية. والحق أننـا إذا دققنـا النظر في هذا الطريق، وجدنا فيه جوانب كثيرة أخرى أيضاً يمكن الاعتراض عليها، ولكننا لا نريد أن نطيل هذا البحث وإنما نريد أن نبين أن الشيء الذي يسمى اليوم « بالدعوة إلى الاسلام » ليس في الغالب من تلك الدعوة إلى الاسلام التي قام بها الأنبياء عليهم

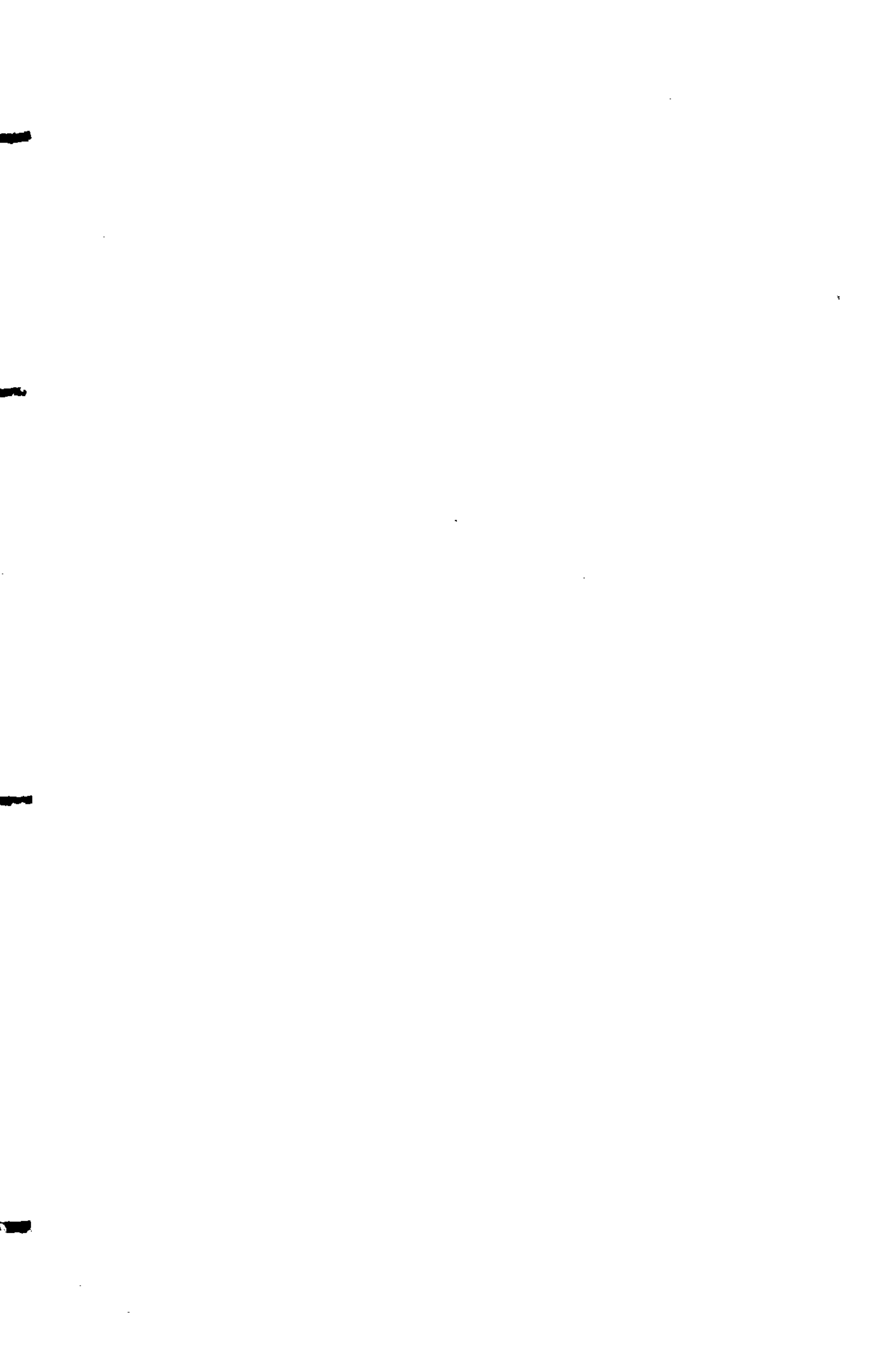
السلام وان هذه الدعوة الجديدة لا ترمي إلى نفس الغاية التي كانت ترمي اليها دعوة الأنبياء عليهم السلام، وما منهاجها بمنهاجها و إنما قد سرى التشبه بالامم الأخرى سراية ملموسة في غايتها ومناهجها فلأجل ذلك نريد أن نوضح.بكل تفصيل في بحوث آتية : ما هي الغاية التي لأجلها قام الأنبياء بمهمة الدعوة؟ وما هي الوسائل التي توسلوا بها والطرق التي سلكوها؟ وما هي المراحل التي قطعوها وكيف حققوا مقتضيات كل مرحلة من هذه المراحل التي قطعوها؟ وما هي البركات والحسنات التي تحلت بها الدنيا نتيجة لمساعيهم صلى الله عليهم وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

على مفترق الطرق

إعداد لجنة المسجد

رمضان، شوال ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

على مفترق الطرق

١

إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم، هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق طرق. إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه.. ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعاً..

وهو يستطيع أن يجتاز الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان : « نحو الحضارة الغربية » ولكنه حينئذ يجب أن يودع اسلامه إلى الأبد!

أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها « إلى حضارة الاسلام ».. وهذه الطريق وحدها هي التي تستميل أولئك الذين يعتقدون باسلامهم وبقدرته الدائمة على إبداع الحضارات..

ويقتضينا التعرف إلى حقيقة الموقف الذي يجب أن تقفه أن تعرف أولاً ما هي الثقافة؟ وما هي الحضارة ؟ وكيف تبنى الحضارة؟ وما هي الحضارة الغربية والحضارة الاسلامية..

٢

أما الثقافة(Culture) ، فينبغي قبل كل شيء أن نفرق بينها وبين كلمة « علم » أو كلمة « معرفة » .

ففي الغرب يعرّفون الثقافة على أنها : تراث « الانسانيات » الاغريقية اللاتينية، فالثقافة على رأيهم هي « فلسفة الانسان » .

وفي البلاد الاشتراكية، حيث يطبع تفكير ماركس كل القيم، عرف «يادانوف » الثقافة ـ في تقريره المشهور الذي قدمه لمؤتمر الحزب الشيوعي في موسكو ـ على انها ذات علاقة وظيفية بالجماعة، فالثقافة عنده هي « فلسفة المجتمع » .

ولكي نعلم حقيقة معنى الثقافة، لنتصور ـ من ناحية ـ شخصين مختلفين في العلم والوظيفة، ولكنهما ينتميان لمجتمع واحد كطبيب انكليزي وراع انكليزي مثلا . .

ومن ناحية أخرى لنتصور شخصين متحدين في العلم والوظيفه، ولكنهما ينتميان لمجتمعين مختلفين، كطبيب عربي درس في انكلترا وطبيب انكليزي درس معه .

فالأولان يتميز سلوكهما ازاء مشكلات الحياة بتماثل معين الرأي يتجلى فيه ما يسمى « الثقافة الانكليزية » .

بينما يختلف سلوك الآخرين أحياناً اختلافاً عجيباً، يدل على

طابع الثقافة الذي يميز أحد الرجلين عن صاحبه، لأنه يميز المجتمع الذي ينتمي اليه.

هذا التماثل في السلوك في الحالة الاولى، والاختلاف في السلوك في الثانية، هما الملاحظتان المسلَّم بهما في المشكلة التي أمامنا، وعليه فالتماثل او الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن العلم.

فالثقافة إذن هي البيئة التي يشكل الشخص فيها طباعه وشخصيته. وهي علاقة متبادلة بين الفرد والمجتمع : تحدد السلوك الاجتماعي للفرد باسلوب الحياة في المجتمع.. كما تؤثر في أسلوب الحياة في المجتمع بسلوك الفرد.

وإذا ما أردنا إيضاحاً أوسع لوظيفة الثقافة، فلنمثل لها بوظيفة الدم.. فهو يتركب من الكريات الحمر والكريات البيض، وكلاهما يسبح في سائل واحد هو المصوَّرة (بلازما) ليغذي الجسد : فالثقافة ذلك هو الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته.. ويحمل أفكار « النخبة » كما يحمل أفكار « العامة »، وكلٌ من هذه الافكار منسجم في سائل واحد من الاستمدادات المتشابهة والاتجاهات المتوحدة والأذواق المتناسبة.

فكل من الفرد والمجتمع إذن يساهم في عملية الثقافة!

الفرد يتفاعل مع الافكار ومع الاشياء ـ في ظلال المجتمع ـ ليستنبط منها مختلف المعاني.

والمجتمع يؤثر على الفرد في هذا التفاعل بما يحيطبه من ظروف.

فالتفاحة التي وقعت على رأس نيوتن العالم الشهير، فجعلته يستنبطمن سقوطها فكرة الجاذبية . . ماذا كان يمكن أن تؤديه لو أنها بدلاً من أن تقع على رأس ذلك الرياضي الكبير وقعت على رأس جده الذي عاصر عهد غليوم الفاتح؟

ان من المؤكد أنها لم تكن لتخلق فكرة الجاذبية، بل كانت ستتحول الى قليل من البراز بعد أن يأكلها جد نيوتن بكل بساطة . . فالفكرة والشيء لا يكتسبان قيمة ثقافية الا في ظلال بعض الشروط الاجتماعية .

والمجتمع في اثناء تطوره . . يمر في مرحلة يحدث فيها تقبل الافكار وتمثلها وابداعها . . ثم تليها مرحلة تبليغ هذه الافكار ونقلها الى مجتمعات اخرى . . ثم تعقب ذلك مرحلة يتجمد فيها عالم الافكار فيصبح وليست لديه أدنى فاعلية اجتماعية . . .

ولقد حدد النبيﷺ مراحل التطور هذه في صورة أخاذة، تخلع على الافكار وعلى الاشياء قيمتها العقلية وفاعليتها الاجتماعية حين قال :

« مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير . . وكانت منها بقعة امسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا . . وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . . » [1] .

---

(١) متفق عليه بألفاظ متعددة، انظر « مشكاة المصابيح » رقم ١٥٠ .

٣

والمجتمع يستطيع أن يؤثر في الثقافة كلما كانت فيه قوة التماسك.. هذه النقطة الاولى نقطة أساسية، هي التي أوضحها الله عز وجل في كلامه عن المجتمع الاسلامي الاول :

﴿ والف بين قلوبهم.. لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾.

وقد رأينا بعد ذلك كيف تكونت في المجتمع الاسلامي بكل سرعة وبكل جلاء وحدة الثقافة.. تلك التي نستطيع أن نمثل لها بالحادثة التالية :

خطب عمر المسلمين يوماً فقال قولته المشهورة : « أيها الناس، من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه ».

وكان الرد على هذه القولة ما نطق به أحد اولئك البدو البسطاء : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ».

هذا الحوار الفريد كان يطبع بطريقة رائعة اسلوب الحياة في مجتمع اتحدت فيه حركات الفكر والعواطف ودوافع العمل، وبكلمة واحدة : اتحد فيه شكل السلوك لدى الخليفة والبدوي البسيط..

والواقع أن عمر في قولته تلك كان متجهاً صوب المجتمع الاسلامي يخاطبه، وان الذي أجابه انما هو ذلك المجتمع على لسان البدوي.

ولقد تم هذا التغيير الجوهري السريع في ثقافة المجتمع، نظراً

لأنه اتبع الخطة الوحيدة الصالحة لقلب الثقافة، وهـي تقـوم على مرحلتين : مرحلة سلبية تفصل عن رواسب الماضي وتهدمها. . ومرحلة ايجابية تصل بالحياة وتوجه اليها!

وقد قام الاسلام بالمرحلتين في وقت واحد، فالقرآن الكريم قد نسف الافكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الاسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة ايجابية. .

واستطاع بذلك أن يبني حضارة!

لأن الثقافة هي غذاء الحضارة. . .

فما هي الحضارة؟

٤

يقبل العالم الاسلامـي، اليوم اقبـالا شديدا على « محـاصيل » و« منتجات » الحضارة الغربية يشتريهـا ويكدسهـا، وهـو يظـن بذلك انه يستطيع أن ينشيء حضارة!

مع أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها. .

وسيكون من السخف أن نعكس هذه القاعدة فنريد أن نضع حضارة من منتجاتها.

فالحضارة مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها. فعندما نشتري منتجاتها فانها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها!

والواقع أن كل حضارة تستدعي وجود عدد من العناصر الاولية هي الانسان والمادة والوقت. .

ولكن مجرد وجود هذه الاشياء معا لا يكفي لتكوين حضارة على الاطلاق. ولسنتعن على ذلك بمثال كيمائي : من المعلوم أن الخشب يتحد مع الاوكسجين.. يحترق به.. فيتحول الى « محاصيل » أو « منتجات » تفاعل هي غاز الفحم وبخار الماء..

ولكننا نعلم ايضاً ان الاوكسجين موجود في الهواء منذ القديم.. فلماذا لم تحترق الاشجار والاخشاب التي هي بتماس الهواء منذ زمن بعيد؟

ان الجواب كان في أن حدوث مثل هذا التفاعل يحتاج الى ما يدعى في الكيماء باسم الوسيط(Catalyst) يحتاج الى شرارة تبدأ التفاعل. فثقاب صغير يمكن أن يبدأ حريق غابة بأكملها!!

والحضارة تحتاج الى مثل هذا الوسيط، يتواسط التفاعل بين الانسان والمواد والوقت لتركيب الحضارة..

وتحتاج الى شرارة التحضير..

وشرارة التحضير هذه هي الدين!

فمن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن الا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به.. لذلك فقدكانت العوامل الثلاثة : الانسان والمادة والوقت راكدة خامدة.. وبعبارة اصح « مكدسة » لا تؤدي دوراً في التاريخ..

حتى اذا ما تجلت الروح بغار حراء.. نشأت من بين هذه العناصر المكدسة حضارة.. فكأنما كانت شرارة التحضير هي

كلمة « اقرأ » التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على التاريخ، حيث ظلت قروناً طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة وتقوده الى التمدن والرقي..

ومما هو جدير بالاعتبار ان هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل، بل كانت بين اناس يتسمون بالبساطة رجال لا يزالون في بداوتهم.. غير أن أنظارهم توجهت في تلك اللحظات الى ما وراء أفق الأرض أو الى ما وراء الافق القريب، فتجلت لهم آيات في أنفسهم وتراءت لهم أنوارها في الافاق!

﴿ الله ولي الذين آمنوا.. يخرجهم من الظلمات الى النور.. ﴾ (البقرة : ٢٥٧).

﴿ يا أيها الذين آمنوا، استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم! ﴾ (الانفال : ٢٤).

﴿ يا أيها الذين آمنوا، ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ (الانفال ٢٩)

ولقد فعلت شرارة التحضير هذه فعلها في الانسان، فرفعته من اسفل سافلين الى اعلى عليين، وخلصته من عبودية الاوثان حين شرفته بعبودية الله، وأوجدت في المجتمع الاسلامي قدرة التماسك :

« ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

(رواه البخاري)

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ».

(رواه مسلم)

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.. يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا.. وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »

(رواه البخاري)

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

(رواه البخاري)

« المسلم أخو المسلم.. لا يظلمه ولا يسلمه.. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته

(رواه البخاري)

وفعلت شرارة التحضير فعلها بأن جعلت الانسان يستفيد من المادة التي سخرها له ومن الوقت :

﴿ والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾

(النحل : ٧٨)

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون.. وجعلنا لكم فيها معايش.. ﴾

(الحجر : ١٩ ـ ٢٠)

﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض؟! ﴾

(الحج : ٦٥)

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ﴾

(الجاثية : ١١)

﴿ جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴾

(الزخرف : ١٠)

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾

(الملك : ١٥)

﴿ أنشأكم من الارض واستعمركم فيها لينظر كيف تعملون ﴾.

(هود : ٦١)

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيكف الله بها وجهه، خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه »

(رواه البخاري)

« ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »

(رواه البخاري)

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »

(رواه البخاري)

« إذا مات الانسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثـة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ،أو ولد صالح يدعو له »

(رواه مسلم)

« ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنم مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة » .

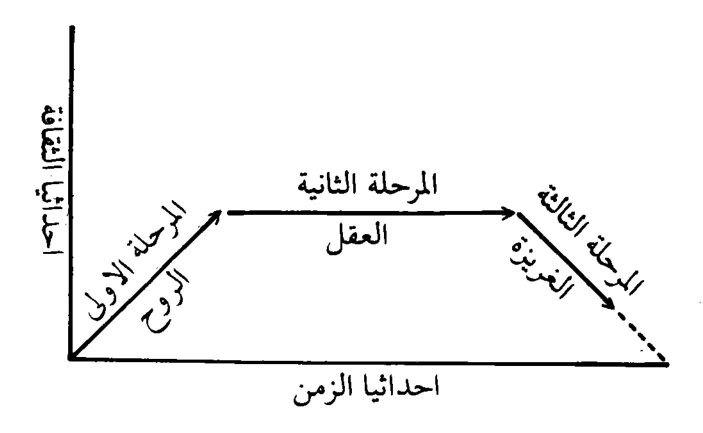
٥

والحضارة ـ كل حضارة ـ تقع كما نعلم بـين حدين اثنـين : الميلاد والافول. وإذن فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين من دورتها باعتبارهما ليستا محل نزاع . والمنحني البيانـي يبـدأ بالضرورة من النقطة الاولى في خط صاعـد ، ليصـل الى النقطـة الثـانية في خط نازل. فما الذي يمكننا أن نضـع من طور انتقـالي يتوسـط هذين الخطين؟

إنه : الأوج .

وبين الطورين الاولين يوجد بالضرورة تواز معين ، يشير إلى تعاكس في المظهر. فطور الافول النازل هو عكس طور النهضـة الصاعدة . وبين الطورين يوجد بالضرورة اكتمال معين : هو طور انتشار الحضارة وتوسعها .

ولو حاولنا ترجمة ذلك في صورة تخطيطية لحصلنا على المخطـط الآتي :



فالانسان الذي يكون في نقطة البدء، أي في مرحلة « ما قبل الحضارة » ليس إلا إنسان الطبيعة أو البداوة، حيث تسيطر « الغرائز » على أفعاله كلها، فتحرف حتى الصالح منها.. تحول الجود الى اسراف وتبذير، والشجاعة إلى عدوان والالفة الى عصبية وحمية جاهلية..

والفكرة الدينية تتولى « تكييف » غرائزه. وهذا التكييف ليس من شأنه القضاء على الغرائز، ولكن تنظيمها وتصعيدها وضبطها بقواعد نظام معين!

وفي هذه الحالة يتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة الذي يستجيب لجسده، ويخضع وجوده بكليته الى المقتضيات الروحية

التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.

حتى لقد يصل به الأمر إلى أن يكفر بالجسد.. شأن اولئك النفر الذين نذر أحدهم أن يصوم فلا يفطر، ونذر الآخر أن يقوم فلا ينام، ونذر الثالث أن لا يتزوج النساء فكان من المربي العظيم رسول الله ﷺ، أن وقف في هذا الاتجاه نحو التطرف بحزم، وأعلن لهم أنه ﷺ يصوم ويفطر، وينام ويقوم، ويتزوج النساء.. « فمن رغب عن سنتي فليس مني ».

أما قانون الروح الذي يتجلى كما ينبغي أن يتجلى، فانه يبدو لنا من مشهد بلال رضي الله عنه، حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته، ولا يفتر عن تكرار قولته: « أحد!.. أحد!.. » إذ من الواضح أن هذه القولة لا تمثل صيحة الغريزة، فصوت الغريزة قد صمت، كما أنها لا تمثل صوت العقل ايضاً فالالم لا يتعقل الاشياء..

انها صيحة الروح التي تحررت من إسار الغرائز، بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائياً في شخصية بلال!

كذلك كان المجتمع الاسلامي يحكمه هذا التغيير نفسه إذا كان شأنه شأن « بلال » لا يتحدث بلغة غريزة اللحم والدم.. ولكن اية العصر كله كانت روحية المنطق، إذ هي بنت الروح أولاً وقبل كل شيء..

ذلكم هو الطور الاول من أطوار حضارة معينة.. الذي تروض

فيه الغرائز وتسلك في نظـام خاص تكبـح فيه الجماح وتتقيد عن الانطلاق والسيطرة!

انها الروح في صوت بلال هي التي تتكلم وتتحدى بلغتها لغة اللحم والدم. . كما أنها هي نفسها تتحدث بصوت تلك « المرأة الزانية » التي أقبلت الى الرسول ﷺ لتعلن عن خطيئتها وتطلب اقامة حد الزنا عليهـا. فالوقائـع هذه جميعهـا تخـرج عن معايـير الطبيعة. . وتدل على أن الغريزة قد كبتت، غير أنها ظلت محتفظة بنزوعها إلى التحرر. وهنا ينشب الصراع المحتدم بين هذا النزوع وسيطرة الروح.

كما تتجلى هنا سلطة المجتمـع الروحانـي على الأفـراد ، بكل وضوح، ويمكن أن نمثل لذلك بقصة الثلاثة الـذين تخلفـوا عن غزوة غزاها الرسولﷺ كما يرويها كعب بن مالك رضي الله عنه.

يقول كعب : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أينا الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال فاجتنبنا الناس، أو قال تغيروا لنا حتـى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي أعرف. . . إلى أن قال : حتى إذا طال عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليَّ السلام!! فقلت له : يا أبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلمنـي أحـب الله ورسولـه؟ فسـكت، فعـدت فناشدتـه فسكت، فعدت فناشدته فقال : الله ورسولـه اعلـم، ففاضـت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار!

قال : وأتاه رسول من عند رسول الله ﷺ فقال له : ان رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك! فقال : أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال : بل اعتزلها فلا تقربنها. . فقال لامرأته : الحقي باهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله هذا الأمر.

ثم يواصل المجتمع الذي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور، تصوره. . وتتسع شبكة روابطه الداخلية، بقدر امتداد اشعاع هذه الفكرة في العالم، فتنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله. . وحتى تستطيع هذه الحضارة تلبية هذه المقاييس المستجدة تسلك منعطفاً جديداً هو منعطف العقل. . غير أن هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز. . وحينئذ تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالطريقة التي شاهدناها في عهد بني أمية إذ أخذت الروح تفقد نفوذها الهائل على الغرائز بالتدرج كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد.

ومن الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة، وإنما هي تنطلق بقدر ما تضعف سلطة الروح. .

وأثناء مواصلة التاريخ سيره، نرى هذا التطور يستمر في نفسية الفرد، وفي البنية الاخلاقية للمجتمع الذي يكف عن تعديل سلوك الافراد. . . وبقدر ما تحرر هذه النزعة من قيودها في المجتمع يكف التحرز الاخلاقي الذي يمارسه الفرد في أفعاله الخاصة شيئاً فشيئاً.

فأوج أي حضارة ـ أعني ازدهار العلوم والفنون فيها ـ يلتقي مع بدء مرض اجتماعي، تواصل فيه الغريزة المكبوحة الجماح سعيها إلى الانطلاق والتحرر والسيطرة..

وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه، يبدأ الطور الثالث من ادوار الحضارة.. طور الغريزة التي تسفر عن وجهها تماماً.. وهنا لا تعود الفكرة الدينية الاصيلة قادرة على القيام بمهمتها في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائياً في ليل التاريخ، وبذلك تتم دورة في الحضارة.

ويكون الانسان الخارج من الحضارة أو « انسان ما بعد الحضارة » انساناً مفككاً فاقد الشخصية قاصر الثقافة.. وهو يحتاج حتى يبدأ الدورة الحضارية من جديد.. إلى مرحلة تحفز.. شأن ما حدث مع بني اسرائيل الذين بلغ من ضعفهم أن قال لهم سيدنا موسى: ﴿ يا قوم! ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ فأبوا مع أنهم موعودون بها وعداً اكيداً من قبل الله وقالوا ﴿ انا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها.. فاذهب أنت وربك فقاتلا.. إنا هاهنا قاعدون ﴾!

عند ذلك كتب الله عليهم التيه.. أربعين سنة يعيشون في الصحراء.. لينقرض الجيل الخانع وينشأ جيل جديد يبدأ دورة الحضارة من جديد.

٦

والحديث يقودنا حتماً إلى الحضارة الغربية أو فلنقل الحضارة

النصرانية . . فنحن نجدها تسير مسير الحضارة الاسلامية التي سبقتها في الزمن - مهما كان ذلك غريباً - إذ من المعلوم أن مولد النصرانية تسبق الاسلام بمراحل.

ولكن التاريخ يدلنا على أن الحضارة تولد مرتين، أما الأولى : فميلاد الفكرة الدينية وأما الثانية فهي تسجيل هذه الفكرة في الانفس أي دخولها في أحداث التاريخ.

وإذا كانت الحضارة الاسلامية قد جمعت المولدين في وقت واحد، فان ذلك يعود إلى الفراغ الذي وجدته الفكرة الاسلامية في النفس العربية البكر، التي لم تنشأ فيها ثقافة ولا ديانة سابقة، فخلالها بذلك الجو.

ولم يكن حظ الحضارة النصرانية في نفوس أهلها وبيئتها كحظ الحضارة الاسلامية، فقد نشأت الفكرة النصرانية في وسط فيه الخليط من المعتقدات والثقافات العبرية والرومانية واليونانية، فلم يتح لها أن تدخل إلى قلوب الناس وسط هذا الزحام الفكري الثقافي لتؤثر فيها تأثيراً فعالاً، ولم يكتب لها أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة والجرمانية في شمالي اوروبة، حيث وجدت النفوس الشاغرة فتمكنت منها، وبعثت فيها الروح الفعالة التي اندفعت بها لتكون حلقتها في سلسلة التاريخ.

إذ يرى المفكر هرمان دي كيسرلنغ في كتابه (البحث التحليلي لأوروبة) انه « مع الجرمانيين ظهرت روح خلقية سامية في العالم

النصراني « وليست هذه الروح سوى الفكرة النصرانية الدينية في الواقع ».

كما يرى المؤرخ هنري بيرين في كتابه (محمد وشارلمان) ان شرلمان هو الشخصية التي بعثت مبدأ المسيحية في النفوس البكر فانبتت فيها الحضارة تماماً كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام من قبل.

فلما بدأت هذه النهضة، خرجت حضارة اوروبة من مرحلة السمو الروحي الى مرحلة التوسع العقلي التي انطبعت بطابع ديكارت، والتوسع في البلاد الذي حققه كريستوف كولومبوس باكتشاف اميركا.

وهذا ما يشير اليه كيسرلنغ بقوله : « ان الروح النصرانية ومبدأها الخلقي هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما اوروبة سيادتها التاريخية ».

على اننا ينبغي ألا نغفل نقطة على مبلغ عظيم من الاهمية وهي أن تلك الحقبة الطويلة من الزمن التي انصرفت بين مولد الحضارة النصرانية الاول ومولدها الثاني، قد سمح بتسرب عدد كبير في الافكار غير النصرانية الاصيلة اليها ودخل في النصرانية جزء كبير من التراث الاغريقي والروماني، وافكار رومانية واغريقية كثيرة. . وحتى في العبادات نفسها، نلاحظ تدخل هذه الافكار الى حد بعيد. كقضية التماثيل التي تلاحظ في كثير من الكنائس والتي ثار عليها قسطنطين من قبل، كما ان توما الاكويني قد حاول

تخليص النصرانية مما علق بها من الرواسب البيزنطية وغير البيزنطية. كما تجلى عدد من ردات الفعل لتخيص النصرانية من شوائبها، وخاصة بعد اتصال الشواطىء الجنوبية لاوروبة بالمسلمين، ولعل من ابرز ردات الفعل التي نعلمها حركات لوثر وكالفن وما اليها..

بيد أن ذلك لم يفلح في تنقية النصرانية مما علق بها، وبقيت محتوية في ثناياها على العديد من الرواسب الرومانية والاغريقية القديمة، تتجلى اليوم في مادية الغرب المغرقة، وفي اعتباره الاله أهلا لتقديم العبادات اليه دون أن يكون للتعاليم الالهية من أثر بارز في المجتمع. الا أن مولد الحضارة الغربية في القرون الوسطى قد امكن بفعل لمعات الروح المتجلية في هذا الركام الوثني.

وبعد، فاننا لنجد أن الحضارة الغربية قد أنهت مرحلة الروح كما يقول كيسرلنغ: «أن مركز الثقل للحضارة تزحزح عن مكانه، وتحول بالنهضة والاصلاح الديني من مجال الروح إلى مجال العقل».

ثم أنها قد أنهت بعد ذلك مرحلة العقل كما يشير إلى ذلك سبنغلر في كتابه أفول الغرب، وبدأت تسيطر عليها الآن كما هو واضح مرحلة الغريزة.

فمشكلة الحضارة في العصر الحاضر لا تخص الشعوب الاسلامية فقط بل انها تخص أيضاً شعوب الغرب التي تتهدد فيها مدنيتها بالفناء.

٧

من المعروف أن القرآن الكريم قد أطلق اسم « الجاهلية » على الفترة التي كانت قبل الاسلام. . ولم يشفع لأصحابها شعر رائع وأدب فذ، من أن يصفهم القرآن بهذا الوصف لأن التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة، الخالية من كل عنصر « مبدع » أو فكر عميق.

وإذا كانت الوثنية في نظر الاسلام جاهلية، فان الجهل في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكاراً بل ينصب أصناماً، وهذا هو شأن الجاهلية. ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم والعكس صحيح أحياناً.

ومن الواضح أن السياسة التي تجهل قواعد الاجتماع وأسسه لا تستطيع إلا أن تكون دولة تقوم على العاطفة في تدبير شؤونها، وتستعين بالكلمات الجوفاء في تأسيس سلطانها.

ولن نستطيع أن نفهم هذه الملاحظات الاجتماعية إلا إذا فهمنا الآية التي اتخذها علماء الجزائر بزعامة « بن باديس » شعاراً لهم في تأسيس دعوتهم :

﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وإنها لشرعة السماء : غير نفسك تغير التاريخ!

وعلى هدى هذه الكلمة بدأ الاصلاح الجزائري ـ اصلاح جمعية العلماء ـ من النفس هادفاً في جوهره إلى تغيير الانسان، فبعث فيه روحاً وثابة، أشرقت معها بوادر النهضة الكبرى وكان الانطلاق

الرائع للضمير الشعبي في انسجامه واطراده وحماسته، هو ملحمة الفكرة الاصلاحية.

ونحن نريد أن ندرس هذه التجربة الجزائرية تجربة النهضة الاسلامية الحديثة، لنستفيد من تجاربها ما نستطيع من فائدة.

يقول الكاتب الجزائري الكبير الاستاذ مالك بن نبي محدثاً عن تلك التجربة:

« وخلال العصر الذهبي الذي بدأ عام ١٩٢٥ واستمر حتى زوال المؤتمر الاسلامي الذي مات في مهده (سنة ١٩٣٦) كنا نشعر بالنهضة! ولم يكن زادنا في مبدأ رحلتنا سوى كلمات من الفصحى، وبعض آيات من القرآن وهكذا ابتدأت على أثر هذه المدارس النهضة الاولى، تشاد بسيطة متواضعة، كتلك المدارس الاولى التي افتتحت في الغرب في عهد شارلمان والتي كانت أصولا للمدنية الغربية..

« ولقد كنا إذ ذاك إذا ما خلصنا إلى سمونا نتحدث حديث الغشيم!! ».

« ولكنه ليس عقيماً، إذ هو يدور حول الشؤون الاجتماعية كالتعليم والتربية وتطهير الاخلاق والعادات، ومستقبل المرأة، واستخدام رؤوس الاموال. وكانت هذه الاحاديث ذات قيمة، لأنها كانت بعيدة عن منطق الغوغاء، وعن الرياء والانانية، وعن النزعات الانتخابية.. فقد أصبحت لكل كلمة من هذه الكلمات قيمتها في الوسط الجزائري.. ولكل سعي أثره وإن قل، إذ هو

يساهم في بناء التقدم والنهضة تماماً كما تساهم القشة في بناء عش الطير ابان الربيع . .

« وكنت ترى في كل مسجد أو مدرسة أو منزل حديث الاصلاح، بين مؤيد ومنتقد، ولكن كلا الفريقين كان يتمتع باللسان العف والسريرة النقية. إذ كانت المبادىء هدفهم من وراء اختلافهم، لا الاغراض الشخصية والوظائف السياسية . .

« وكانت الامة تقدم تضحياتها لبناء المدارس والمساجد من أجل البعث الفكري، والبعث الروحي، الذين هما عماد كل حضارة في سيرها الحثيث . .

« وكنت تشاهد حركات، الهدف منها إزالة كل منكر لا تقبله العقيدة، ولا يقره الذوق العام. ومن ذلك حركة محاربة الخمور وبيعها، حتى لم يجد باعة تلك السموم حيلة يفرون بها من هجوم الحركة الاصلاحية، إلا أن يلجؤوا إلى الحكومة حوالي عام ١٩٢٧ ، محتجين بأن إيرادهم تناقص، وان تجارتهم بارت! وبدأت فعلاً تمتلىء المساجد برواد الخمارات . .

« وبدأت المعجزة تشق طريقها بقوة وعزم، إلى أن جاءت سنة ١٩٣٦ ، فاذا بها تضل طريقها حتى تغلقت عليها السبل، ثم اختارت طريقاً ظنت انه موصلها الى هدفها المنشود، ولم تدر أنها تتجه الى الجهة التي انطلقت منها.

وهكذا عادت أدراجها، ميممة وجهها شطر السراب السياسي، حيث تتوارى من ورائها بوارق النهضة والتقدم . .

لقد أصبحنا لا نتكلم الا عن حقوقنا المهضومة ونسينا الواجبات ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار. .

وبدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات الباعثة الى الحياة، فانها اصبحت منذ سنة ١٩٣٦ سوق للانتخابات. . وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية. . فلكم شربنا في تلك الايام الشاي، وكم سمعنا من الاسطوانات وكم رددنا عبارة (اننا نطالب بحقوقنا) تلك الحقوق الخلابة المغرية التي يستسهلها الناس. فلا يعمدون الى الطريق الاصعب : طريق الواجبات.

وهكذا تحول الشعب الى جماعة من المستمعين، يصفقون لكل خطيب. . أو قطيع انتخابي يقاد الى صناديق الاقتراع. . او قافلة عمياء زاغت عن الطريق فذهبت حيث قادتها الصدف في تيار المرشحين. . !

وفي هذا اختلاس اي اختلاس للعقول التي اشرقت على قطف ثمار نهضتها، فان هذه العقول قد عادت اليها الوثنية، تلك الوثنية التي تلد الاصنام المتعاقبة المتطورة، كما تتطور الدودة الصغيرة الى فراشة طائرة، اذا ما صادمت جواً ملائماً. .

وهكذا وجدنا أنفسنا بين أحضان الوثنية مرة أخرى، كأن الاصلاح قد حطم الزوايا والقباب من دون الوثن. . فقد توارت الفكرة عن العقول وحلت محلها الوثنية التي تتكلم اليوم

وحدها . . اذ نصب لها في كل سوق منبر، كي يستمع الناس اليها تسلية لهم واغفالا لواجباتهم، وابعادا لهم عن طريق التاريخ . .

وأصبحت الحركة الجزائرية منذ ذلك الحين لا ترأسها فكرة بل تقودها أوثان . . وليس يهمنا هنا الشكل بل الموضوع . فليس الخطر من اسم الصنم، ولكن الخطر من سيطرة الوثنية ! !

٨

ان الحياة الاجتماعية تخضع لقانون (رد الفعل) كما يخضع له (الميكانيك) . .

وبما أن الاستعمار في نوعه هو (فعل) المدنية الحاضرة تسلطت به على الشعوب المستعمرة، فلا غرابة اذن ان يكون لذلك الفعل في تلك الشعوب (رد) . .

واننا اليوم لنرى هذا الرد (باديا في صور مختلفة من حياة العالم الاسلامي، وحرى بنا أن نطلق على ذلك (الرد) الاسم الاصطلاحي الذي يعطينا له مدلولا أوضح . .

فمن المعلوم أن علم الحياة وعلم الاجتماع يعرفان (رد الفعل) هذا بانه : اتجاه الفرد ونزوعه الى التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه .

ونعلم أيضاً أن من قوانين التكيف غريزة التشبه والاقتداء .

وبالفعل فان اشكالا جديدة من السلوك بدأنا نراها وهي ليست من عاداتنا، في جميع بلاد الاسلام .

فمن تلك الاشكال تلك الاوضاع المثيرة التي تتخذها الفتاة لكي تلفت اليها الانظار وتخفق لها القلوب.. او ذلك الشاب ذو الشعر الطويل والمشية المائلة والتصرفات المائعة..

ولو اننا حللنا حياة مجتمعنا لوجدنا فيه ألواناً جديدة تدل بجملتها على نزعات متباينة، واستعدادات فردية متنافرة في مجتمع فقد توازنه القديم، وهو يبحث الان عن توازن جديد..

واننا لنشاهد عدم الاستقرار هذا في أنفسنا، وفي تصوراتنا للاشياء..

فاننا حتى في علاقاتنا الودية والعائلية، نعيش في وسط كأنه مؤلف من اجناس متعددة ومتأثر بثقافات مختلفة.. اننا قد انزلقنا في المتناقضات بسبب تفكيرنا الذي لم يتناول الموضوع باكمله وانما اجزاء منه.

ولو اننا درسنا الحضارة بالنظرة الشاملة الخالية من الشهوات المبرأة من الاوهام لما وجدناها ألواناً متباينة ولا اشياء متناقضة ولا مظاهر متباعدة.

ولا شك في أن عقائدنا السياسية تدين لتلك القيم الفاسدة للمدنية.. تلك العقائد التي تمثلت عندنا اليوم في اسطورة (الشيء الوحيد) و(الرجل الوحيد) الذي ينقذنا.

وإن هذه العقيدة الوثنية التي تقدس الاشخاص لا زالت منتشرة في بلاد الاسلام لم نتخلص منها، وإن كنا قد فعلنا شيئاً

فربما كان ذلك في استبدالنا وثنا بوثن، فلعلنا اليوم قد استبدلنا (الرجل الوحيد) (بالشيء الوحيد)..

وهكذا ننتقل من وهم لنتخبط في وهم، ولا ندري كم من السنين سوف نقضيها لندرك عجز (الاشياء الوحيدة) عن حل المشكلة.. التي هل مشكلة الحضارة أولاً وقبل كل شيء.

إن من الواجب ألا توقفنا أخطاؤنا عن السير حثيثاً نحو الحضارة الاصيلة، توقفنا خشية السخرية أو الكوارث فان الحياة تدعونا أن نسير دائماً الى أمام، وإنما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضوياً يستغله الرجل الوحيد أو يضلله الشيء الوحيد، بل فليكن سيرنا علمياً عقلياً، حتى نرى أن الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلابة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الانسانية.

وإن قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه إزالة المتناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم، وذلك بتخطيط ثقافة شاملة، يحملها الغني والفقير، والجاهل والعالم حتى يتم للانفس استقرارها وانسجامها مع مجتمعها، وذلك المجتمع الذي سوف يكون قد استوى على توازنه الجديد.

إنها قاعدة سنها الله عز وجل وهي القاعدة التي ينبغي أن تقود جهودنا على الدوام :

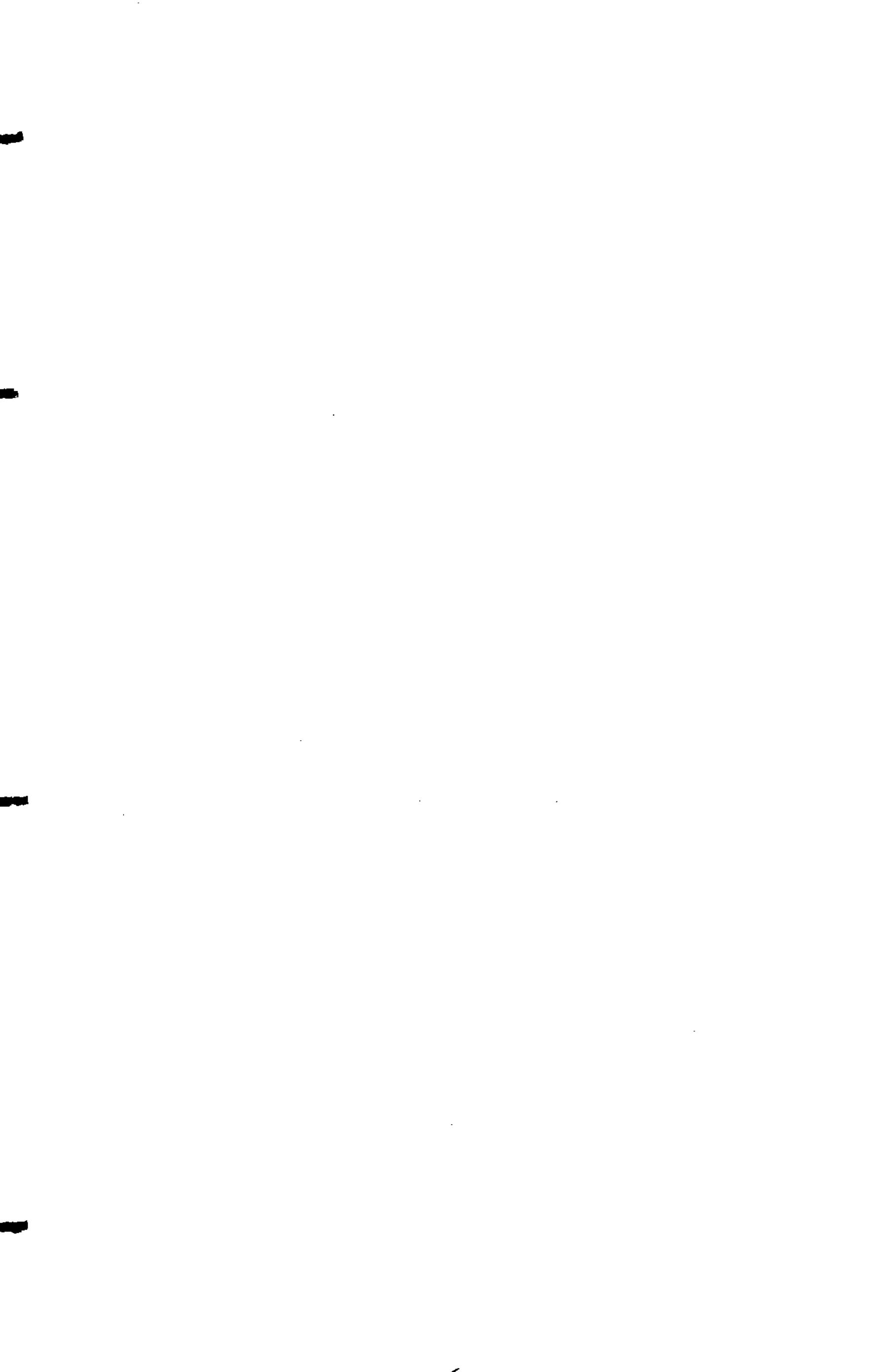
« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

من الظلمات إلى النور

للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

ذو القعدة/ ذو الحجة ١٣٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

قال ابن اسحاق: حدثني رجل من اسلم، كان واعيه، أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه. ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره. فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه، فعمد الى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً (متقلداً) قوسه راجعاً من قنص (صيد) وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ الى بيته قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم ابن هشام!! وجده ههنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد ﷺ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقف على أحد معداً لأبي جهل - إذا لقيه - أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر اليه جالساً في

القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول؛ فرُدّ ذلك علي إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فاني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتم حمزة رضي الله عنه على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله.

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أنَ رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

- ٢ -

اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

وكان رسول الله ﷺ - على ما يرى من قومه - يبذل لهم النصيحة ويدعوهم الى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرونه الناس (أي يحذرون منه الناس) ومن قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عرب الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى اليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً، شاعراً، لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدِمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل (أي اشتد أمره وتعذَّر علاجه) بنا وقد فرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل

علينا، فلا تكلمه، ولا تسمعنّ منه شيئاً، قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذنيَّ حين غدوت الى المسجد كُرسُفاً (أي قطناً) فرقاً (أي خوفاً) من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، قال: فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فأتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذنيَّ بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله الا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرِض علي أمرك، قال: فعرض عليّ رسول الله ﷺ الاسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع اليهم وداعيهم الى الاسلام، فادع الله أن يجعل لي آية (أي علامة) تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم اليه؛ قال: « اللهم اجعل له آية ». قال: فخرجت الى قومي، حتى إذا كنت بثنيةٍ تطلعني على الحاضر

(القوم النازلون على الماء) وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال: قلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال فتحول فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كا لقنديل المعلق، وأنا أهبط أتاني أبي ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فقلت: إليك عني يا أبت فلست منك ولست مني، قال: لِم يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ ، قال: أي بني فديني دينك، فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما عُلِّمت؛ فذهب فاغتسل وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الاسلام فأسلم. . ثم أتتني صاحبتي (زوجتي) فقلت: اليكِ عني فلست منك ولست مني، قالت: لِم بأبي أنت وأمي؟ قلت: فرَّق بيني وبينك الاسلام وتابعت دين محمد ﷺ ، قالت: فديني دينك، قلت: فاذهبي إلى حنى ذى الشرى فتطهري منه، وكان ذو الشرى صنماً لدوس، وكان الحمى، حمى حموه له به وشلٌ (منخفض من الأرض فيه ماء قليل) من ماء يهبط من جبل، قالت: بأبي أنت وأمي، اتخشى على الصّبية من ذي الشرى شيئاً قلت: لا، أنا ضامن لذلك؛ فذهبَت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الاسلام فأسلمت، ثم دعوت دوساً الى الاسلام فأبطؤوا عليَّ، ثم جئت الى رسول الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دوس الرنا (أي اللهو) فادع الله عليهم، فقال « اللهم اهد دوساً ارجع الى قومك فادعهم وارفق بهم » قال: فلم أزل بأرض

دوس أدعوهم الى الاسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ الى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن اسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبعين او ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ، بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين، ثم لم ازل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله عليه مكة، قلت: يا رسول الله ابعثني إلى ذي الكفين (صنم عمرو بن حُممة) حتى أحرقه. فخرج اليه فجعل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادك   ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حشوت النار في فؤادكا

ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ومن أرض نجد كلها، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، (فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا فاعيروها لي: رأيت أن رأسي حلق وأنه خرج من فمي طائر، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها، وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً، ثم رأيته حُبس عني. قالوا: خيراً، قال: أما أنا والله أولتها، قالوا: ماذا؟ قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي وأما المرأة التي أدخلتني فرجها فالأرض تحُفر لي فأغيَّب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني، فقتل رحمه الله شهيداً باليمامة وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبلَّ (أي

بریء) منها، ثم قتل عام اليرموك في زمن عمـر رضي الله عنـه شهيداً.

-٣-

قال ابن اسحق: إن اسعد بن زراره خرج بمصعب بن عمير يريد به دار الاشهل ودار بني ظفر، وكان سعد بـن معاذ ابن خالة اسعد بن زراره، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر (اي احد بساتينهم)، فجلسا في الحائط واجتمع اليهما رجال ممن اسلم، وسعد بن معاذ واسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبل الاشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه. فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا اباللك، انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد اتيا دارينا لِيسفِّها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن ان يأتيا دارينا، فانه لولا ان اسعد بن زراره منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا اجد عليه مقدماً، قال: فأخذ اسيد بن حضير حربته ثم اقبل اليهما، فلما رآه اسعد بن زراره قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: ان يجلس اكلمـه. فوقف عليهما متشتما، قال: ما جاء بكما الينـا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا ان كان لكما بانفسكما حاجة، فقال له مصعب او تجلس فتسمع فان رضيت امراً قبلته، وان كرهته كُفَّ عنـك ما تكره. قال: انصفـت، ثم ركز حربتـه وجلس اليهما، فكلمه مصعب بالاسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الاسلام قبل ان يتكلم في اشراقه وتسهله، ثم

قال: ما احسن هذا الكلام واجمله! كيف تصنعون إذا اردتم ان تذخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد الحق ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق، ثم قام وركع ركعتين، ثم قال لهما: ان ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه احد من قومه، وسأرسله اليكما الآن: سعد بن معاذ ثم اخذ حربته ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: احلف بالله لقد جاءكم اسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما احببت، وقد حدثت ان بني حارثة قد خرجوا الى اسعد بن زراره ليقتلوه، وذلك انهم قد عرفو انه ابن خالتك ليحقروك، قال: فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما اراك اغنيت شيئاً، ثم خرج اليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد ان اسيد انما اراد منه ان يسمع منهما. فوقف عليه متشتما ثم قال لأسعد بن زراره: يا ابا امامة اما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، اتغشانا في دارينا بما نكره؟ وقد قال اسعد بن زراره لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه ان يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان فقال له مصعب: او تقعد فتسمع، فان رضيت امراً ورغبت فيه قبلته، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد:

انصفت، ثم ركز حربته وجلس فعرض عليه الاسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الاسلام قبل ان يعلم لاشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون اذا انتم اسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهّر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم اخذ حربته فاقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه اسيد بن حضير؟ فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع اليكم سعداً بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الاشهل، كيف تعلمون امري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، قال: فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، قالوا: فوالله ما امسى في دار بني عبد الاشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً او مسلمة، ورجع اسعد ومصعب إلى منزل اسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس الى الاسلام، حتى لم تبق في دار من دور الانصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

- ٤ -

قال ابن اسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبراً عالماً، قال: لماسمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له (نترقب)، فكنت مُسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف

أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخله لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله!! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت، فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعُث بما بعث به، فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم، فقالت: فذاك إذاً. ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامي من يهود ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت (كذابون) وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي، فانهم إن علموا به بهتوني وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم « أي رجل الحصين ابن سلام فيكم »؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فاني أشهد أنه لرسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت!. ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بهتٌ أهلُ غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرت إسلامي

وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

- ٥ -

قال ابن اسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة ابن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحِجر بيسير - وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، أسره رفاعة بن رافع أحد بني زريق - قال: نذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: والله إن (أي ما) في العيش بعدهم خير، قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان وقال: علي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا. لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال أفعل ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وُسمَّ ثم انطلق حتى قدم به المدينة فبينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم به من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب. والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي

حرَّش (أفسد) بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: « فأدخله علي » فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الانصار:ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فانه غير مأمون ثم دخل على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: « أرسله يا عمر، أدن يا عمير » فدنا ثم قال: انعموا صباحاً ـ كانت تحية أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة » فقال أما والله يا محمد أن كنت بها لحديث عهد، قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الاسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال فما بال السيف في عنقك »؟ قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً، قال « أصدقني ما الذي جئت له »؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمد فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك » قال: عمير أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله فالحمد لله الذي

هداني للاسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: « فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره » ففعلوا، ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهداً في اطفاء نور الله شديد الاذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى الاسلام،لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم؛ كما كنت اوذي اصحابك في دينهم؛ فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بواقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً. فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الاسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فاسلم على يديه ناس كثير.

- ٦ -

قال ابن هشام: لما ظفر رسول الله ﷺ ببني قريظة أخذ منهم نحواً من أربعمائة رجل من ا ليهود وكانوا حلفاء الأوس من الخزرج، فأمر رسول الله ﷺ بأن تضرب أعناقهم، فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم ويسرهم ذلك، فنظر رسول الله ﷺ إلى الخزرج ووجوهم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وبين بني قريظة، ولم يكن بقي من بني قريظة إلا إثنا عشر رجلا، فدفعهم الى الأوس،

فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلا من بني قريظة وقال: « ليضرب فلان وليذفف (أي: ليجهز) فلان » فكان ممن دفع إليهم كعب بن يهوذا وكان عظيماً في بني قريظة، فدفعه إلى محيِّصة وليذفف عليه أبو بردة » فضربه محيصة ضربة لم تقطع وذفف أبو بردة فأجهز عليه، فقال حويصة - وكان كافراً - لأخيه محيصة: أقتلت كعب بن يهوذا؟ قال: نعم، فقال حويصة: أما والله لرُبَ شحم قد نبت في بطنك من ماله!! إنك لئيم يا محيصة، فقال له محيصة: لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لقتلتك، فعجب من قوله ثم ذهب عنه متعجباً فذكروا أنه جعل يتيقظ من الليل فيعجب من قول أخيه محيصة حتى أصبح وهو يقول: والله إن هذا لدين، ثم أتى النبي ﷺ فأسلم، فقال محيصة في ذلك:

يلوم ابن أمي لو أمرت بقتله	لطبقت ذِفراه[1] بأبيض قاضب
حسام كلون الملح أخلص صقله	متى ما أصوبه فليس بكاذب
وما سرني أني قتلتك طائعاً	وأن لنا ما بين بصرى ومأرب

- ٧ -

عن عمرو بن العاص قال: لما انصرفنا مع الاحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش. كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور

(١) الذفرى: عظم خلف الاذن.

علواً منكراً (أي عظيماً) وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا، كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتيا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا لرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم (أي الجلد) فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه. فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فاذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت إلي من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه. ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه كسره فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه؛ ثم قلت له: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه؛ قال: أتسألني أن

أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر (أي جبريل عليه السلام) الذي كان يأتي موسى لتقتله! قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق؛ وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أفتبايعني له على الاسلام؟ قال نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام. ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت إسلامي أصحابي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة فقلت: اين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم (أي وضح الأمر)، وإن الرجل لنبي، اذهب والله لأسلم، فحتى متى!! قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي. ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبّ (أي: يقطع) ما كان قبله وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها.

قال: فبايعته ثم انصرفت.

٨

قال: ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن

حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى. فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: لقد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

٩

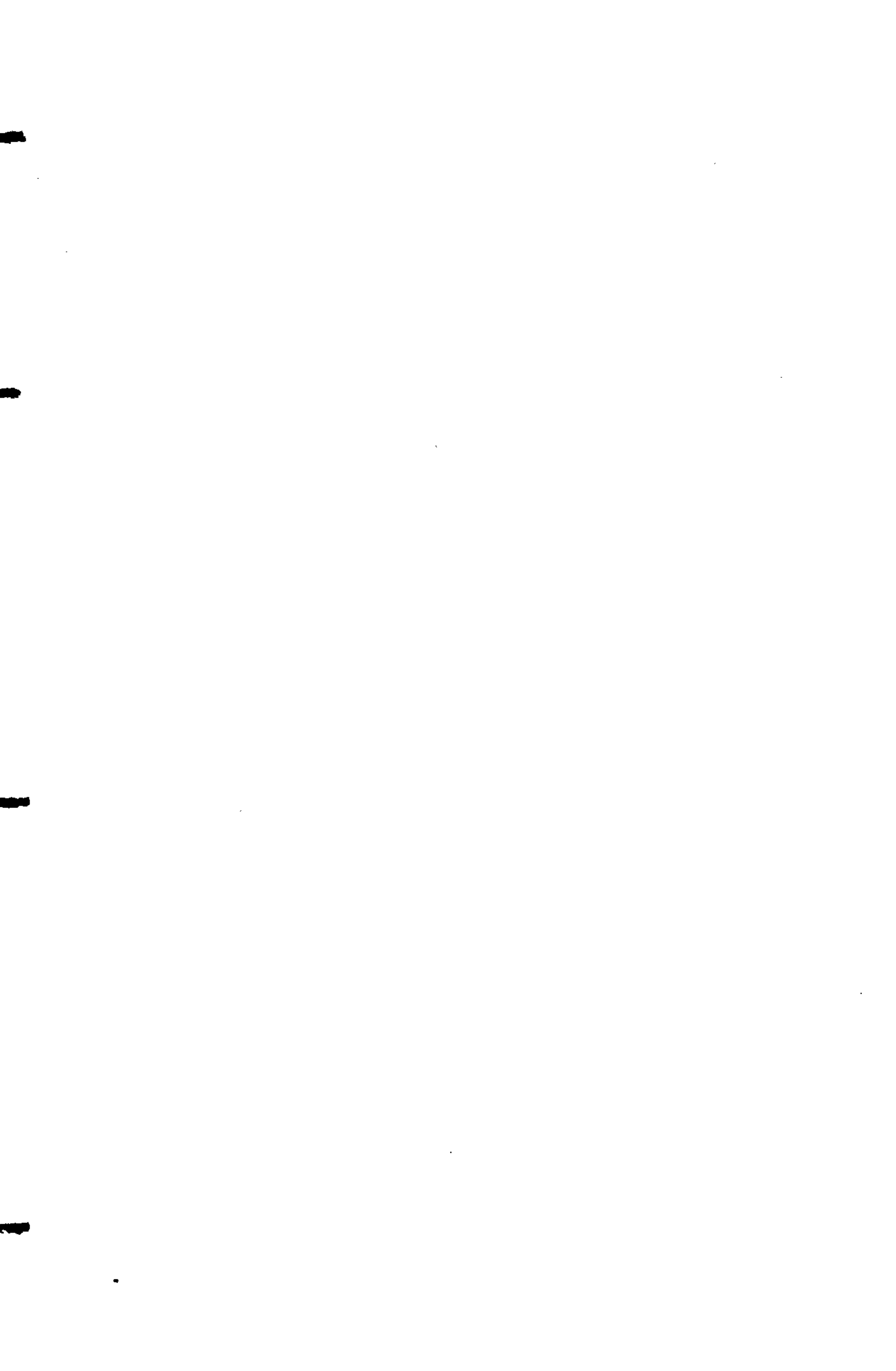
قال ابن هشام: وحدثني من أثق به أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال يا رسول الله ﷺ :أفضالة؟ قال :نعم فضالة يا رسول الله. قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء كنت أذكر الله. فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه. قال فضالة فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث اليها، فقالت: هلمَّ إلى الحديث. فقلت: لا . . وانبعث فضالة يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله والاسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الاصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا والشرك يغشى وجهه الإظلام

عن عروة بن الزبير قال: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمِّنْهُ صلى الله عليك قال: هو آمن. قال يا رسول الله فأعطني آية (أي علامة) يعرف بها أمانك فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به. قال ويحك! أغرب عني فلا تكلمني قال: أي صفوان فداك أبي وأمي، أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال: إني أخاف على نفسي. قال: هو أحلم من ذاك وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمَّنتني قال: صدق. قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر.

وحدث الزهراوي: ان فاختة بنت الوليد ـ وكانت عند صفوان ابن أميه ـ وأم حكيم بنت الحارث بن هشام ـ وكانت عند عكرمة ابن أبي جهل ـ اسلمتا، فأما أم حكيم فاستأمنت رسول الله ﷺ لعكرمة فأمَّنه، فلحقت به باليمن فجاءت به.

فلما اسلم عكرمة وصفوان أقرهما رسول الله ﷺ على النكاح الأول.

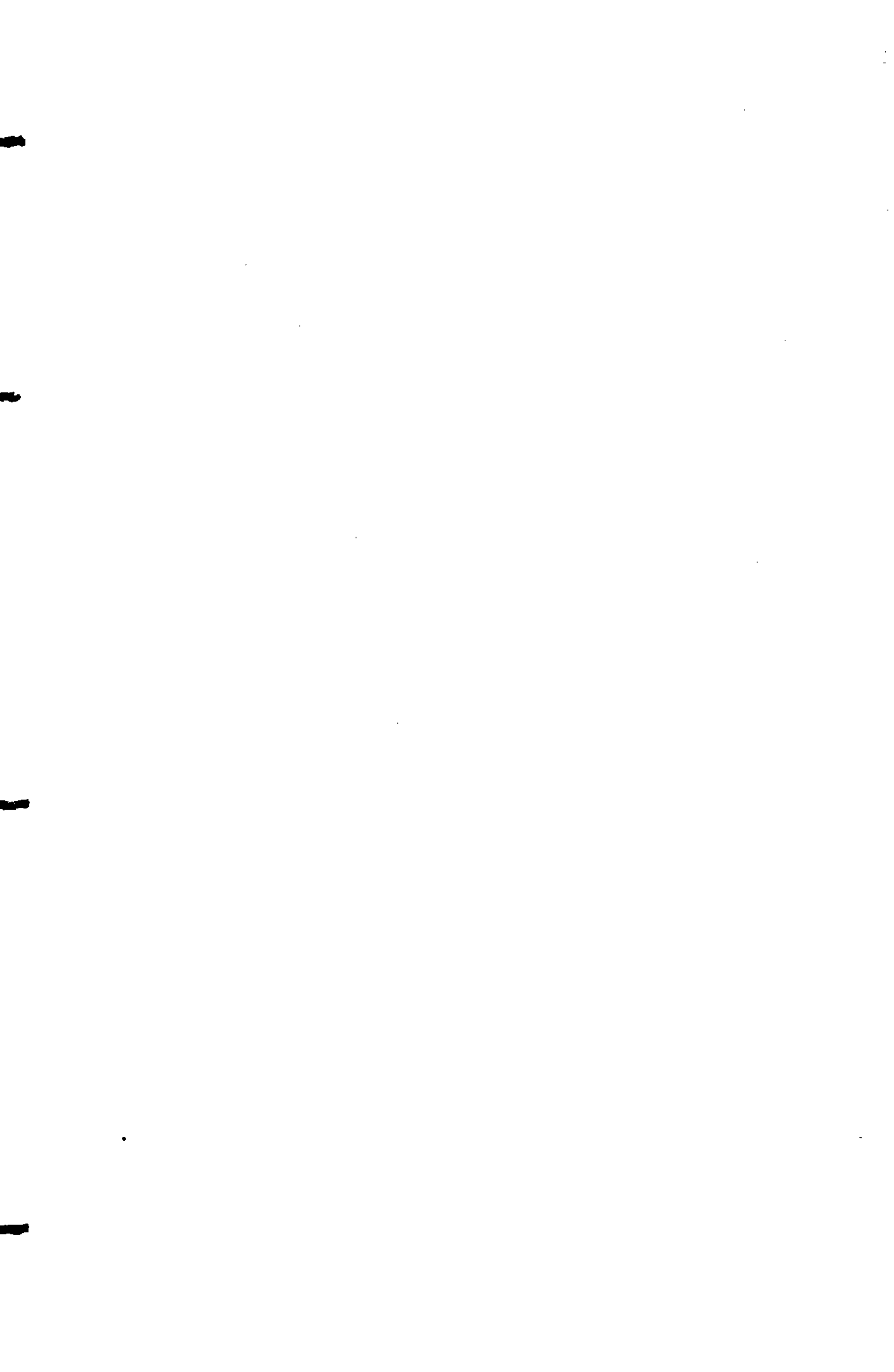


الحركيّة والحتميّة في الإسلام

للأستاذ

محمد سعيد المولوي

١ المحرم ١٣٨٣



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبه نستعين والصلاة على خاتم المرسلين

إن الناظر لمجتمعنا اليوم يجده يموج بحركات عديدة واتجاهات فكرية وسياسية مختلفة قد تتشابه في بعض نقاطها وتختلف في بعضها الآخر، فلكل اتجاه أو فكرة طبيعة خاصة به تتعلق بالأهداف التي يقصدها، والمناهج التي يريد تطبيقها، والطرق التي يسير عليها. وقد تتقارب بعض هذه الاتجاهات من الاسلام حيناً وتبتعد أحياناً حتى كادت تشتبه على كثير من المسلمين السبيل التي يجب أن يسيروا عليها لكي يضمنوا رضاء الله عز وجل، وحتى يعملوا لوصول الاسلام إلى كل صغيرة وكبيرة في المجتمع بحيث لا يبدو أي نشوز. ولا نبالغ إذا قلنا إن طبيعة الاسلام أيضاً قد باتت تشتبه بعدد من الدعوات لجهل المسلمين بطبيعة الاسلام وتميزه ولذلك فليس غريباً دخول كثير من المفاهيم الغريبة على حقيقة الاسلام كالديموقراطية والاشتراكية.. الخ.

ومن البدهي بالتالي أنه لا بد للدعاة المسلمين اليوم وفي كل زمن من معرفة حقيقة اسلامهم معرفة كاملة، ومن تفهم طبيعة هذه العقيدة التي يحملونها، والخصائص التي تتحلى بها بحيث تبدو نسيجاً فريداً لا يشابهه شيء ولا يماثله أمر، وتظهر دعوة لا ترتبط بغيرها من الدعوات، وتنفر من كل رباط يحاول أن يجمعها بها.

ومن الطبيعي يتحتم على من يحاول تفهم طبيعة دعوة الاسلام أن يرجع إلى الكتاب والسنة والسيرة النبوية، والمراحل التي مرت بها هذه الدعوة لأن هذه المراحل تنقل لنا صورة واضحة وجلية للدعوة في انتقالها من مرحلة العلم إلى مرحلة العمل، ومن مظهر المثالية إلى مظهر الواقعية، وتكون نموذجاً حياً يتيح للانسان فرصة معرفة السبل المجدية في تطبيق أحكام الدعوة ومبادئها. ولما كانت فترة الدعوة التي قام بها الرسول ﷺ هي التي تعد حجة على الناس كافة وكانت المراحل الأخرى عوامل مساعدة وأمثلة مؤيدة فانه من الواجب علينا أن نتصرف على الدعوة في هذه الفترة وعلى السبيل التي اتبعها الرسول صلوات الله عليه، وبالتالي على الخاصة التي تظهر إبان هذه الفترة.

من الثابت أن الرسول ﷺ قد بدأ الدعوة إلى الاسلام سراً حيث كان ينتقي من الناس من يثق بحسن تفكيره ونظرته السديدة إلى الأمور وتعلقه بشخصه الكريم نتيجة خلقه السليم، وقد كان أول من آمن به عليه الصلاة والسلام زوجه خديجة وصديقه أبو بكر الصديق وابن عمه علي عليهم رضوان الله جميعاً. وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام يدعو الناس في الخفاء، ويجمعهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم مدة ثلاث سنوات حتى انتقل بعد ذلك مطيعاً للآية القرآنية الكريمة ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ بالدعوة إلى الجهر والعلانية.

وجدير بنا أن نقف عند هذه الفترة لنتعرف على أبرز مظاهرها

من جهة ولكي نعرف طبيعة الدعوة من جهة ثانية. وأفضل مصدر نستطيع أن نأخذ منه هذه المظاهر هو القرآن الكريم فإذا رجعنا إلى الآيات الكريمة في هذه المدة فإننا نجدها تتناول نقطتين هامتين:

١ ـ الأولى تدور حول ترسيخ عقيدة التوحيد الخالصة التي تجعل الفرد يؤمن بإله واحد قادر سميع تعالى بصفاته وتنزه لا يماثله شيء ﴿ ليس كمثله شي ﴾ وترتبط حياة الإنسان كلها برضاه وغضبه فإن أطاعه فاز وإن عصاه هلك ورأس الطاعة تحقيق معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله في النفوس والسلوك ورأس الهلكة الشرك.

٢ ـ والثانية تدور حول مهاجمة العقائد الأخرى القائمة دون استثناء لواحدة منها وبيان زيغها وضلالها، وأنها طريق لا تؤدي إلى مرضاة الله ولا إلى نجاة الانسان وإنما هي سبل تسرع بصاحبها إلى الهلاك.

ومع أننا حاولنا أن نفصل هنا بين هاتين النقطتين فإنه لا بد لنا أن نعترف من أن الفصل بينهما أمر صعب وغير ممكن إذ لا بد أن تكون كل واحدة متصلة بالأخرى اتصالا وثيقاً بل نستطيع أن نقول إنها الصورة الثانية لها والوجه المقابل بحيث لا يمكن تصور وجود واحدة دون الأخرى، وهذا كما سنرى أمر هام إذ يبين العلاقة بين الإيجابية والسلبية عند المتذرعين والمتمسكين بواحده منهما.

وكذلك فإننا نحب أن نلفت الأنظار إلى ناحية هامة في هذه الفترة قد يخطيء بعض المسلمين في فهمها وذلك عندما يظنون أن

الحركة الاسلامية في ذلك الحين كانت مغلقة، وليست على تماس مع الناس. فنحن لو رجعنا إلى السيرة المشرفة لوجدنا أن مجتمع مكة كان على علم بالدعوة الجديدة، وعلى علم بوجودها، وكان يحاول معرفة حقيقتها ومحاربة أفرادها وقد يحصل تماس بين أحد المعتنقين للدعوة مع غيره من الناس بشكل افرادي، ولكن الدعوة كمجموعة وككل لم تدخل الميدان.

ومن النقطتين السابقتين نتجه اتجاهاً أكيداً لنقر أن الإسلام منذ الفترة الأولى التي أنزل فيها دعوة حركية لا تكتفي بحاملها، ولا تقنع بمعتنقها وإنما تدفع صاحبها دفعاً إلى التبشير بمبادئها والدعوة إلى أهدافها. وهذه الحركية عامة تنتقل من الجزء إلى الكل ومن المفرد إلى المجموع. وطريقها في الجزء تتجه من المركز وهو الإيمان والإعتقاد بلا إله إلا الله محمد رسول الله إلى التطبيق والسلوك والعمل. فليس يكفي في نظر هذه الدعوة أن يعتنق الإنسان مبادئها بل لا بد له أن يجمع بين الاعتقاد والعمل ويشترط في هذا العمل التكامل والإحاطة قال تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾. البقرة : ١٧٧.

فإذا صلح الجزء وهو القلب بالإيمان طفح هذا الصلاح على سائر جوارح الإنسان وأعضائه أي انتقلت الدعوة بحركيتها من نقطة واحدة إلى نقاط مختلفة ونجد دليلا على ذلك في قوله ﷺ: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب ».

ولعل الحركية هذه هي التي عبر عنها بعض الصالحين بكلمة « التحقق » فقالوا لا بد لمن يقول كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله من أن يتحقق من معناها وأن يجعلها حقيقة فيه وحينذاك يصبح مسلماً حقاً لأن هذا التحقق يدفعه إلى السير على شريعة الله بشكل سوي.

والحركية التي تتميز بها الدعوة الإسلامية لا تبقى في مجال الفرد بل تدفع الإنسان للعمل في مجتمعه فليس يكفي أن أكون مسلماً مطبقاً بل لا بد لي من أن أعطي أحكامي المستمدة من الشريعة على ما أراه أمامي من أمور وأن أقف منها موقفاً معيناً ينسجم من عقيدة الإسلام، ثم أن أتجه بهذه الدعوة نحو بقية أفراد المجتمع خاصة والبشرية عامة حتى تحل قلوبهم. وقد ظهرت هذه الميزة في دعوة الرسول ﷺ زوجته خديجة وصاحبه أبا بكر للاسلام منذ أن بدأ الوحي. كما أنها ظهرت في استمراره على الدعوة إن في المرحلة السرية في دار الأرقم وإن في المرحلة الجهرية عندما خطب فقال: « ألا وإني رسول الله إليكم خاصة وللناس كافة » وفي قوله تعالى، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾.

ومن البدهي أن معنى الرسالة يضيع إذا لم تكن نقلاً للمبادىء والأفكار إلى الآخرين، وإفهاماً للناس لأوامر الله ونواهيه، والله قد شهد لمحمدﷺ بأنه رسول عندما قال: « محمد رسول الله ».

فإذا تركنا المرحلة السرية التي مرت بها الدعوة الإسلامية وانتقلنا إلى المرحلة الجهرية فإننا نجد عجباً. فلقد توضحت الحركية في الدعوة الاسلامية في مظهرين عظيمين جداً.

أولهما مظهر الثبات على العقيدة والافتخار بها، والتحدي بشعاراتها رغم الأذى والمصائب، وتحقيق قوله تعالى: ﴿ والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾، وليست كلمة بلال رضي الله عنه « أحد أحد » إلا تعبيراً عن مبدأ الثبات والتحدي. ولا يغرب عن بالنا هنا أن مبدأ الثبات رغم الأذى هو انتصار هائل لصاحب الفكرة لأنه يضرب صورة واضحة عن قيمة الأفكار التي يحملها وعن الارتباط العميق بهذه الأفكار، كما أنه يدفع الآخرين للتعرف على هذه الأفكار لمعرفة حقيقتها. وإذا كان المسلمون قد بدأوا بمظهر الثبات على العقيدة منذ فترة الدعوة السرية على يد أبي بكر رضي الله عنه فإنهم في فترة الدعوة الجهرية قد توسعوا في مظهر الثبات هذا حتى رأت فيه قريش ظاهرة توجب تجنيد كل قواها لمحوها والقضاء عليها، وكان هذا التصميم والجهد من قريش أثر خير على الدعوة لأنها جعلت الحركية الاسلامية تنطلق بالمسلمين من حيز مكة وقريش إلى بقية ميادين الجزيرة العربية وغير الجزيرة كالحبشة،

وبـذلك توصلـت الدعـوة الاسـلامية بفضـل هذه الحـركية الى انتصارات هامة.

وثاني هذين المظهـرين هو هذا النشـاط العـظيم الـذي بذلـه المسلمـون عامـة ورسولـه الله ﷺ خاصـة في دعـوة النـاس إلى الإسلام، ونقلهم من الظلمات إلى النور.

وإذا تذكرنا مقدار الضغط الهائل، والعقبـات العظيمـة التـي مارستها قريش للقضاء على الحركة الإسلامية أو الوقوف في وجهها أو الحد من نشاطها، عرفنا أي مردود عظيم استطاعـت الحـركية الإسلامية أن تحصل عليه.

ولا ننكر هنا أن مظهر النشاط هذا هو الذي ساعد وأيد وتآزر مع مظهر الثبات حتى خرج هذان المظهران صورة واضحة للحـركية الاسلامية، وذلك في انطلاقها إلى يثرب والحبشة.

فإذا انتقلنا إلى المرحلة التي مرت بها الدعوة الإسلامية في يثرب وجدنا أن حالة جديدة قد ظهرت وهي تكتل المسلمـين في دولـة اسلامية زعيمها رسول الله ﷺ . وقد استفادت الحركية في الدعوة الإسلامية من وسائل الدولـة فتجـاوزت الوسائـل الـكلامية إلى وسائل أكثر جدية مع من لا يفهمون الكلام أولا يحاولون فهمه، ووجدت في هذه الوسائل آلة مساندة للوسائل الكلامية.

ونحب هنا أن نثير نقطة تكلم عنها بعض الكتاب المحدثين، وهي تتعلق بالحركية تعلقاً بيناً، إذا دعى بعض هؤلاء بأن الدعوة الاسلامية دعوة دفاعية، وأن المسلمين خاضوا حروبهم في سبيل

الدفاع عن أنفسهم وعن الشعوب العربية المستعمرة، وهم يجعلون كل الفتوح الاسلامية من هذا السبيل وحتى تلك التي خاضوها في الأندلس [1]. والحقيقة التي تظهر لنا ان الدعوة الإسلامية ليست دفاعية فهي حركية تريد أن تتوسع وأن تعم البشرية كلها. وكل من أدرك هذا المقصد من دعوة الاسلام عرف أن هذه الدعوة ما كانت لتقنع بوجودها بشكل جمودي لا تقدم فيه ودليلنا على ذلك ما قدمناه آنفاً، وقد أدرك هذا المعنى تماماً أئمة الكفر والضلال في الغرب فهيأوا له ما يحاولون به إضعافه والقضاء عليه. وليست الدفاعية في الحركة الإسلامية إلا الدفاع عن وصول مبادىء الإسلام إلى مختلف البشر في مختلف أنحاء الارض فهذه الرسالة قد أنزلها الله للناس كافة دون تفريق وجعل الرسول شاهداً على معتنقيها،ومعتنقيها شهداء على الناس ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾.

ولذا فليس من الغريب علينا أن نجد الحرب على الإسلام قد شنها أعداؤه منذ القدم، وأن نجد أوروبا تجند قواها كلها في الحروب الصليبية لتكتم كلمة الحق، إذ ما تزال أوروبا تذكر جحافل المسلمين التي اندفعت عبر البيرينية نحو فرنسا، ومن صقلية نحو روما. ولا تزال النصرانية تجد في قول الله عز وجل ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وفي قوله ﴿ ولتنذر الذين

(١) راجع مقدمة كتاب قصة الكفاح بين العرب والاستعمار للأستاذين محمد سعيد العريان. وجمال الشيال.

قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ تحدياً صريحاً، ومعولاً هداماً لما تقوم عليه، يتكرر أثره كلما التقت العقيدتان أو اجتمع معتنقان لهما، ولقد شعرت الصليبية أن القوة الكامنة في الإسلام التي تدعوه إلى التوسع لا الدفاع هي التي ستبقى مهددة للوجود الباطل الذي لا يحترم العقل، ولا يؤمن بالمنطق، والذي يعتمد على إماتة التفكير في سبيل الإعتقاد بتراكب مثلثي لا يفهمه سامعوه فضلاً عن الداعين إليه. وأجالت الصليبية عينيها في تاريخ الاسلام فوجدت صورة منيرة ترعب الظلام وتشتته فلا يكاد المسلمون يفرغون من أنفسهم حتى يلتفتوا إلى غيرهم يدعونهم إلى الدعو الجديدة، يبشرون بينهم بعقيدتهم، ويسفهون عقائدهم وآراءهم. لذلك جندت قواها كلها للوقوف في وجه الدعوة الجديدة إن بالدس أو بالحرب أو بالتشكيك. وإن كل من يقول بأن الإسلام دعوة دفاعية إنما يخدم مخطط الصليبية العالمية التي تعرف حقيقة الإسلام فتحاول أن تنشر بين المسلمين فكرة الدفاع الخاطئة حتى تميت فكرة الحركية والتوسع في النفوس.

ونستطيع أن نقول إن المرحلة الحاسمة لوقوف الإسلام على قدميه كانت في يثرب، وإنه لولا حفظ الله للدعوة الجديدة وتربية الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه تربية قويمة كافية، والخصائص التي تكمن في الدعوة الإسلامية نفسها والتي كان يثيرها صلوات الله عليه لكان للدعوة وضع آخر. فمنذ الوهلة

الأولى صدمت الدعوة الجديدة الخلافات المتوارثة بين الأوس والخزرج، ثم وجود طبقة المنافقين التي لم تكن موجودة في مكة وذلك بفعل تأثير اخلاق اليهود، ثم وجود اليهود ومكائدهم ودسائسهم بالاضافة إلى تكتل العرب جميعاً المعاكس. ولكنها استطاعت أن تتغلب عليها جميعاً. وكان للحركية دورها فلقد دفعت المسلمين للعمل بجهد وكفاح وصبر وتعقل، فانبرى الأنصار يفتحون بيوتهم وصدورهم للمهاجرين، وأرسى صلوات الله عليه قواعد الأخوة وأسس المحبة بين الطرفين، ثم تكاتفت القوتان يداً واحدة تحطم كيد المنافقين.

وعندما حاول ابن سلول أن يغمز الوحدة، ويفرق الصف كانت الحركية المنبعثة من الأخوة الاسلامية السد المنيع في وجهه، والعامل الأقوى في توجيه الضربة الملائمة للأيدي التي تحاول تعكير الماء لتصطاد فيه. ومن ثم كان للقوة الموحدة الفضل الكبير في جلاء اليهود ودخول العرب في الإسلام والوقوف في وجه قريش والعرب حتى أصبح الدين في الجزيرة العربية واحداً.

ولما جاء حكم الخلفاء الراشدين تابع هؤلاء رضوان الله عليهم خطوات قائدهم في تطبيق الحركية في الدعوة الإسلامية فانطلقت الجيوش الإسلامية بقيادة أسامة بن زيد نحو بلاد الشام ثم توسعت فعمت بلاد الشام والعراق ومصر. ولم تتوقف هذه الحركية إلا فترة بسيطة وذلك في الخلاف الاجتهادي الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وأرضاهما. ولكنها سرعان ما عادت

إلى طبيعتها حين اندفعت نحو الشرق والغرب والشمال تحمل راية الإسلام مرفرفة خفاقة تقيم صرح الحق وتهدم بنيان الباطل. ولقد كان في انطلاق الدعوة نحو الغرب برهاناً قاطعاً ضد أولئك الذين يعرفون أن من خصائص هذه الدعوة القضاء على الشرك والكفر أينما وجد لتعم الأرض رسالة السماء.

ومرة أخرى توقفت الدعوة، واستكانت الحركية يوم انعكس الجهد المبذول إلى داخل المجتمع الاسلامي ليظهر في الصراع الأموي العباسي. ولم تعد الحركية للميدان إلا حين استتب الأمر للعباسيين فعادت راية الاسلام تتجه نحو الروم محاولة إخراجهم مما هم فيه من ضلال إلى نور الهدى. وكان اتجاهها هذا دليلاً آخر على حركية هذا الدين وعدم اقتناعه بالجمود، ورفضه الإيمان بالركود، وتميزه بالاندفاع الدائم المستمر في إيجابية وسلبية مشتركتين لتثبيت الدعوة الحقة وطمس معالم الدعوات الظالمة.

على أنه بعد حين بدأت هذه الحركية تخبو شيئاً فشيئاً ويتراكم عليها مع مرور الزمن غبار جهل المسلمين بها، وعدم التحسس بحقيقتها في الوقت الذي كانت اوروبا تتحسس بها بشكل متزايد. وفتح العالم الاسلامي عيونه على رايات غربية، ووجوه منكرة، تحاول أن تهدد وجوده، وارتفعت الأصوات تدعو للعودة الى الإسلام، وحمل راية الجهاد، والدفاع عن الحق.. وامتدت الأيدي تحاول نفض غبار الزمن عن هذه الحركية التي تدفع للوقوف في وجه الغاصب الدخيل.. وابتدأ بريق الحقيقة يلمع

أمام وجه صلاح الدين، ويدله على سر الخلاص في الرجوع إلى الإسلام ووحدة العالم الإسلامي. وكان لصلاح الدين ومن بعده شرف خلاص العالم الإسلامي من الشر المستطير.

ولم يسترح المسلمون، ولم يحاولوا تمثل حقيقة الحركية في دينهم تمثلاً كافياً حتى كانت اللطمة الجديدة على أيدي التتار تكاد تذهب بكل ما تعبت الأيدي الخيرة في إخراجه للحياة من حضارة ومدنية. وكان من المحتم على أي دعوة لا تحمل خصائص دعوة الإسلام أن تموت في مثل هذه الظروف القاسية ولكن الإنسان يجد عجباً حقاً يدفع العقول للذهول. ففي هذا الضعف المتناهي، وذلك الوهن العظيم، تندفع الحركية في الإسلام بثبات وجرأة لتغزو نفس تيمورلنك فتقلبه من مجوسي كافر إلى مسلم مؤمن ثم تدعوه الى تطبيق أحكام الاسلام على يد ابن تيمية، ولما تأبى نفسه تطبيق ذلك تعطيه الحركية درساً وافياً عندما يجتمع المسلمون يداً واحدة لقتال الفئة الباغية وهزيمتها ثم تطهر العالم الإسلامي من بقايا الصليبيين.

ومضى الزمن بطيئاً والحركية في الاسلام ترسي جذورها عميقة بعد الحروب العديدة التي خاضتها حتى شعرت أنها قد رسخت رسوخاً كافياً فإذا بها ترسم صورة مدهشة حقاً.

فمن كان يدري بعد هذه الصدمات العنيفة التي عاشها المسلمون أن ينقلبوا انقلاباً مفاجئاً من الدفاع إلى الهجوم فليملمون شتاتهم ويجمعون صفوفهم ثم يندفعون بعنف نحو

أوروبا من جديد فيفتحون القسطنطينية ويحققون قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقد سئل ايهما تفتح قبل قسطنطينة أم رومية فقال قسطنطينية ثم رومية ويصلون إلى فينا، ويحوزون نصف أوروبا تقريباً.

إننا لن نستطيع أن نجد لهذا الاندفاع المفاجيء تعليلاً إلا إذا قلنا بأن هذه الدعوة التي يعتنقها المسلمون تتمتع بخاصة لا تتمتع بها كثير من الحركات وهي الحركية والتوسع وعدم الجمود.

ومن استعراضنا السريع هذا لمراحل وتطور الدعوة الإسلامية لا بد لنا أن نحدد الخصائص التي تتصف بها هذه الحركية والنتائج التي تؤدي إليها. ويمكننا أن نلمح من هذه الخصائص ما يلي:

١ ـ الايجابية المستمرة: فالدعوة الإسلامية المتوسعة التي تنتقل من الجزء إلى الكل ومن الفرد إلى المجموع، ومن الأمة إلى الإنسانية تعتمد اعتماداً بيناً على الإعتقاد بوحدانية الله عز وجل وصحة الرسالة الإسلامية من جهة، وتريد صادقة جازمة أن يعتنق الناس مبادئها من جهة ثانية لأنها ترى فيها السبيل الوحيدة الصحيحة التي توصل الى سعادة الحياتين الدنيا والآخرة، وتقدم بذلك الحلول العملية للناس...

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾. (آل عمران : ٨٥).

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾.
(يوسف : ١٠٨).

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾. (المائدة : ٣).

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. (الأنعام : ١٥٣).

ولذلك فإن الدعوة الإسلامية لا يمكن أن تقف أبداً بل لا بد أن تتوسع سواء اتسم هذا التوسع بالسمة العسكرية أو السمةالفكرية، وسواء كان في الميدان الفردي أو الميدان الجماعي، ونستطيع أن نجد في إسلام أهل جاوة وما جاورها من البلاد المسماة حديثاً باندونيسيا مثالاً مؤيداً وموضحاً.

٢ ـ السلبية المستمرة: ومن دعوة التوحيد تتخذ الحركية من العقائد كلها سلبية مستمرة دائمة فلا تقبل قيام أي نظام أو كيان أو عقيدة أو دين بشكل مستقل قائم. فالأديان الأخرى ليس لها وجود حر بذاته في الكيان الإسلامي. وإنما هو توضع يعيش تحت الحماية الإسلامية، ويبقى تحت كنف المجتمع الإسلامي وليس معنى هذا أن الإسلام يمنع أصحاب الأديان الأخرى من التمسك بأديانهم فالله عز وجل يقول: ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[1]. وبمعنى آخر فإن الحركية في الإسلام تتخذ موقفاً معرضاً عن جميع العقائد والأديان الأخرى فلا تقبل الامتزاج والتداخل. ولقد جاء المشركون الى الرسول ﷺ يطلبون منه التداخل فيما بين دينه وأديانهم فقالوا له: إنهم يعبدون إلهه يوماً وهو يعبد آلهتهم

---

(١) البقرة : ٢٥٦

يوماً فأنزل الله تعالى سورة الكافرين رداً على ذلك وجعلها الرسول ﷺ لمن يقرؤها صباحاً ومساء حافظاً من الكفر. ولكن الإسلام يقر التعامل الدنيوي السمح الذي لا يتناول باب العقائد أبداً والذي لا يقوم على الكيد والمعادة فيقول تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾ (الممتحنة : ٨).

ونحب أن نلحظ أن الإيجابية صورة مقابلة تماماً للسلبية، والعكس بالعكس، إذ أن الإتصال بين النقطتين لا يمكن ان ينفصم فعندما تقول لإنسان ما اصدق فمعنى كلامك أنك تقول له: لا تكذب. ولذلك لا يمكن تصور إيجابية مطلقة دون أن تعير التفاتاً ولو ضمنياً للسلبية وعلى هذا يخطىء كثير من الدعة عندما يقولون كن إيجابياً ولا تكن سلبياً واعمل دون أن تتعرض لعمل الآخرين. ولو كان الإنسان يعيش في قوقعة لهان عليه الأمر، أما وأنه يعيش مع أناس آخرين ويتفاعل معهم فكيف يستطيع أن يعمل دون أن ينتبه لما يصنعون، ودون ان يحدد موقفه منه على ضوء عقيدته وأفكاره. إن الاكتفاء بفكرة الايجابية قد تصلح لزمن ما كوسيلة يتقاضى بها الإنسان خوف مفسدة أبرعن مفساد صغيرة، ولكن الاستمرار بها انحراف عن حقائق الأشياء « وابتعاد عن فهم طبائع الأمور، وتخدير مقصود للسكوت عن عقبات قد تقف في وجه الدعوة الإسلامية وتمنعها من تحقيق حركيتها في المجتمعات البشرية.

٣ ـ السلام الأبدي:

وتمتاز الحركية بأنها تهدف إلى إقرار السلام العام الأبدي للبشرية فهي ترى في النظم والعقائد القائمة انحرافات مستمرة عن القصد الصحيح والمنهج الحق. وترى ان وراء هذه العقائد والأنظمة طواغيت للكفر والضلال ينتفعون منها ويتركون هذه البشرية المعذبة ترزح تحت نير الضلالات المتابعة دون ان يسمحوا لها ان ترى النور. وكلما حاولت الإنسانية ان تتزحزح من تحت السياط المسلطة عليها، سعّر عليها هؤلاء الطواغيت حروباً مصطنعة، وويلات هائلة تشغلها عما تسعى إليه وتهدف له. ولذا فان الحركية في الإسلام تأبى أن يكون للبشرية عقيدة أو نظام وضعي للأخطار التي تحصل منه، وترى في هذه الأخطار تهديداً لسلامة الدعوة الإسلامية. فهي تسعى مخلصة لإقرار نظام كامل لم تصنعه عقول الناقصين ولا احلام المغرضين، وإنما فرضته حكمة الله الذي لا يخطىء ولا يضل ليحقق للبشرية الهناءة والسعادة، ويضمن لها الحرية والمساواة، ويوصلها إلى السلام الدائم المستمر الذي لا حروب تعكره ولا منازعات تكدر صفوه ومن يتأمل شمول الدعوة الإسلامية الذي يعم البشرية كلها من أبيضها الى أسودها ومن عظيمها الى حقيرها ومن كبيرها الى صغيرها ومن عربيها الى أعجميها يعلم أنها لا تخص قسماً من البشرية دون قسم وإنما تسعى للانسانية جمعاء وتناديها « ادخلوا في السلم كافة » فإذا تحقق للبشرية سيادة دين واحد ونظام واحد، وأفكار واحدة لم يعد

هناك مجال للمصالح الخاصة، والاختلاف الفكري المبني على الهوى والعاطفة، وبالتالي قضي على الجشع والاستغلال اللذين هما من أهم أسباب الحروب التي تعاني منها البشرية اليوم ما تعاني.

وجدير بنا بعد هذا أن نبحث في النتيجة اللازمة لتحقق الحركية في المجتمع الإسلامي فإذا عدنا إلى ما أوردناه آنفاً نرى ان تحقق الحركية في نفس من النفوس يحتم عليها أن تجعل كل اعمالها مهما دقت أو عظمت تسير على نهج الإسلام وأن تحقق الحركية في فرد من الافراد تدفعه وتحتم عليه ان يسعى لإصلاح مجتمعه ودعوة هذا المجتمع الى العقيدة الخالدة، والنظام الدائم، وأن تحقق الحركية في مجتمع من المجتمعات او فئة من الفئات تحتم عليه ان يعمل بكل جهده لنشر عقيدته في المجتمعات الأخرى وليس هناك اي خيار لأي نوع من هذه الانواع ان يلتزم ما تدعوه إليه هذه الحركية بل إن هذه الحركية تفرض عليه سلوك طريق الاسلام وتحتم عليه اتباع منهجه. ولذا نستطيع ان نقول إن الحركية الاسلامية تنتج بشكل مباشر ما يمكن ان ندعوه بالحتمية ونقصد بها الجبرية التي تفرضها دعوة الاسلام على معتنقيها في سبيل تنفيذ تعاليمها وهذه الحتمية كما تبدو لنا تطورية تتوسع مع توسع الحركية من المركز إلى الجوانب أي إن المؤمن بكلمة لا إله إلا الله يحتم عليه هذا الإيمان ان يجعل اعماله كلها منسجمة مع تحقيق معنى هذه الكلمة. كما تتوسع من الفرد إلى المجتمع فإيمان الفرد يحتم عليه ان يعمل لطبع

مجتمعه بطابع الاسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي تتوسع ايضاً من المجتمع إلى الانسانية حتى تسود شريعة السماء ويكون الدين كله لله.

والحتمي هذه تتمتع بخصائص لا تقل أهمية عن خصائص الحركية. وأهم ما فيها أنها ترسم الطريق الصحيحة للدعاة المسلمين اليوم. فالأمة الاسلامية لا تحمل من الاسلام إلا قشوراً وظلالاً ولا تعرف من دعوته إلا شعارات ترددها أما التفكير السائد والنظم المسيطرة، والروح المتولية فهي بعيدة عن الاسلام كل البعد، وكل محاولة لإصلاح المجتمع من قمته عن طريق جهاز الدولة فهي محاولة ضائعة هباء لأن النفوس ليست مستعدة لتقبل دعوة الاسلام ولا السير عليه. ولو أوتي المسلمون السلطة اليوم في أي بلد من بلدان الاسلام لفشلوا في تحقيق حكم الاسلام، واصلاح الأوضاع الإجتماعية والسياسية والفكرية والخلقية والاقتصادية ولما استطاعوا أن يحكموا يوماً واحداً. وذلك لانعدام النفوس الاسلامية المشبعة بالاسلام روحاً وحقيقة، والمتطلعة إليه منجاة ومنقذاً، والمتلهفة نحوه ومخلصاً لها مما هي فيه من أدران المادية وأقذارها، وقلاقلها واضطراباتها. ومنطق الحركية يدعونا أن نعمد أولاً إلى إصلاح النفوس والقلوب وأن نفرغها من حب غير الله، وأن نغرس فيها كلمة لا إله إلا الله والاقبال على الآخرة والإحتقار لملاذ الدنيا، والاعتقاد بأن النجاة في هذا الدين العظيم، والسعادة في تطبيق أحكامه. والسلام في سيطرة نظمه، وأنه لا

إنقاذ للبشرية المعذبة والإنسانية المنهارة إلا به ، فاذا صنعنا هذا فان الحتمية الناتجة عن الحركية تحتم على هذا الفرد أن يسعى لإصلاح نفسه ، واستكمال كمال جوارحه ، وإلى أن يصبح مسلماً حقاً يتمثل الاسلام ويعيش به ، ويجعله مثالاً حياً ينطق ويفكر، ويعمل وتجد أمام أنظار الآخرين ، وتجاه المتشككين المترددين . والحتمية هذه هي التي تفرض عليه أن يندفع لإصلاح مجتمعه وإزالة العقبات التي تقف في وجه انتشار دعوة الاسلام، ووصولها إلى كل قلب، واحتلالها كل جارحة ، وهي التي تحتم عليه أن يحيا للاسلام وأن يموت للاسلام، فهو يفكر إذا فكر بالإسلام، ويتكلم إذا تكلم بالإسلام، ويناقش إذا ناقش بالإسلام، ويعمل إذا عمل بالاسلام، ويهدي إذا هدى بالإسلام، لا يخرج عنه ، ولا يتركه حتى يحقق سيطرته على أغلب أفراد المجتمع . وحينذاك ويوم أن تصبح النفوس مجبولة على هذا الدين ، ممتزجة بمفاهيمه ، متعلقة بنظمه ، متشوقه إلى استكمال قواعده. فإننا نجد حتماً وبلا تردد أو تشكك إن هؤلاء سيتحركون دون أن يكون لهم الخيار، لأن الحركية هي التي تدفعهم ، والحتمية هي التي تجبرهم ، سيتحركون للانقضاض على بقية أجزاء المجتمع المنافرة لحكم الاسلام وشريعته فيحولها إلى ما يرضي الله عز وجل ثم يتطلعون إلى الدولة والحكومة ويرون فيها تمثيلاً غير صحيح لما يحملون من آراء ومبادىء ومفاهيم ، فيلحقون الباقي بالسابق وتسطع على الأمة شمس الحقيقة الأبدية الخالدية : الحكم لله وحده وليس لفرد من

الأفراد أو مجموعة من المجموعات، إنما هو الشرع ينطق فيستجاب له، ويأمر فيطاع بملء الرضا وكامل الإندفاع، لأن النفوس قد جبلت على ذلك وتهيأت له.

وبناء على ما سبق فإننا نرى أن الطريق السليمة للدعوة الإسلامية هي الإلتفات الحق الأكيد لتربية النفوس تربية اسلامية صحيحة، واصلاح ما فسد من القلوب، وبذر بذرة الايمان المتين، وتنشئة رجال يحاكون أبا بكر وبلالاً وعماراً ومصعباً وأبا ذر.. الخ، يكون الاسلام كل حياتهم، حتى إذا ما مرت الدعوة الاسلامية بمحنة من المحن، أو ابتلاء من الله، صمد هؤلاء وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلم يتراجعوا ولم يتنصلوا، ولم يبالوا بالأخطار التي تحيق بهم ولا بالعقبات التي تقف في وجوههم. ولا بد في كل هذا من الصبر المرير، والجهد الكبير، والكفاح الدائم، والانتظار الطويل، فإن إنهيار الأمة الاسلامية لم يحصل في سنة أو سنتين ولكنها القرون العديدة مرت على هذه الأمة فأنستها حقيقة دينها، وسلبتها أسباب عزتها ورفعتها، وما أسهل وأبسط ما ينحدر الماء. وما أصعب وأقسى نقل الماء من مكان منخفض إلى مكان عالٍ.

أما أولئك الذين لا يرون أن البناء يجب أن يكون من الفرد إلى المجموع، ومن المجتمع إلى الأمة ومن الأمة إلى الانسانية، ويرون أن الإصلاح يكون بترقيع ما خلق واهترأ من أنظمة الكفر، فأنهم يضيعون قواهم في اصلاح ما لا يمكن اصلاحه، وفي الابقاء

على بناء لا يمكن أبداً أن يقوم على أسس بناء الاسلام، فضلاً عن كون عملهم هذا عاجزاً عن اصلاح هذه الأمة كلها. ويكون شأنهم شأن من يحاول البناء فيبدأ من السقف ويتجه نحو القواعد، وما كان لبناء أن يقوم على هذا الشكل إلا بناء العنكبوت وهلى ترى بيتاً أوهن من بيوت العنكبوت.

على أنه يجب على المسلمين الذين يرون أن البناء من القاعدة وليس من قمة الهرم ألا يحاولوا إجبار الآخرين المخالفين لهم، فلربما اجتهد أولئك فيما يعملون، وليس لهم أن يتهموهم فيما يصنعون، فالإخلاص هو رائد الجميع ولكن عليهم أن يبينوا السبيل، وأن يظهروا رأيهم، ولعل عمل من يعمل من قمة الهرم أن يكون دريئة وترساً تمنع عن العاملين في قاعدة الهرم الأذى وترفع عنهم المضار، وتذهب من طريقهم العقبات التي توقف سيرهم فاذا ما صلح المجتمع وقامت الدولة الاسلامية، ونشأ الحكم الاسلامي، فرضت الحركية على الأمة المسلمة والدولة المسلمة أن تتحرك لهداية الأمم الأخرى، والأقوام الضالين، وما كان لهذه الأمة الخيار بل هو حتم عليها وفرض لازب، تندفع بسببه إلى نشر دين الله على الأرض كلها حتى يعم السلام وتتحقق المحبة بين ولد آدم كافة.

ونحب أن نشير أخيراً إلى أن الحتمية التي تفرضها دعوة الاسلام ضمان لاستمرار الحركية، وسبيل لامتدادها، وعامل مؤيد لها، فكل معتنق للدعوة الاسلامية عليه أن يساهم بما يقدر عليه من

جهـد ومـال وقـول، في سبيل سيادة الاسـلام على الانسـانية والأرض، وانتشار دعوة الاسلام على المعمـورة، وعليه أن يسعى لذلك قدر طاقته وما دام الأفراد عالمين بما هو محتوم عليهم، فإنهم يعملـون على تطبيقـه فيكون ذلك غذاء كامـلاً مستمـراً لدعـوة الاسلام حتى لا تجمـد، ولـكي تتحـرك فتعـم الأرض بالسـلام ويكون الدين كله لله. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

طبيعة المجتمع الإسلامي

للأستاذ سيّد قطب

١٥ المحرم ١٣٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

طبيعة المجتمع الإسلامي

ما الـذي يعنيه اصطـلاح « المجتمـع الاسلامـي » هل لهـذا المجتمع طابع معين؟ وهل يتدرج هذا الطابع او يتفق مع شيء من النظم الاجتماعية الأخرى التي عرفتها البشرية؟ إن هذا البحث كله هو الاجابة المفصلة على هذا السؤال ولكني أحب هنا أن أستعجل القول في إجمـال، لتقـرير بعض الحقائـق الأسـاسية عن طبيعـة المجتمع الاسلامي، وتجلية بعض الشبهات التـي تعـرض حتـى لبعض الدعاة الاسلاميين، ودحض بعض المفتريات التي يشيعها أعداء الفـكرة الاسـلامية، أو الجاهلـون الـذين لا يعرفـون عن الاسلام غير القشور، لقد عرف المجتمع الغربي ألواناً شتى من النظم، عرف نظام الرق، ونظام الإقطـاع، والنظـام الـرأسمالي، والنظام الاشتراكي، والنظـام الشيوعـي(على الاقـل من النـاحية الفلسفية، التي لـم يتم تحقيقها في واقع الحياة).

فأي واحد من هذه النظم هو النظام الاسلامي؟

إنـه ليس واحـداً منهـا بكل تأكيد، وليس كذلك خليطـاً من بعضها، مهما يقع من التشابه أحياناً بين بعض أوضاعه، وبعض

أوضاع نظام أو أكثر من تلك النظم التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

والعلة الرئيسية في تفرد المجتمع الاسلامي بنظامه الخاص هي أنه مجتمع من صنع شريعة خاصة جاءت من لدن إله فهذه الشريعة التي وجدت كاملة منذ نشأتها غير متدرجة تدريجاً. هذه الشريعة التي أوجدت هذا المجتمع وأقامته على أسسه التي أراد الله لعباده، لا التي أرادها بعض هؤلاء العباد لبعض، وفي ظل هذه الشريعة تم نمو الجماعة الإسلامية ووجدت ارتباطات العمل والانتاج والحكم، وقواعد الآداب الفردية والاجتماعية. ومبادىء السلوك. وقوانين التعامل وسائر مقومات المجتمع الخاصة، التي تحدد وترسم له طريق النمو والتطور.

ذلك على الضد من كل النظم الاجتماعية التي عرفتها أوروبا، والتي نشأت نشوءاً ذاتياً وفق مقتضيات أرضية، وثمرة للصراع الداخلي بين الطبقات وللاحتكاك الطبيعي بين علاقات الانتاج القائمة وطرق الانتاج المتجددة، وللمصالح المتعارضة بين التكتلات المتنوعة داخل جسم الجماعة البشرية.. مما يؤثر في طبيعة القوانين وشكل الحكومات والافكار الاجتماعية والاخلاقية السائدة الخ..

ومن ثم كانت جميع الاحكام والقوانين التي تنطبق على نشأة النظم الاجتماعية الغربية وتطورها غير منطبقة على المجتمع الاسلامي؟ لاختلاف نشأته عن نشأة تلك النظم ولاختلاف

القاعدة التي ترتكن عليها نشأته، ولاختلاف القانون الذي يحكم نموه وتطوره.

(إنه ليس المجتمع الاسلامي هو الذي صنع الشريعة، إنما الشريعة هي التي صنعت المجتمع الاسلامي) هي التي حددت له سماته ومقوماته وهي التي وجهته وطورته. ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة ـ كما هو الشأن في التشريعات الارضية ـ إنما كانت منهاجاً إلهياً لتطوير البشرية كلها وصياغتها صياغة معينة، ودفعها الى اوضاع معينة يتم بها تحقيق المجتمع الاسلامي المنشود. وكلما انقضى الزمن وارتفعت درجة المعرفة البشرية كانت أقرب الى تحقيق ذلك المجتمع المنشود. . وهذه السمة ذات أثر حاسم في تحديد طبيعة المجتمع الاسلامي، وتمييزه عن جميع المجتمعات التي تنال حياتها يوماً بعد يوم.

إن مهمة التشريع في المجتمع الاسلامي ـ والتشريع هو المظهر البارز لتطور المجتمع لأنه تلبية مستمرة لهذا التطور ـ كانت دائماً محكومة بأصل ثابت هو الشريعة الاسلامية كما بينا فيما سبق ـ ومع أن الفقه الاسلامي كان تلبية مستمرة لبروز الحاجات في المجتمع وتجدد الارتباطات إلا أن نمو الفقه لم يكن طليقاً، لأنه كان دائماً مشدوداً الى ذلك الأصل الثابت، محافظاً على المبادىء الاساسية. والسمات الأولية التي أراد الله لها الدوام في المجتمع الاسلامي.

بذلك تقوم الشريعة دائماً مقام السياج الواقي، الذي يسمح للمجتمع الاسلامي بالنمو والتجدد، ولكن داخل هذا السياج،

ووفق مقومات أصيلة ثابتة. وبذلك يظل الطابع الأصيل للمجتمع الاسلامي واضحاً مميزاً. بينما المجتمعات الغربية كان في وسعها دائماً أن تنمو وفق المؤثرات الواقعية، غير مقيدة بأصل ثابت، لأن المسيحية لم تكن يوماً ما نظاماً اجتماعياً، وذلك لخلوها من الشريعة التي تتولى تنظيم المجتمع وفق نظرية محددة. هذه هي القاعدة على وجه الاجمال. فإذا دل التتبع التاريخي للمجتمع الاسلامي على أن هذا المجتمع كان ينحرف أحياناً هنا وهناك عن قاعدته الاساسية التي وضعتها له الشريعة الاسلامية، متأثراً بمبادىء غريبة عليه أو منساقا مع التطورات البشرية في بعض رقاع الأرض، أو بسبب مؤثرات محلية في بعض الأقاليم التي انضمت اليه.. فإن هذا كله لا يجوز ان ينسينا أن تلك القاعدة الأساسية ظلت من القوة بحيث تشد اليها المجتمع الاسلامي شداً قوياً، وتطبعه بطابع خاص وتحدد طريقة نموه وتطوره، وتجعل لهذا النمو والتطور تاريخاً خاصاً، لا يندرج تحت تاريخ التطور الاجتماعي في أوروبا، ولا تصدق عليه القوانين الاجتماعية التي تصدق هناك.. ومثل هذه الظاهرة ستظل ثابتة - لأن المستقبل لا يمكن فصله عن الماضي - فليس هناك ما يحتم أن يسلك المجتمع الاسلامي أي طريق تكون المجتمعات الغربية قد سلكته، لأن سياج الشريعة الاسلامية سيظل يحرس هذا المجتمع، مهما تكن عوامل المقاومة، فإن أربعة عشر قرناً من الزمن كان لا يمكن محوها من تاريخ مجتمع، ولا من ضمير أمة ولا من واقع حياة.

وبقي أن يسأل سائل : هل من الخير أن يظل نمو مجتمع من المجتمعات وتطوره مشدوداً إلى اصل ثابت، على حين تتجدد حاجات الحياة وتتنوع، وتختلف علاقات الانتاج وتحتاج الى مبادىء جديدة وشرائع جديدة، تلبي ذلك التجدد وتماشي هذا الاختلاف؟

والاجابة على هذا السؤال تقتضي معرفة طبيعة ذلك الاصل الثابت ومدى شموله لأصول الحياة الكبرى، كما تقتضي موازنات موضوعية بين مبادىء ذلك الأصل الثابت التي أنشأت المجتمع الاسلامي، وحددت له طرق النمو والتجدد، والمبادىء الأخرى التي عرفتها البشرية حتى اليوم فاذا اتضح أن مبادىء الاسلام موضوعة في أصلها للاستمرار والتجدد وأنها ما تزال أفضل، وما تزال أسبق وما تزال سائر النظم التي عرفتها البشرية متخلفة عنها أو ناقصة. . فالثبات لا يكون عندئذ عيباً إنما يكون ميزة لأنه يصبح ضمانه للارتفاع المستمر والتقدم المستمر، وعدم الانتكاس والتردي مع الاهواء والنزوات والانحرافات. ولا عبرة بأن يكون القانون قد شرع اليوم أو قبل مائة عام إذا كان ما يزال سابقاً لخطو الجماعة التي تتعامل به، وملبياً لحاجاتها الحاضرة في يسر.

وهذه الموازنات الموضوعية بين النظام الاجتماعي الاسلامي وسائر النظم الاجتماعية الاخرى هي الطريقة الجدية الوحيدة. التي تستحق الاحترام، والتي تتفق مع المنطق العلمي ـ أما رفض ذلك النظام لمجرد أنه وضع ـ أول ما وضع قبل أربعة عشر قرناً دون نظرة

موضوعية فيه، ودون موازنة موضوعية بينه وبين سواه فذلك تصرف لا يستحق الاحترام العقلي! ولا يركن اليه رجل يحترم عقله، ويتكلم بغير طريقة الببغاوات! والذي يأخذ بموازنة موضوعية بين نظام المجتمع الاسلامي وسائر النظم الاجتماعية الاخرى يجد في يسر أن ذلك الاصل الثابت أشد مرونة واكثر طواعية، وأكبر استعداداً لتلبية التطور الجديد في حياة البشرية من كل النظم الجديدة التي تسمى « تقدمية » وهي حين تقاس الى مبادىء الاسلام تبدو متخلفة في عمومها، كما يبدو فيها التناقض والنقص والتعسف بالقياس الى تلك الشريعة المرنة الشاملة، الملبية للفطرة في غير تعسف، والسابقة لخطو البشرية حتى هذه الايام. . ومن ثم يسهل أن يقال إنه من الخير قطعاً ان يكون للتطور الاجتماعي أصل ثابت يفيء اليه، ما دام هذا الأصل الثابت لا يعوق النمو، ولا يتعسف تصريف الامور.

أما هذه الموازنات ذاتها فسأعرض لشيء منها في مناسباتها المتفرقة في فصول هذا البحث، وإن كان حسبي أن أعرض مقومات المجتمع الاسلامي، لتكون حاضرة للموازنة بينها وبين مقومات أي مجتمع آخر. فمقومات المجتمع الاسلامي هي المجهولة لدى الكثرة الضخمة ممن يسمحون لانفسهم ان يجهلوها ثم يدعوا انهم مثقفون بل يسمحون لانفسهم ـ دون معرفة ـ ان يحكموا بين شيء يعرفونه وشيء يجهلونه وهم يدعون البحث العلمي إن الشريعة الاسلامية الثابتة لترتكز إلى عدة خصائص هي

التي كفلت لها انشاء مجتمع قابل للنمو والتجدد ولأن يكون دائماً قديراً على تحقيق مطالب البشرية المتجددة هذه الخصائص :

١ ـ أنها ـ وهي من صنع إله يعرف طبيعة خلقه ـ قد جاءت وفقاً للمقومات البشرية المشتركة العامة : أي وفقاً لأصول الفطرة البشرية، تلك الفطرة الثابتة التي لا تزول ولا تنمحي ولكنها تتحور وتنمو وتتشكل مع بقاء أصلها الثابت الذي منه تنمو. .

٢ ـ أنها جاءت في صورة مبادىء كلية عامة، تقبل التفريغ والتطبيق في الجزئيات المتجددة والاحوال المتغيرة دون أن نفارق في أصولها الاولى ودون أن تصنع حلولاً جدية لمشكلات هي بطبيعتها متجددة. . وقد فصلنا القول في هذا عند الكلام عن الفقه والشريعة في المقال الماضي.

٣ ـ إن هذه المبادىء الكلية العامة جاءت شاملة لكل اصول الحياة الانسانية وجوانبها جميعاً. فتناولت حياة الفرد وارتباطات الجماعة. وأسس الدولة، والعلاقات الدولية كما تناولت حياة الانسان في كل مجالات النشاط. ووضعت لها التشريعات التي تنظمها جنائياً ومدنياً وتجارياً واجتماعياً وسياسياً. فلم تترك جانباً واحداً منها دون تنظيم عن طريف القانون وما تزال النظريات التي تضمنتها في هذه النواحي سابقة لكل ما وصلت اليه النظريات التشريعية الارضية.

٤ ـ أن المبادىء الاجتماعية التي قامت على أساسها جاءت تقدمية ـ وما تزال كذلك ـ فاندفعت بالبشرية الى الامام وما تزال

قادرة على اعادة هذا الدور، لأنها بالقياس الى الاوضاع الاجتماعية السائدة والى النظريات الاجتماعية السائدة كذلك ما تزال سابقة ومتفوقة .

وحين تعرض مقومات المجتمع الاسلامي بالتفصيل سيتبين الناس صدق هذا الذي نقول أما الآن فاكتفي بعرض خفيف لخصائص النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية في أوروبا نتبين على ضوئها أن النظام الاسلامي نظام متفرد بينها ليس واحداً منها، وليس خلطياً من بعضها، وأنه لم ينم نموها، ولم يسلك طريقها، ولا ينطبق تاريخها على تاريخه ولا نشأتها على نشأته ولا تساير أصولها أصوله. وإن وقع بعض التشابه بين بعض مظاهرها وبعض مظاهره عن طريق العرض والاتفاق :

إن الدراسات الاجتماعية الغربية تقول ـ متأثرة في هذا بالتاريخ الأوروبي وحده لا التاريخ الانساني ـ إن البشرية قد مرت في اطوار متتابعة هي الشيوعية الأولى. فالرق. فالاقطاع. فالرأسمالية. فالاشتراكية في طريقها الى الشيوعية أما الشيوعية الأولى، فهي مجرد فرض لا دليل عليه يطمأن إليه. فرض يقوم على تصور مرحلة في تاريخ الانسان خرج فيها من حالة الحيوانية، وعاش أفراد الجماعة عيشة شيوعية كاملة. يشتركون فيها في الملكية العامة، وفي الجهد الذي يبذلونه جماعة وفي التمتع بثمرة هذا الجهد المشترك. واستمرت مدة اعتماد الانسان في معاشه على وسيلة

الصيد. ثم انتهت عندما عرف الزراعة واستئناس الحيوان ورعي الماشية التي أخذت قطعانها تتزايد وتحتاج الى من يرعاها وهنا عدلت القبائل عن تقاليدها في قتل الأسرى واستخدمتهم رقيقاً لرعي الماشية وحلبها. . وبذلك ظهر عهد الرق التالي وعهد الرق هو العهد التاريخي الذي نملك وسائل إثباته التاريخية. أما الشيوعية الاولى فهي مجرد فرض لا ترتقي للأدلة عليه إلى درجات الإثبات العلمي وفي وقت من الأوقات كان سكان الامبراطورية الرومانية يتكونون من طبقتين طبقة الأحرار وتضم حوالي ربع السكان، وطبقة العبيد وتؤلف نحو ثلاث ارباع تلك الامبراطورية. وكانوا يعاملون معاملة طابعها القسوة : فهم يعملون نهاراً في الاقطاعيات. فاذا جن الليل كبلوا بالسلاسل، وألقي بهم في الكهوف التي يقضون فيها الليل ويقوم عليهم حراس آشداء غلاظ القلوب. وكانت العقوبات التي توقع عليهم تتراوح بين الجلد والصلب. وهذا خلاف استخدامهم كوسيلة لتسلية السادة الأحرار وذلك باقامة المبارزات الوحشية أو بحملهم على مقاتلة الأسود. وكان ذلك كله يجري في حفلات يقبل عليها الأحرار في شغف.

ثم زال عهد الرق تدريجياً وحل محله نظام الاقطاع بعد ما تعددت ثورات العبيد على سوء المعاملة وقل انتاجهم في الحقول.

« ونظام الاقطاع عبارة عن اسلوب من الانتاج : الصفة المميزة له هي التبعية الدائمة ويعرفونه بانه نظام في ظله يلتزم المنتج المباشر

نحو سيده أو مولاه بأداء مطالب اقتصادية معينة. سواء أكانت تلك المطالب تؤدى على هيئة خدمات يقوم بها أم على شكل مدفوعات (أو استحقاقات) يؤديها نقداً أو عيناً. ولتوضيح ذلك نقول : أن المجتمع الاقطاعي كان ينقسم الى طبقتين : الاولى وتشمل ملاك الأبعاديات الاقطاعية، والثانية وتتكون من المزارعين على اختلاف مراتبهم. فمنهم الفلاحون والعمال الزراعيون والعبيد. وإن كان عدد الأخيرين ظل يتناقص باطّراد وبسرعة فهؤلاء الفلاحون - أي المنتجون المباشرون - لهم الحق في حيازة مساحة من الأرض يعتمدون عليها بوسائلهم في كسب معاشهم، وانتاج ما يلزمهم من أسباب العيش كما يمارسون في بيوتهم الصناعات البسيطة التي تتصل بالزراعة، ولكنهم مقابل ذلك يلتزمون بأمور عدة مثل الخدمة الاسبوعية في أرض الشريف مع آلاتهم وماشيتهم والخدمة الاضافية في مواسم الزراعية، وتقديم الهدايا في الاعياد والمناسبات الخاصة. وعليهم كذلك أن يطحنوا غلالهم في المطاحن التي يقيمها الشريف وأن يعصروا كرومهم في معصرته، وكان الشريف يمارس أمور الحكم والقضاء : أي انه يشرف على تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية بالنسبة الى أهل منطقته كما أن المفروض فيه أنه مسؤول عن حماية هؤلاء الفلاحين، ودفع العدوان عنهم ومن هنا نجد أنفسنا أمام تبادل في الالتزامات ».

خليط من نظام الرق ونظام الاقطاع كان يسود الدولة الرومانية عندما أشرق فجر الاسلام أما الجزيرة العربية التي شهدت مولده،

فقد كان خليطمن نظام البداوة الاولى ونظام الرق هو السائد فيها، ولم تكن قد عرفت بعد شيئاً من نظام الاقطاع كما أنها لم تعرفه من بعد، بسبب وجود الاسلام.

وفي مثل هذا الجو وجدت المبادىء التي لم تتغير إلى هذه اللحظة، والتي ما تزال في عمومها سابقة على آخر ما عرفته البشرية من افكار ومذاهب اجتماعية في العصر الحديث.. وهذه وحدها شهادة قاطعة على أن النظام الاجتماعي الاسلامي هو من صنع نفسه بإشراف الشريعة الالهية التي أوجدته وطورته، لا من صنع العوامل التاريخية والاقتصادية كما هو الشأن في النظم التي عرفتها أوروبا، والتي يتحدث عنها الماركسيون كما لو كانت نظماً عالمية، ويعطونها صفة الجبر التي لا فكاك منها! إنه ليس من الطبيعي - اذا صحت نظرية المادية الجدلية وفكرة الجبرية الاقتصادية - أن تولد شريعة في عهد الرق أو في عهد الاقطاع، فتتضمن مبادىء لا تقف عند نظام الرق ولا عند نظام الاقطاع ولكن تتخطاها معاً، فيوجد فيها مشابه من النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي والنظام الشيوعي - وكلها نظم لم تكن في الحسبان يومذاك - كما توجد فيها مبادىء أخرى مستقلة عن تلك النظم كلها، ما تزال البشرية تتطلع الى تحقيقها وتطبيقها في مستقبلها.

وما كان في وسع شريعة بشرية تولد في عهد الرق أو في عهد الاقطاع، أن تتضمن ما تضمنته الشريعة الاسلامية من ناحية المستقبل البشري بدليل أن جميع الشرائع والنظم الاجتماعية

والمبادىء القانونية التي كانت سائدة في ذلك التاريخ قد انتهى أمرها ولم تعد صالحة للحياة في العصور الحديثة ، ولا ملبية لحاجات البشرية الجديدة، بينما المبادىء الاسلامية وحدها هي التي تستمتع بهذه المعاملة الخاصة، لا للحاضر وحده، ولكن للمستقبل كذلك، لأن الكثير منها ما يزال سابقاً للنظم الوضعية القائمة. . وبذلك تسقط نهائياً حكاية الجبرية الاقتصادية وحكاية التطور التاريخي للنظم الاجتماعية على الترتيب الذي تفرضه الماركسية! . .

لقد جاء الاسلام فوجد جذور عهد الرق ما تزال ثابتة وعميقة، فابتدأ بالبشرية من هذا السفح ليأخذ بيدها الى آفاق الانسانية العالية التي تهدف اليها مبادئه الكريمة. ولكنه ـ وهو دين الفطرة لم يكن ليقفز بها قفزاً. والمهم أن نثبت ان مبادئه العليا التي تسبق اليوم آخر ما وصلت إليه البشرية في أربعة عشر قرناً كانت قائمة فيه منذ اليوم الأول. وأنه منذ ذلك اليوم قد أخذ بيد البشرية في طريق الترقي الى الآفاق المرسومة خطوة خطوة فكان التطور، لا في مبادئه وأهدافه ولكن في قرب البشرية يوماً بعد يوم من هذه المبادىء والاهداف وهذا ما ينفي فكرة التطور التاريخي من أساسها بالقياس الى الفكرة الاسلامية والى نظام المجتمع الاسلامي.

لقد بدأ الاسلام بالبشرية من حيث هي، ليربطها بعراه ربطاً واقعياً، ثم ليقودها بعد ذلك في مدارج الكمال جاء الرق نظام عالمي، واسترقاق أسرى الحرب عرف دولي وكان يملك أن يبطل

الرق في المجتمع الاسلامي بجرة قلم، كما أبطل الربا. ولكنه في هذه الحالة ـ ما كان ليزيد على أن يترك الأسرى من المسلمين يسترقون عند أعدائه بينما يحرر هو أسرى الأعداء عنده وذلك يطمع أعداء الاسلام بالمسلمين وهم يؤسرون للمسلمين فيتحررون. ويأسرون المسلمين فيتخذون منهم عبيداً وإماء حسب العرف الدولي السائد في ذلك الزمان! لهذه الضرورة الواقعية التي لم يكن يملك الاسلام في نشأته خلالها. لأنه لا يملك أن يجبر الآخرين على تحرير الأرقاء ولا على عدم استرقاق الاسرى. ولا يملك ان يجعل أسرى المسلمين للكافرين وحدهم أرقاء، بينما يحرر هو أسراه من الكافرين. . لهذه الضرورة الواقعية وضع الوسائل الكفيلة بتخفيف موارد الرق في المستقبل حتى يصبح من الممكن عقد معاهدات دولية تمنع استرقاق أسرى الحروب. ولم ينص هو على استرقاقهم كي يدع الأمر مفتوحاً. . بل أشار الى إطلاقهم فقال : ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾ [1] ولكنه ترك للدولة المسلمة حرية التصرف حسبما تقتضيه الاحوال.

ترك الاسلام الأمر على هذا الوضع من ناحية المبدأ ـ مراعاة لواقع البشرية كلها في ذلك الزمان ـ ثم راح يعالجه من ناحية الموضوع على طريقته التحريرية. واتجاهاته الانسانية. . وحينما كان العبيد في الدولة الرومانية بجانبه يلقون للوحوش الكاسرة يصارعونها للترويح عن صدور السادة وبينما كان من حق السيدان

---

(١) سورة محمد : ٤.

يمثل بعبيده كيف شاء وبينما كان القانـون الرومانـي يضـع مواداً لمعاملة السادة وموادًالمعاملة العبيد . . . بينما كان هذا يقع في العالم كله . وفي قلب الجزيرة العربية التي شهدت مولد الاسلام . كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو من ذؤابه قريش أشرف العرب يزوج ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد . وكان يولي أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الـروم وبين جنوده أبو بكر وعمر وزيرا رسول الله والخليفتـان بعـده ـ عليهما رضوان الله ـ وكان بلال بن رباح الحبشي هو داعي الدعاة الى الاسلام، وسلمان الفارسي هو مستشـاره الحربـي، وصـهيب الرومي من صحابته الذين يأذن لهم عمر بن الخطاب قبل أن يأذن لأبي سفيان . وكان الرسول ﷺ يقول : « من قتل عبده قتلنـاه ومن جدع عبده جدعناه » .

على هذا المنوال عالج الاسلام قضية الرق من ناحيتها العملية الى أن يجد لها حلاً عملياً من ناحيتها الدولية . وفي هذا الجانـب وحده كانت مراعاة الاسلام لواقع الأمر في البشرية يوم جاءهـا . ومنذ أن جاءها لم يعد لعهد الرق وجود في الوطن الاسلامي لأن معالـم هذا العهـد وخصائصـه كما ذكرناهـا قد بهتـت في الحياة الاجتماعية الواقعية بحكم تعاليم الاسـلام في معاملـة الأرقـاء ، الذين اضطر للامساك بهم فترة من الوقت حتى يتهيأ له عقد ميثاق دولي عام .

فأما عهد الاقطاع بمعالمه وخصائصه التي أسلفنا فلم يوجـد قط

في الوطن الاسلامي لأن الاسلام كان قد أخذ عليه الطريق. لقد وجدت ملكيات كبيرة أحياناً نتيجة للانحـراف عن سياسـة المال وسياسة الحكم كما رسمها الاسلام ولكن عهد الاقطاع بخصائصه تلك لم يوجد على الرغم من وجـود الملـكيات الكبـيرة في بعض الاحيان. فلم يقـع في المجتمـع الاسلامـي ان كانـت علاقـات الانتاج، ولا حقوق الملاك على النحو الذي سار عليه الاقطاع في اوروبا. وبذلك يمكن القول باطمئنان إن المجتمع الاسلامي لم يمر بهذا العهد منذ أن ولد الاسلام الى الآن كذلك الامر حين ننظر الى موقف الاسلام من عهد الرق. فمنذ سيطرة الاسلام لم يعد للرق خصائصه التي عرف بها في المجتمع الغربـي. وكل علاقـة الاسلام به أنه جاء فوجده قائماً. فأخذ في تخفيف موارده. بقصر أسباب الاسترقاق على الحرب الشرعية وحدها ـ وكان هذا يعالج الواقع كما أسلفنا ـ كما أخذ في تفتيت مقوماته الاقتصادية بتقرير مبدأ التكافـل الاجتماعـي (الـذي سنفصـل فيه القـول فيما بعـد) ومقوماته القانونية بالتسوية بين جميع الناس في الحقوق ومقوماتـه الاجتماعية بإزالة الحواجز بين السادة والعبيد.. بل بتسوية الموالي وتوليتهم القيادة. لذلك كله يمكن القول باطمئنان : إن المجتمع الاسلامي لم يعرف عهد الرق ولا عهد الاقطـاع، ولـم يعتـرف بخصائصها التقليدية في أية فترة من فترات التاريخ ولم يكونا أحد الأطوار التاريخية التي مر بهـا المجتمـع الاسلامـي ولقـد عرفـت المجتمعات الأوروبية ـ بعد نظام الاقطاع ـ نظاماً جديداً هو النظام

الرأسمالي عرفت عهود تاريخية متأخرة . إذ بدأت بذوره مع الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي أي بعد ما أطلعت اوروبا على النظم الاجتماعية الاسلامية وتأثرت بها فكرهت نظام الاقطاع الذي كان سائداً فيها . وهذا السبب يفضله أصحاب النظريات المادية لأنهم لا يريدون أن يدخلوا العنصر الانساني في خط سير التطور التاريخي ويكتفون بإبراز الاسباب الاقتصادية التي صاحبت الحروب الصليبية ونشأة المدن التجارية في جنوب اوروبا.

واتباعاً لهذه النظرة يلخص الدكتور راشد البراوي في كتاب « النظام الاشتراكي » أسباب انهيار النظام الاقطاعي وبروز النظام الرأسمالي :

« ذلك أن قوى انتاجية جديدة ظهرت وصارت أصلح لتقدم الجماعة . وهذه القوى الانتاجية الجديدة ما كانت لتستطيع أن تجد مجال نشاطها وعملها واسعاً أو على الأقل ممكناً طالما استمرت العلاقات الاقطاعية قائمة من نواحيها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وقد هيأت الحروب الصليبية الفرصة أمام اوروبا للاتصال التجاري مع الشرق وخلقت فرصاً واسعة أمام مدن جنوب اوروبا، وبخاصة مدينة (البندقية) التي حصلت على امتيازات تجارية في المراكز التي احتلتها القوات الصليبية في الشرق ، وأخذت البضائع الشرقية تتدفق على البندقية لتوزع على مختلف الأقاليم الاوربية، ويقابلها من جانب اوروبا المنتجات

الصوفية والحبوب والخمور، وتمتعت البندقية بشبه احتكار ضخم، تجمع لدى تجارها ثروات ضخمة، الأمر الذي دفع بتجار مدن الشمال وبخاصة (لوبيك) و(انتزج) و(برونزويك) الى عقد محالفة تجارية للدفاع عن مصالحهم، وأسسوا « عصبة الهانسا » وهكذا ظهرت المنافسة التجارية مما ساعد على ازدياد النشاط التجاري بين اوروبا والشرق، واستطاع تجار هذه العصبة الحصول على امتيازات اقتصادية في المراكز الرئيسية في اوروبا مثل (برجن) في النرويج و(فوفجرود) في روسيا و(بروكسل) في الأراضي الواطئة.

« هذا النشاط التجاري كان عاملاً حاسماً في ازدياد القوة الاقتصادية للمدن التجارية وبالتالي أهلها : أي الطبقة البورجوازية، ولم يقف السبب في ازدياد ثرائهم عند حد التجارة الخارجية، بل انهم كانوا يستغلون حاجة امراء الاقطاع إلى الأموال ليسدوا بها نفقات حروبهم وحياتهم الخاصة. فيقرضونهم مقابل فوائد باهظة. وأهم من هذا أن هذه استطاعت أن تشتري حريتها من الأمراء الاقطاعيين سواء كان الاخيرون من العلمانيين أو من رجال الدين، وأكثر من هذا فقد نشطت الحرف وتنوعت منتجاتها عن ذي قبل، ولهذا صارت الصناعة اليدوية مصدراً ـ وإن كانت أقل أهمية وخطراً من التجارة ـ لتجميع الأموال وبالتالي لزيادة نفوذ الطبقة البرجوازية وهي التي كان لها الأثر الفعال في العمل على هدم النظام الاقطاعي.

ونحن من جانبنا لا نحب أن نغفل أثـر العوامـل الاقتصـادية المعروضة هنا. ولكننا نرى أن التحكم البحث هو الذي يدعو إلى إغفال الأثر الانساني للاحتكاك بـين جيوش الصـليبيين وجيوش المسلمين والى تأثر الصليبيين بالأوضاع الاسلامية الحرة، التي لا تعرف سلطة امراء الاقطاع كما يعرفهـا المجتمـع الغربـي. وتأثـر الصليبيين بمشاهداتهم في الارض الإسلامية مسألة تاريخية ثابتة، ففيم هذا التحـكم لإغفـال أثـر الأوضـاع الاسـلامية الحـرة في نفوسهم؟

وعلى أية حال فالثابت تاريخياً أن نظام الاقطاع - كما صورتـه الفقرات السابقة في اوروبا - لم يكن له وجود في الشرق الاسلامي وبخاصة في الناحية الاقتصـادية والنـاحية السياسية . . لم تكن هناك ارتباطات بين الاشراف وأتباعهم من ناحية التبادل ولا من ناحية الإشراف القانوني والسياسي . . فلم يتأثر المجتمع الاسلامي بالعوامل التي تأثرت بها المجتمعات الأوروبية ولم يسر في الخـط التاريخي الذي سارت فيه. ولم يكن لمولـد النظـام الـرأسمالي في اوروبـا أثـر في خط سـير المجتمـع الاسلامـي. ولا في الأسس التشريعية والنظم الاقتصادية التي تضمنتهـا شريعتـه قبـل مولـد النظام الرأسمالي في اوروبا بحوالي ثمانية قرون.

ولقـد توجـد مشابـه بـين بعض النظـم الاسـلامية وبعض خصائص النظام الرأسمالي كحق الملكية الفردية، وحق الاستثمار الفردي. وحق الإرث. ولكن علينا أن نذكر أن هذه الاصول قد

تضمنتها الشريعة الاسلامية قبل مولد النظام الرأسمالي بثمانية قرون، غير متأثرة بالعوامل التاريخية التي تأثرت بها المجتمعات الاوروبية، ولا معاصرة لقواعد التفكير الرأسمالي الذي جاء متأخراً جداً. وهذه المشابهة سطحية في حقيقتها لأن النظام الاجتماعي الاسلامي نظام متكامل غير مقيد ولا مقلد لأي نظام لاحق - وأسبقيته تمنع منعاً طبيعياً من التقليد - والمهم أن نتذكر دائماً أن سائر النظم قد تكون متأثرة أو غير متأثرة بجزئيات من النظام الاسلامي، لأنها متأخرة عنه. أما هو فمن غير المعقول أن يكون قد أخذ منها، ومولده سابق على أقدمها بحوالي عشرة قرون. وشريعته ثابتة غير متأثرة في أصولها بعوامل التطور التاريخي.

نقول إن هذه المشابهات ليست إلا ظاهرية وجزئية. وأنا أعرف الكثيرين يرون أن الاسلام مثلاً يقرر حق الملكية الفردية وحق الاستثمار الفردي وحق الإرث فيتصايحون : نظام رأسمالي وبغض النظر عن اختلاف النشأة التاريخية للنظام الإسلامي والنظام الرأسمالي فإننا نعرض لبعض الموازنات الموضوعية بين قواعد النظامين هنا على سبيل الاجمال لنتبين سطحية ذلك التصايح التقليدي.

إن الربا والاحتكار قاعدتان أساسيتان من قواعد النظام الرأسمالي. والربا والاحتكار محرمان تحريماً باتاً في النظام الاسلامي (وسيجيء تفصيل هذا في مكانه).

كذلك نجد أن انقسام المجتمع إلى دول قومية كان من المظاهر

السياسية الملازمة لنشأة النظام الرأسمالي وهذه الحادثة هي التي حملت معها نظام الاستعمار للاستيلاء على الخامات واحتكار الاسواق؛ باعتبار « الاستعمار أعلى مراتب الرأسمالية » كما يقول لينين. بينما الاسلام الشعور القومي الحاد. ويتجه اتجاها عالمياً ويجعل حدوده هي حدود الفكرة لا تخوم الارض. ومن ثم يستبعد فكرة الاستعمار لاحتكار الاسواق. وبذلك يتجه اتجاهاً مضاداً للتفكير الرأسمالي.

أما الملكية الفردية والاستثمار الشخصي والارث وما اليها فتقوم في الاسلام على أسس أخرى غير الاسس التي تقوم عليها في النظام الرأسمالي. فالملكية الفردية ليست سوى وظيفة اجتماعية أما أصل المال فهو لله والجماعة كلها ستخلفه فيه عن المال.

والافراد نائبون عن الجماعة في استثماره بطرق تحددها الشريعة. وليست مطلقة من كل قيد وحق الجماعة فيه ثابت فهو يرد على الجماعة كلما احتاجت اليه وبقدر الحاجة وحسبها ومن ثم فالملكية الفردية في الإسلام شيء آخر غير الملكية الفردية في النظام الرأسمالي شيء مستقل في أساسه واتجاهه والمشابهة ظاهرية وجزئية. وكذلك سائر الحقوق المترتبة على الملكية الفردية.. (وسيأتي تفصيل هذا كله) فحسبنا هذه الإشارة المجملة في هذا المقام.

هذه المشابهات الجزئية التي توجد بين النظام الإسلامي والنظام الرأسمالي يوجد مثلها أو أكثر منها بينه وبين النظام الاشتراكي والنظام الشيوعي. وهذا وحده كاف في الدلالة على أن النظام

الإجتماعي في الإسلام ليس واحداً من هذه النظـم لوجـود بعض خصائص متفرقة فيها مجتمعه فيه. وذلك فوق أنه سابق عليها فهي قد تأخذ منه ولكنه لم يأخذ منها على وجه اليقين. وعلى أية حال فيحسـن أن نمضي في بعض الموازنـات الموضـوعية بـين النظـام الإسلامي والنظام الاشتراكي، ثم بينه وبين النظام الشيوعي بصفة إجمالية حتى يجيء التفصيل في مكانه.

لقد عجز النظـام الـرأسمالي عن مجـارة التطـور الإجتماعـي في أوروبا.. « لقد كان دعاة النظام الرأسمالي ـ وبخاصة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشرـ يعلنون أنه يقوم على مبدأ المنافسات الحرفة وهي منافسة تنسجم فيها مصالـح الأفـراد والجماعات وأخذ النظام الرأسمالي يسير في طريق تطوره، وإذا بهذه المنافسة يتضاءل شأنها تدرجياً.. وإذا بالحياة الاقتصادية قد أصبح طابعها الاحتكار ـ وهو نقيض المنافسة أما ذلك الانسجام الـذي تحدث عنه الكتاب فقـد وضـع مكانـه التعـارض بـين المصالـح وارتفعت الأصوات تندد بهذه الظاهرة، الأمر الذي حمل الدولة على التدخل باطراد للحد من قوة هذا التعارض وخطورتـه. ولرعـاية مصالح الطبقات والطوائف الضعيفة والمستضعفـة ومحاولـة توفـير الطمأنينةلها.. وتضخمت الديون الأهلية، وزادت أعباؤها بصورة بالغة. وأصبحت عنصراً أساسياً من عناصر المجتمـع الحـديث، وقوة تعمل على أضعاف بنيانه ومقدرته على المقاومة، ومن الناحية الدولية نجد أن الصراع بين الدول الـرأسمالية الكبـرى أدى إلى

التنافس الشديد على مصادر المواد الأولية وأسواق السلع ورؤوس الأموال، وهو التنافس الذي ينتهي بالصراع، مما يدل عليه الحربان اللتان نشبتا في النصف الأول من القرن الحالي. فالحركة الاستعمارية التي نشطت في عهدها الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر بما اتصفت به من متناقضات. ومنازعات وحروب إن هي إلا مظهر للتطور الرأسمالي الاحتكاري.

عندئذ ـ ولهذه الأسباب ـ اتجهت انجلترا بصفة خاصة إلى الاشتراكية، كما اتجهت روسيا إلى الماركسية وإن كانت قد أحدثت فيها تغيرات عملية هامة تكاد تخرجها عن طبيعتها النظرية الأولى، وكل ما تضمنته الشيوعية من مبادىء إنما جاء وليداً لتلك التطورات التاريخية، أما المبادىء التي جاءت في النظام الاسلامي في هذا الاتجاه فهي ذاتية أصيلة في النظام الاسلامي: تضمنتها الشريعة الاسلامية يوم جاءت من عند الله قبل أربعة عشر قرنا، وقد جاءت لتصوغ المجتمع على وفقها لأن التطورات الاجتماعية هي التي ولدتها: أي أنها كانت قوة دافعة للتطور الاجتماعي لا نتيجة تبعية له وعلى حين تؤدي المبادىء الاشتراكية أو الماركسية دورها التاريخي وتنتهي بسبب أنها نتيجة تبعية للتطور، لا قوة دافعة للتطور.. على حين ينتهي دور هذه المبادىء عند حد معين ويحتاج المجتمع إلى مبادىء جديدة.

فإن المبادىء الاسلامية تظل تعمل لأنها أكبر من الحاجات الوقتية للبيئة بسبب أنها لم تكن وليدتها، بل كانت وستكون محركه

لها في طريق الرقي الدائم المرسوم من أربعة عشر قرناً. إن الاشتراكية تلتقي مع الاسلام في نقط كثيرة في الجانب الاقتصادي. تلتقي معه مثلاً في محاولة ضمان حد أدنى لائق للأفراد من حيث العمل والمسكن والصحة والتعليم، وتوفير العمل للمواطنين جميعاً بوصفه حقا من حقوقهم الأساسية.. وتلتقي معه في أنها لا تدعو إلى القضاء المطلق على الملكية الفردية، مع تأمين المرافق المتصلة بالموارد العامة للثروة كالمناجم.. وتلتقي معه في التقريب بين مختلف الطوائف في المجتمع، ومنع الاسراف الذي لا مبرر له، وامتصاص الثروة الفائضة حتى يتوافر للدولة المال الكافي لمواجهة الأعباء الاجتماعية للشعب كله وإتخاذ التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي قاعدتين أساسيتين للتكافل الاجتماعي.

ولعل هذا الالتقاء هو الذي يوجد تلك الشبهة عند الدعاة الاسلاميين أنفسهم فيتحدثون عن « الاسلام الاشتراكي » وعن « اشتراكية الاسلام » وعن « الاشتراكية الاسلامية » وما اليها.

ولكن الواقع أن أسبقيه النظام الاسلامي يمنع من اعطائه وصفا لاحقاً هذا من ناحية الشكل. أما من ناحية الموضوع فالاسلام نظام متكامل تجيء فيه هذه الاتجاهات مرتكنه إلى أصول ثابتة. ومعتمدة على فكرة كلية متناسقة الأجزاء متصلة بالعقيدة في الله..

بينما الاشتراكية فكرة مادية عن الحياة لا تتناول غير الجانب الاقتصادي في حياة المجتمع ومن ثم فهي جزئية ووقتية. بينما النظام الاسلامي كلي ودائم. ومن ثم لا يجوز ربطه بنظام ولدته ضرورة

طارئة ومصيره إلى التمور أو إلى الزوال. فضلاً على أنه هو الأصل الذي تقرن الاشتراكية اليه فقال : إن فيها ما يشبه الاسلام في كيت وكيت. ولا يجوز أن يقرن الاسلام اليها وهو سابق عليها بثلاثة عشر قرناً من الوجهة التاريخية!

ثم يبقى هناك فارق موضوعي أصيل، وهو أن الاشتراكية بسبب أنها مذهب مادي اقتصادي بحت مجرد من العناصر الادبية التي تمازج النظام الاجتماعي في الاسلام لهذا السبب يمكن أن يقوم في ظلها استعمار خبيث كالاستعمار الانكليزي، دون ما حرج ولا تعارض مع صلب النظام الاشتراكي. الامر الذي لا يمكن أن يتم في ظل النظام الاجتماعي الاسلامي، بسبب ارتكان هذا إلى عقيدة أدبية تنكر هذا اللون من الاستعمار انكاراً باتاً إن النظام الاجتماعي في الاسلام نظام انساني عالمي، أما النظام الاشتراكي فنظام قومي محلي. وهذا الفارق الاساسي في طبيعة النظامين تترتب عليه فروق كثيرة، تجعل المشابهات بينهما مجرد اتفاقات ظاهرية وجزئية.

أما النظام الشيوعي فتصطدم فكرته بفكرة الاسلام من أساسها. ومع أن الشيوعية قد تلتقي بالاسلام في محاربته للطغيان الرأسمالي، وفي توفير الضروريات لكل فرد، وفي أصل ملكية الجماعة للمال.. إلا أن التصادم بين طبيعتها وطبيعته الاسلام كلي وعنيف وعميق.

إن المادية الجدلية تنفي كل مؤثر في الحياة ـ بل في الكون كله ـ خارج عن الطبيعة المادة لهذا الكون. وبهذا تصطدم منذ الخطوة

الاولى بالعقيدة بالله ، التي تقول بأن هناك إرادة عليا في الكون هي التي تصرفه وفق ناموس ثابت ﴿سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ وميزة العقيدة الاسلامية هنا أنها هي تثبت وجود الناموس الذي يجري الكون عليه وتقول : إنه ناموس لا يتخلف ـ لا تنس أن هذا الناموس لا يوجد ذاته؛ فتثبت تلك الارادة العليا التي أوجدت الناموس، ونفسر وجود الحياة على وجه الارض، ولا تهرب من هذه العقدة التي لا تجد لها المذاهب المادية حلا بغير الهروب منها.

والمادية التاريخية تصغر من قيمة الدور الذي يؤديه الانسان في تطوير الحياة ونظمها وقوانيها وعلاقاتها الاجتماعية أو تنفيه أحياناً، وتجعل الدور الاساسي لاداة الانتاج « فحسب هذه النظرية تجد أن الاسباب النهائية لكافة التغييرات. والتحولات الاساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس. أو سعيهم وراء الحق والعدل الازليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الانتاج والتبادل » كما يقول « انجلز » صديق كارل ماركس وزميله في صياغة النظرية! ذلك بينما الاسلام يعد خليفة الله في الارض ويجعل له الدور الاساسي في كل ما ينشأ على وجهها من تغييرات.

وسنتحدث عن هذا المعنى بالتفصيل ـ فيما بعد ـ ولكن حسبناهنا أن نقول : إن للنظرية الاسلامية وللنظرية الشيوعية إلى الانسان أثرهما في طلب النظامين ضمناً ولا تعنى بأكثر من توفير غذائه وحاجاته الجسدية، وتفضل القيمة الادبية لارادته وحريته

ومشاعره. والاسلام حين يجعل الدور الايجابي في الارض للانسان يتأثر في تشريعه لهذا الانسان بتلك النظرية فيمنحه الاحترام الكافي لروحه وعقله وإرادته ويحاول أن يوفر له بجانب ضروررياته المادية كل ما يتفق مع كرامة الانسان في شعوره وفي حريته وفي علاقاته العائلية والاجتماعية، وفي حقوقه على الدولة وشخصيته أمامها. الخ. وعلى العموم فإن كلتا النظريتين تترك طابعها العميق في معاملة هذا الانسان في كل حقل من حقول الحياة.

وبعد فإن الماركسية تغالي حين تدرس النظام الاجتماعي في اوروبا ثم تقول : إن النتائج التي وصلت اليها نتائج عالمية وتعطيها صيغة التعميم العلمي.. والواقع التاريخي الذي بين أيدينا ينقضها من أساسها، ويثبت انها أولاً نتائج جزئية خاصة برقعة من الارض غير منطبقة إطلاقاً على الرقعة الاسلامية الضخمة في أي دور من أدوارها التاريخية كما يثبت ثابتاً أن الاعتدال العلمي كان يقتضي أن يحسب حساب عوامل أخرى في التطور الاجتماعي. غير العوامل الاقتصادية.. إن للاقتصاد قيمته وأثره من غير شك ولكن في الكون شيئاً آخر بجانب الاقتصاد هو الشعور الانساني وشيئاً آخر بجانب الآلة هو هذا الانسان!

وأخيراً فإننا نخرج من هذا الموضوع بالحقيقة التي لا اعتساف فيها.. إن النظام الاسلامي ليس هو الرق وليس هو الاقطاع وليس هو الرأسمالية وليس هو الاشتراكية وليس هو الشيوعية.. إن النظام الاسلامي هو فقط : النظام الاسلامي.

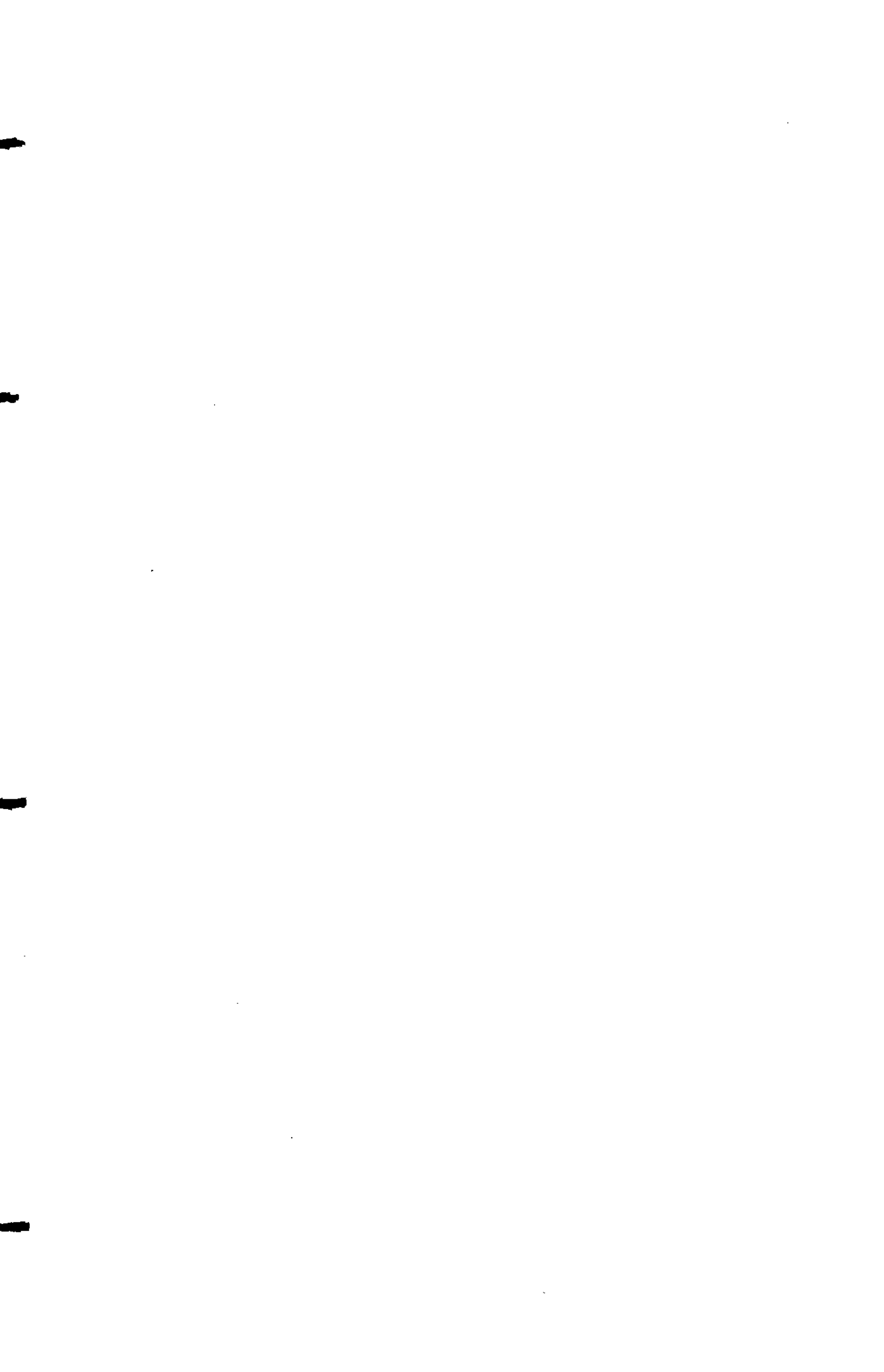


كرامة الإسلام

العالم الفاضل الأستاذ

محمد أحمد الغمراوي

المحرم - ١٣٨٣



مُقدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

للاستاذ محب الدين الخطيب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وبعد، فإن شركة العلماء في أندنوسيا قررت عقد مؤتمر في سنة **١٣٥٧** من أغراضه حماية الإسلام وأهله من وساوس أعدائه الذين يدسّون الباطل في طريق ناشئتنا، ليزلزلوا عقيدتهم فيه، ويجعلوهم أعداء له، بدلاً من أن يكونوا جنوده ودعاته والمكافحين في سبيله.

وقد كتبَتْ إلى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين في القاهرة تطلب منه أن يبدي رَأيه في ذلك ليُتلى في المؤتمر. فناط المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين كتابة ذلك بالعالم الفاضل الاستاذ محمد أحمد الغمراوي أحد مؤسسي الجمعية الاولين، والمدرس بكلية الطب من الجامعة المصرية.

وقد كان الاستاذ موفقاً من الله فيما كتبه. لذلك أردتُ أن يعمّ نفعه جميع المسلمين فاستأذنته في هذه الكراسة، ناصحاً لكل مشتغل بالشؤون الاسلامية، وكل من يهمه اعتلاء كلمة الإسلام، أن يطيل التفكير فيما كتبه الاستاذ الغمراوي في هذه الصفحات، وأن يعمل على تحقيقه والله المعين.

كرامة الإسلام

وردّ عادية الطاغين عليه

هذا موضوع من أجلّ المواضيع وأولاها بالعناية والدرس، في هذه الأيام التي كثر فيها المجترئون على الإسلام من جهلة أهله، ومن الطاعنين فيه من أعدائه.

والطعن في الإسلام والمساس بالنبيّ عليه الصلاة والسلام شيء لم يكن يعرف في البلاد الاسلامية أيام كان للاسلام العزة في بلاده، وأيام كان المسلمون يعيشون بالاسلام وللاسلام. والنظام الإسلامي - الذي أحكمه الله للناس حين أتمّ لهم الدين - كفيل بحفظ كرامة الاسلام في بلاده وخارج بلاده، كما هو كفيل بصيانة البيئة الاسلامية من كل ما يضعف سلطان الاسلام فيها. لكن المسلمين لم يخلصوا لذلك النظام في العصور الأخيرة، ولم يحرصوا على تنفيذه فدخل على البيئة الإسلامية الفساد، وكان من عوارض الفساد هذا الطعن الذي منه يشكون.

إن الإسلام دين العزة، وهو أيضاً دين الحرية الصالحة فهو يكفل حرية الفرد في دائرة مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فكما منع الفرد أن يعتدي على نفسه وعلى غيره بعقابه على مثل السرقة والخمر والزنا وبمنعه من أمثال الميسر والربا، كذلك منع الفرد في

البيئة الإسلامية أن يفتح باب الهلاك على نفسه وعلى غيره بالطعن أو ما يشبه الطعن في الإسلام من أيّ الوجوه.

إن الطعن في الإسلام إذا صدر من مسلم كان كفراً يستتاب صاحبه أو يقتل، وإذا صدر من ذمي كان خيانة تبرأ ذمّة الإسلام من مرتكبها. والطعن في الإسلام أو في القرآن أو في الرسول صلوات الله عليه نوع من محاربة الله ورسوله من غير شك، ومن السعي في الأرض بالفساد، لأنه سعي في إفساد عقيدة الناس وتعريضهم للهلاك الروحي الأبدي، فهو أخطر أنواع محاربة الله والافساد في الأرض، والله سبحانه يقول: ﴿ إنما جَزاءُ الذينَ يُحارُبونَ الله وَرَسُولهُ ويسْعَوْنَ في الأرْضِ فسَاداً أنْ يُقتَّلوا أو يُصلبوا أو تُقطَّعَ أيْديهمْ وأرْجُلُهم منْ خِلافٍ أو يُنْفَوْا منَ الأرضِ، ذلِكَ لَهُمْ خزيٌ في الدُنْيا ولَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ. إلاّ الذّينَ تابُوا منْ قَبْلِ أنْ تقْدِروا عَلْيهم فاعْلمُوا أنّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [1].

وهذه الآية الكريمة تدلّ من ناحية على عظيم ذنب الخارج على الإسلام المحارب له بتغليظها له العقاب، لكّنها من ناحية أخرى تبين أن الغرض من هذا العقاب ليس هو التشفي، ولكن هو الردع وصيانة المجتمع الاسلامي من الفساد والالحاد أن يطرأ عليه أو ينتشر فيه، ولذلك يعفو الاسلام عمّن تاب من محاربيه قبل أن ينزل به العقاب ﴿ إلاّ الّذينَ تابوا منْ قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عَليهمْ فاعْلموا أنّ الله غفُورٌ رَحيمٌ﴾ [2].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣٣. (٢) سورة المائدة، الآية ٣٤.

فالأصل في الاسلام إذن هو تحريم كل ما يُشتمّ منه رائحة الطعن في الاسلام، ومنعه في البيئة الاسلامية منعاً باتاً، بل إذا صدر مثله في دولة غير إسلامية ولم تعتذر منه ولم تمنعه كان ذلك سبباً كافياً لمحاربتها حتى يحكم الله بين المسلمين وبينها بالحق وهو خير الحاكمين.

فإثم المسلمين بإباحتهم الطعن في دينهم وسكوتهم عنه وصبرهم عليه في بلادهم باسم حرية الرأي أو حرية التفكير هو من غير شك إثم كبير كاف وحده لتعريضهم لغضب الله عليهم وإنزاله بهم صنوف العذاب والهوان، حتى يتوبوا أو يرجعوا. وليس من المعقول أن يكفل الإسلام حرية التدين [1] في بلاده لغير المسلمين ويصون لهم بِيَعهم وكنائسهم [1] ويدافع عنهم ما داموا في ذمته ويجعل القاعدة في معاملتهم (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) [2] ليس من المعقول أن ينصف الإسلام غير المسلمين في بلاده هذا الانصاف ولا ينصف نفسه ولا أهله بمنعه كل طعن في الدين أو تجريح له من أي إنسان كائناً من كان.

(١) محدود ذلك بحدوده المبينة في كتب الفقه.
(٢) أي إذا دخلوا في الإسلام، أما من لم يدخل منهم فيه فلا يتمتع بحقوق المسلم وليس عليه واجباته، وان كان عليه واجبات وله حقوق، ليس فيها من السعة والاكرام ما للمسلم. وإذا وجد جاهل بالتفسير ويتصدى للاستشهاد بالآية الكريمة « ولتجدن أقربهم مودة » فليتابع تلاوة الآية حتى يصل إلى قوله تعالى: « يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ليتبين له أن هذه صفة الذين وفقهم الله منهم للايمان بالاسلام ورسوله.

فأمثل الطرق وأخصرها إلى المحافظة على كرامة الاسلام من هذه الناحية إذن هو منع كل طعن في الاسلام وإنزال العقاب المناسب بمن يجترىء على ذلك. لكن هذا المنع لا يمكن تحقيقه إلا في بلادٍ الحكومة فيها إسلامية والحكم فيها لله بلا تقصير من حكومات البلاد الاسلامية في هذا وتفريط من المسلمين. فواجب المسلمين في البلاد التي لهم فيها كثرة أن لا يهدأوا ولا يطمئنوا حتى يحملوا حكوماتهم على صون كرامة الاسلام من كل طعن أو تجريح صيانة تامة، فلا يبيحوا نقداً لكتاب الله ولا لرسوله باسم حرّية الرأي أو حرية الفكر أو حرية النقد أو حرّية البحث أو ما شاء الشيطان أن يخترع للناس من أسماء يحارب بها الاسلام من وراء أستارها ويهوّن بها الأمر على المسلمين. إنّ الذي ميّز الإسلام عن غيره من الأديان أنه دين جاء ليجعل الحكم على الأرض لله تعالى.

والذي ميّز المسلم الأول من غير المسلم هو أنه كان يضحي بنفسه في سبيل الله، فدينه كان أعزّ عليه من نفسه ومن ولده، وهذا هو اللازم الأول من الحديث الكريم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ اليه من ولده ووالده والناس أجمعين [1]». والمسلم الذي يبتغي الرضا من الله والنجاة من النار يجب أن لا يعدل بهذا الروح الاسلامي شيئاً من حطام الدنيا إن كان لديه ذلك الروح، فإن لم يكن لديه فليعرف أنه على خطر، وأنه على شفا

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه. عن أنس بن مالك رضي الله عنه. «صحيح الجامع» ٧٤٥٨.

جرف هار يوشك أن ينهار به في نار جهنّم، وإذن فلا ينبغي له الهدوء ولا الاستقرار ولا الطمأنينة حتى يوجد هذا الروح في نفسه، وحتى يحسّ ويشعر بما كان يحس ويشعر به المسلمون الأوّلون في زمن الرسول صلوات الله عليه وفي عهد خلفائه الراشدين.

لكن ليست كل البلاد التي فيها المسلمون ذات حكومات إسلامية، فما هو الواجب على المسلمين ـ قلّوا أو كثروا فيها ـ تلقاء هذا الموضوع الخطير؟ الجواب قريب، وإن خيّل للانسان أنه بعيد، إن حكمهم هو نفس حكم المسلمين حين لم تكن لهم القوة في أول عهد الاسلام وبُعيد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأول ما يجب عليهم في هذا ألاّ يسمحوا لأنفسهم ولا لمن لهم عليهم سلطان من أهليهم وإخوانهم وأعوانهم بالإصغاء إلى الطاعن أو السماع له، فإنهم إن لم يكونوا يملكون منع الطاعن من الطعن، فهم على الاقل يملكون من أنفسهم آذانها وعيونها، فلا يجوز لهم أن يسمعوا لمتهكم بالاسلام، ولا أن يقرّوا الخائض فيه بما لا يليق، طاعة لقول الله لنبّيه الكريم من صورة الأنعام: ﴿ وإذا رَأيْتَ الذْينَ يَخُوضُونَ في آياتِنا فأعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيرِه، وإمّا يُنْسِيَنّكَ الشّيطانُ فلا تقعدْ بَعْدَ الذّكرى مع القومِ الظّالِمينَ﴾.

فإذا نسي المسلم أن يقوم من مجلس ذُكر فيه الاسلام بسوء، فليس له بعد أن يتذكّر وينتبه لما يجري في المجلس من خوض في الاسلام

أن يجلس فيه لحظة، بل عليه أن يَقوم ويُشعِر المجلسَ بالسبب الذي من أجله قام، فإذا فعل ذلك فليس عليه من حساب الخائضين في الاسلام شيء.

وقد شدّد الله النكير على قوم من المسلمين قصرّوا في العمل بما شرُع لهم في الآية الكريمة فكانوا يحارَبون في دينهم، ويجُامِلون من يخشون بأسه أو يرجُون خيره بالجلوس معه وإن خاض، فأنزل الله لمثل هؤلاء وعيداً وإنذاراً شديداً في قوله سبحانه من سورة النساء: ﴿وَقَد نَزَّل عَلَيْكُمْ في الكِتاب أَنْ إذَا سَمِعتمْ آيات الله يُكْفَرُ بهَا ويُسْتَهْزأ بها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيرِهِ إنَّكُمْ إذاً مثلُهُم إنَّ الله جَامِعُ المُنَافِقينَ والكافِرين في جهنَّم جَمِيعاً﴾. وليس بعد قوله سبحانه: « إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُم » مُنَفِّر لمسلم عن مجالسة الطاعنين والاستماع إليهم، ومن ذا الذي يرضى من المسلمين أن يكون عند الله مثل المنافقين والكافرين يجمعه الله معهم في جهنّم جميعاً؟ فالطاعن في الاسلام والخائض فيه كافر أو منافق، والمستمع له من المسلمين هو مثله: حكمه حكمه، ومصيره مصيره.

فالواجب الأول إذن هو مقاطعة مجالس الطاعنين ومفارقتها، سخطاً عليها بمجرد ذكر الاسلام فيها بسوء. والقراءة حكمها حكم السماع فلا يجوز لمسلم ـ غير عالم متعرض لدحض مفتريات المغتربين ـ أن يقرأ ما فيه طعن في دينه أو اعتداء على نبيّه، ولا أن يقرىء ذلك غيره من غير المتمكّنين في الدين. إن النفس المسلمة

تتأذى من غير شك بسماعها الطعنَ في دينها أو بقراءته، وإذا تكرر ذلك فلا بد أن يعلق بها من دنس ذلك الطعن شيء. لذلك أمر الله المسلمين أن يصونوا أنفسهم عن تجريمها وتلويثها، وذلك بمفارقتهم مجالس الطاعنين والخائضين سخطاً عليها وعلى أهلها. وهذا وحده ـ إذا فعله المسلمون وثابروا عليه ـ كافٍ لان يحفظ عليهم كرامتهم، ويبطل كيد المتعرضين لدينهم بطعن أو بتجريح.

لكن ليس هذا كل ما أدّب الله به المسلمين في هذا الشأن، فقد أمرهم بعد هذا بمعاداة الملحدين وعدم اتخاذهم أولياء. وهذا أمر يملكه المسلمون ـ من غير شك ـ يحاربون به الخارجين على الدين الملحدين فيه من أهله أو من غير أهله.

والآيات الواردة في هذا المعنى كثيرة. فمنها الآيات العامة مثل: ﴿ يا أيها الَّذِين آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِي وَعَدَوَّكُمْ أوْلياءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ وقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكم مِنَ الحَقِّ ﴾ـ الممتحنة ١ ـ ولكي لا يخطىء المسلمون ويسوّوا في العداوة بين من يؤذيهم من غير المسلمين ومن لا يؤذيهم، أنزل عليهم من نفس السورة ﴿ لا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّين ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيَارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إلَيْهِمْ، إنَّ الله يحِبُّ المُقْسِطِينَ. إنَّما يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوكُمْ في الدِّين وَأخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وظاهَرُوا عَلَى إخْرَاجِكُمْ أنْ تَوَلَّوْهم ومَن يتَوَلَّهم فَأولَئِك هُمُ الظَّالِمون ﴾ـ الممتحنة ١٠ ـ والذين يحاربون الدين بالقلم

واللسان، كالذين يحاربونه بالسلاح لا ينبغي أن يتخذهم المسلم أولياء.

على أنه لا داعي للقياس في هذا ففي القرآن الكريم ما هو صريح فيما نحن بصدده، مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذينَ اتَّخَذُوا دِينَكُم هُزُواً ولعِباً من الذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قبْلِكُمْ والكُفارَ أوْلياءَ، واتّقُوا الله إنْ كُنْتُمْ مؤمِنِنَ. وإذا نادَيْتمْ إلى الصّلاةِ اتَّخَذُوها هُزواً ولَعِباً، ذلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلونَ﴾ - المائدة ٥٨.

ومثل هذا في تأديب المسلمين والتشديد عليهم في هذا الموضوع الخطير قول الله سبحانه من سورة المجادلة: ﴿ لا تَجِدُ قوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليَومِ الآخِرِ يُوادّونَ مَنْ حادَّ الله ورسُولَهُ ولو كانوا آباءَهُم أو أبناءهم أوْ إخْوانَهُمْ أوْ عَشِيرَتهُمْ أولئِكَ كتَبَ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ وأيّدهْم برُوحٍ مِنْهُ ويُدخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتها الأنهارُ خالدينَ فيها رَضِيَ الله عَنْهُم ورَضُوا عنْهُ أولئكَ حِزْبُ الله، ألا إنّ حِزْبَ الله همُ المُفْلِحونَ ﴾. - المجادلة ٢٢ -

وهي آية بحمدالله جامعة، تنذر المتهاون في هذا بما يكاد يخرجه من دائرة المؤمنين - والطاعنون في الدين من هؤلاء من غير شك - وتُبَشِّر من لا يوادّ من حادّ الله ورسوله بأنه من حزب الله المفلحين. وليس بعد هذا عذر للمسلم في مسالمة الملحدين في الدين من المنتسبين للاسلام أو من غير المسلمين.

على إنَّ معاداة الملحدين وقطع مودّتهم يجب أن تتخذ صورة عملية فعَّالة، فلا يكتفي بمجرد المقاطعة في المجالس وعدم مبادلتهم

المجاملة، بل يجب أن يتجاوز ذلك إلى مقاطعتهم في المعاملة، فلا يُشترى منهم، ولا يُباع لهم، ولا يُتزوج منهم، ولا يُصهر اليهم، ولا يُعاوَنون على شيء من أمر الدنيا في يد المسلم أن يعينهم عليه، ولا يظهر المسلم لهم شيئاً مهما صغر، من مظاهر التوقير والاحترام مهما كان لهم من غنىً أو جاه. وهذا سلاحٌ بيد المسلمين قاطع، لو استعملوه وأجمعوا عليه، لم يجرؤ واحد من عُبَّاد الباطل على التعرِّض للاسلام في صغيرة أو كبيرة بتهكّم أو استهزاء.

واجماع المسلمين في أيّ بلد على مثل هذا أمر صعب، لضعف الروح الاسلامي فيهم، وعدم استعدادهم كلهم للتضحية بشيء من دنياهم في سبيل دينهم، مع أنهم لو قاطعوا أعداءهم وقصروا معاملتهم على أنفسهم ومن وّفى لهم من غير المسلمين لأقبلت عليهم الدنيا ولاضطروا غيرهم إلى احترامهم واحترام دينهم. لكن إذا كان مثل هذا الاجماع اليوم صعباً لضعف الروح الاسلامي، فإنه ينبغي النظر في أسباب هذا الضعف، وتجنبها في تربية النشء الاسلامي الحديث، حيث ينشأ جيل من المسلمين يعتزّون بالاسلام، ولا يعدلون به شيئاً كائناً ما كان.

* * *

وأسباب ضعف الروح الاسلامي في البالغين من المسلمين اليوم يمكن إجمالها في شيء واحد هوسوءالتربية الاسلامية وإذن فعلى المسلمين أن يُعنوا العناية كلها بانشاء أولادهم نشأة إسلامية في

مدارس إسلامية ينشؤونها من أجل ذلك، ولا يدعوا أولادهم فريسة للمدارس غير الإسلامية الروح ، تربيهم على غير غرار الإسلام، وتُخْرِجُهم عنه بالتدريج ، فإن المسلمين إن لم يصونوا أولادهم ـ وهم صغار ـ عن تحكُّم الملحد أو غير المسلم في عقولهم ونفوسهم لم يكن لهم أن يَعجبوا من خروجهم ـ وهم كبار ـ عن طريق الدين ، ومتابعتهم من يطعنه باسم العلم أو الأدب أو حرية الرأي أو حرية التفكير.

* * *

فإذا كان للمسلمين مدارس غير إسلامية الروح والتربية فليسرعوا وليحوّلوها إسلامية وإذا لم يكن لهم مدارس إسلامية لتربية النشء، فليسرعوا ولينشئوا هذه المدارس ما دام فيهم الأغنياء القادرون. فإذا لم يكن فيهم الأغنياء، أو كانوا فيهم وبخلوا على دينهم وأمتهم وأنفسهم بما يحفظ عليهم العزّة والكرامة وينجيهم جميعاً من العار ومن النار، فإنَّ على الفقراء أن يتساندوا ويتعاونوا، عن طريق التبرع بالقليل المستطاع الدائم ـ في كل يوم أو كل اسبوع أو كل شهر ـ بما يكفل إقامة مدارس إسلامية تصون أطفال المسلمين عن التربي في مدارس غير المسلمين. وكثرة الفقراء تجعلهم والحمد لله قوة، وتجعلهم إذا أجمعوا واستمروا على التبرع بالقليل أغنياء. فهم فقراء أفراداً متفرقين، لكنهم في الواقع ـ لو عرفوا ـ أغنياء متجمعين. وهي حركة تحتاج إلى تنظيم، وليس

أحرى بتنظيمها في أندونوسيا والقيام عليها لهذا الغرض النبيل من مؤتمر شركة العلماء.

على أنه حتى يمكن القيام بهذا لا ينبغي التوقف والانتظار، فإذا لم تكن مدارس حاضرة، فهناك المساجد يجب أن يحمل النشء على التردد عليها وكثرة شهود الجماعة فيها. ويجب أن يكون في كل مسجد عالم بالدين لبق، يُلقّن وُرّاد المساجد من قراءتهم وحديث نبيهم وتاريخ نشأة الإسلام ما هو كفيل بتنمية الروح الإسلامي في النشء وتقويته في صدور من فات دَورالنشوءمن المسلمين. وقديماً كانت مساجد المسلمين في العهد الأول هي مدارسهم، وهي دور ندوتهم، فلماذا لا يستعيد ذلك المسلمون اليوم وهم أحوج ما يكونون اليه؟

ومن وراء المساجد توجد البيوت فكل مسلم يملك بيته إن لم يملك المدرسة، وعليه أن يجعل جو البيت اسلامياً صرفاً، وعلى المؤتمر الموقّر أن يضع نظاماً يعين الناس على ذلك ويبصّرهم بطريقته، نظاماً يكفل فيما يكفل أن يمّر بكل بيت، بعض اللبقين الصالحين من العلماء ـ إن لم يكن كل يوم ـ فكل بضعة أيام ليعلمهم أمور دينهم، في لطف، وترغيب وترهيب من الله، بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأهمية ذلك كله ـ فيما نحن بصدده من رد طعن الطاعنين في الإسلام وحفظ كرامة هذا الدين ـ هو تسليح النشء الاسلامي بالروح الاسلامي المعتز المقاوم، الذي لا يبالي في سبيل الاسلام

بالتضحيه، والذي يقدّم دينه على كل شيء. ثم تسليحه مع ذلك وقبل ذلك بالاطلاع الكافي على حقائق الاسلام، وبالأخص على برنامج الرسولﷺ ، حتى يستطيع كل فرد أن يدحض من نفسه ولنفسه طعن الطاعنين، بأن سمعه عفواً في حديث، أو وقع نظره عليه في صحيفة أو في كتاب، لأي سبب من الأسباب.

وخير طريق لإكساب الناشيء المسلم هذه المقدرة هو :

أولاً: قراءة حصة يسيرة من القرآن الكريم كل يوم.

وثانياً: دراسة السيرة النبوية مجملة أولاً ثم أكثر تفصيلاً بعد ذلك، مع العناية بما فيها للرسولﷺ من خطب وأحاديث. وسيرة الرسول صلوات الله عليه، سهلة المأخذ، سهلة الفهم على الصغير، لأن الصغار مولعون بالقصص، وخير القصص، بعد القرآن منه، هو من غير شك سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وثالثاً: دراسة تاريخ الخلفاء الراشدين، وخصوصاً ما اتصل منه بالحروب والفتوح.

إن الناشيء المسلم إذا بلغ دَور الشباب، وقد عرف ذلك وتسلَّح به، لن يضره مطلقاً ما يصل إلى سمعه أو بصره من مطاعن في الدين وسيكون هو أول الرادّين على تلك المطاعن من تلقاء نفسه بما فيه مقنع لها من بين ما علمه من الاسلام، فإن مطاعن الطاعنين كلها تخبيل ومغالطة تجوز (أي يغتر بها) على المسلم الجاهل بدينه، لكنها لا يمكن أن تجوز على مسلم عرف حقيقة دينه من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

هذا هو في رأينا خير طريق لاتقاء شر الطاعنين في الاسلام وللمحافظة على كرامته في نفوس المسلمين، ترون أنا لم نُعِر دحضَ الطاعنين بالجدل والمناقشة اهتماماً، لأن ذلك ـ في رأينا ـ أضعف الطرق وأقربها إلى اغراء الطاعنين ولفت نظر غير الملتفت اليهامن الناشئين. فإن كان لا بد من ذلك في مقام يدعو اليه فليكن الردّ أيضاً مفرغاً في قالب من التهكم والسخرية بالطعن والطاعنين، من قريب أو من بعيد، حتى يشعر الطاعنون دائماً ان ليس لطعنهم قيمة، وحتى يشعر المسلم القارىء للردّ أن العزة له، وان مثل تلك الطعون يجب أن لا تلقى من المسلم إلا الاحتقار. واتباع هذا الاسلوب يحتاج إلى لباقة، لكنه دائماً ممكن لأن الطاعن في الاسلام مبطل، والباطل مقاتله كثيرة، وهي دائماً بادية سهل إصابتها.

وإذا كان الطاعنون، كثيراً ما يستعينون على محاربة الحق بالتهكم والاستهزاء، ليوحوا إلى قرائهم بأنهم أقوياء فأحرى بجنود الحق المدافعين عن دين الله أن يقاتلوهم بمثل سلاحهم ليصغِّروهم في نفوس من يقع على ذلك من المسلمين خصوصاً العوام منهم والناشئين، وذلك مع عدم الاخلال بمواضع الحق، والتهكم المقترن بالحجة القاطعة يُجْهز على الخصم، وكلاهما سهل على من يدفع بالحق، ويدعو إلى الحق كالمتعرض للدفاع عن دين الله.

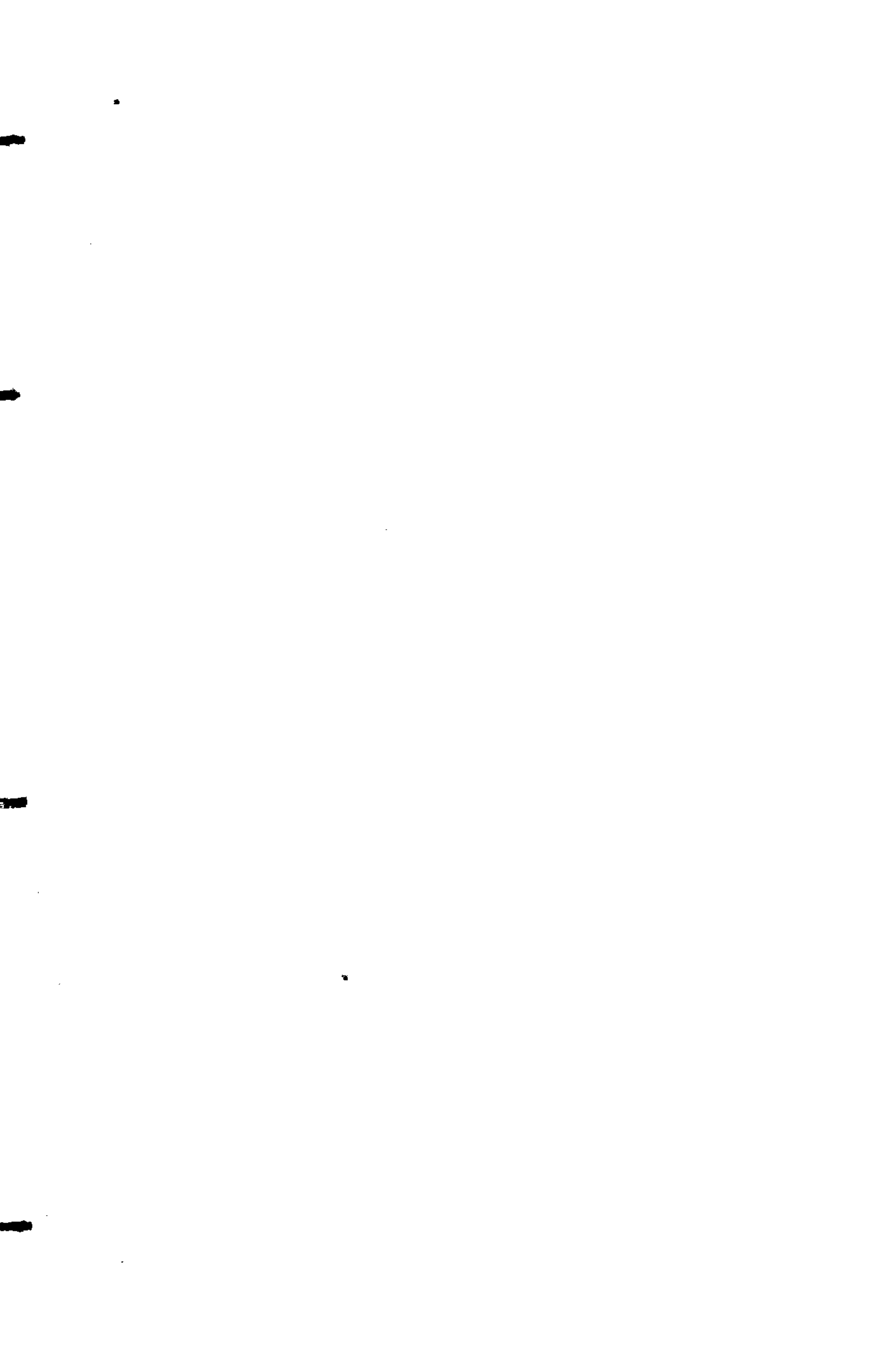
وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

عز الدّين القسّام

للأستاذ

محمّد سعيد الطنطاوي

المحرم ١٣٨٣



بسم الله الرحمن الرحيم

عز الدّين القسّام

١٣٠٠ - ١٣٥٤

١٨٨٢ - ١٩٣٥

محمد عز الدين ابن عبد القادر القسام، من أسرة كريمة في جبلة - من مدن اللاذقية، على الساحل -.

ولد في مطلع القرن الرابع عشر - سنة ١٣٠٠ -. وتلقى علومه الاولى في بلده، ثم ذهب الى الأزهر، فأتم علومه فيه، ثم قدم منه سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ - بصحبة الاستاذ عز الدين التنوخي، فأقام قليلاً في جبلة، ثم ذهب الى تركيا يعظ هناك ويرشد ويوجه الى الخير، مدة سنة، عاد بعدها الى جبلة، ليقوم بنهضة تعليمية فيها واسعة، شملت الصغار والكبار، فكان في النهار يعلم الغلمان، ويقوم بالليل بتعليم الرجال، وكان والده شيخ طريقة صوفية، له مكتب يعلم الأولاد فيه تعليماً صوفياً يقتصر فيه على الأذكار وطرق الصوفية ومناقب المتصوفة وأخبارهم. فجدد الشيخ عز الدين في طرق التعليم وأخذ يعلم القرآن والتفسير والفقه وما إلى ذلك من العلوم، وفي نفس الوقت أخذ يربي النفوس على تفهم الاسلام، والعمل به وإقامة الحياة على أسسه. .

وكان يدعو الناس وقلبه من وراء لسانه، وسيرته تؤيد دعوته، وإخلاصه يظهر في مقاله فاستجاب لدعوته الناس، وصلحت الأحوال، وكانت قبل مجيئه بالغة السوء وحصل من الإقبال على الطاعة، والتزام حدود الإسلام، ما كانت النساء معه يخرجن يوم الجمعة إلى السوق دون حجاب، لا يصادفن من الرجال أحداً، يذهب الجميع إلى المساجد حتى القائمقام وحتى الحراس، إلا حارس واحد للمساجين.

ولما قام الطليان بغزوهم لغادر لطرابلس الغرب، ووقف المجاهدون العزل أمامهم، يصمدون بإيمانهم للموت لا يفرون ولا يهابون، أخذ الشيخ عز الدين يجمع التبرعات للمجاهدين يثير في الناس عواطف الخير، ويحرك فيهم نوازع الايمان، حتى اجتمع من التبرعات قدر ليس باليسير وانهال الناس على تقديم ما يستطيعون، وقدم الكثيرون، الكثير من أثاث بيوتهم وتقدم الكثيرات من النساء بحليهن إعانة للمجاهدين.

وأراد القائمقام - ويسمى حمدي الجلاد - أن يكون هو المشرف على جمع التبرعات، فثار الناس وأبوا ذلك عليه، فكان أن اضطغنها على الشيخ وسعى به الى الأتراك، يزعم لهم أنه يحرض الناس على الثورة عليهم، وكان الاتراك وقتذاك يجلون الاسلام، ويسيرون على هديه فأرسلوا محققاً إلى جبلة وبحث المحقق في الأمر، وحضر دروس الشيخ، فتبين له حقيقة الفرية، وإنها وشاية

كاذبة وإن الشيخ إنما يحث على الجهاد ويدعو الى الوحدة الاسلامية وكان أن أقالوا القائمقام.

ولم يكتف الشيخ، ورأى أنه لم يؤد حق اخوانه المجاهدين عليه، حين يقدمون هناك صدورهم لرصاص الكفرة المغيرين فيكتفون بتقديم بعض المال اليهم، كما يساعدون شعباً غريباً عنهم، وكأنهم ليسوا أمة واحدة يجمعهم دين واحد، وتذكر أنه إذا وغل الكفار في أرض المسلمين أصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم فيها. . فقام يحث الناس على التطوع ويدعوهم الى الجهاد، حتى اجتمع له من هذه البلدة الصغيرة، عدد من المتطوعين كبير، وذلك لما لمسوا فيه من الصدق والاخلاص فانتقى الشيخ من اقويائهم ومن المدربين على السلاح بينهم مئتين وخمسين من الشباب، ولم يهمل الشيخ عيال هؤلاء المجاهدين، فألف لجنة تتولى الإنفاق عليهم في غيابهم، بحيث يصيب الفرد الواحد من عيال المجاهدين ثلاثة (مجيديات) في كل شهر، وذهب المجاهدون الى اسكندرون ليبحروا من هناك فلبثوا فيها اربعين يوماً، ولم يتمكنوا من السفر، مما أثار سخط الشيخ الذي كان يتحرق شوقاً إلى الجهاد، وزاد في غضبه أن أمرتهم الحكومة أخيراً بالعودة الى جبلة، فأنشأ بأموال التبرعات مدرسة لتعليم الأميين في النهار.

وكان الشيخ لا يترك فرصة لجهاد أعداء الاسلام إلا انتهزها فلما قامت الحرب العامة، ساهم فيها، وبقي يجاهد فيما يستطيع من لميادين الى نهاية الحرب.

وما لبث الفرنسيون عقب الحرب أن دفعتهم الصليبية الغربية، والطمع الاوروبي، الى غزو سوريا، فثار الشيخ، وألف عصبة من المجاهدين بقيت تقاوم الفرنسيين في منطقة صهيون وتحاربهم وتنزل بهم الخسائر الى أن وقعت دمشق بأيدي الفرنسيين وانقطعت عنه امدادات الذخيرة، فالتجأ قسم من المجاهدين الى تركيا، وانسل الشيخ مع الباقين الى فلسطين، وذلك سنة ١٣٣٩ - ١٩٢١ -

وتابع الشيخ هناك جهاده الذي نذر له حياته، في الميادين الثلاثة : فأخذ أولاً يذكر الناس في حيفا، حيث عين خطيباً فيها، يحث الناس على الجهاد، ويحضهم على الاستعداد، ويثير فيهم الحمية والحماس، والى جانب ذلك أخذ يدرّس في مدرسة أهلية ليطبع الجيل الجديد بطابع الجهاد، وينشئهم على خلائق الاسلام، ويعلق قلوبهم بالأمجاد والفضائل والتوق الى الجنة، ولو عن طريق الموت :

يا شباب الله هيا نحيي مجد المسلمينَ
نجرع الموت شهياً أو نُرى في الظافرينَ

وينفخ فيهم روح الأنفة من الذل، والاستكانة تحت نعال الأعداء مقابل حفنة من حطام هذه الدنيا وسفسافها :

الموت، والحرية الشـ ـماء، والشرف المكين
هي خير ما نحيا له وهي الغنى للمؤمنين

أمـا المفضض والمذهـ ـب والمفـوف والنضيد
فلقـد تركناهـا لعبـ ـاد الحطـام وللعبيد

ولـم يغفـل الميدان الثالـث، فمـع أنـه يدرك أن النصر ليس بالجيوش والأسلحة والحلفاء، ويؤمن أنه فقط من عند الله العزيز الحكيم، إلا أنه كان يعلم أيضاً أن الله عز وجل أمر بالاستعداد والتهيوء والتماس الأسباب، فألف جمعية خاصة لجمع المال وشراء السلاح والتدرب على القتال، وأخذ يذهب الى القرى يحثهم على التدرب والاستعداد، ويحضهم على شراء السلاح.

وكان قد أتى معه من جبلة ستة من إخوانه، فكانوا يسكنون في بيت واحد، يعملون هم في البحر كعمال، ويعمل هو في وظيفته، حتى إذا أتمها سبقهم إلى البيت فهيأ لهم الطعام وقام بما يحتاجون اليه.

وكان إلى هذه الغيرية وهـذا الاهتمام باخوانـه، لا يكاد يهتـم بحظوظ نفسه، ولا يفكر في طعام لنفسه أو ثياب أو راحة ويرى ذلك أحقر وأتفه من أن يشغل نصيباً من اهتمامه.. فكان في حياته على درجة من البساطة، حتى لقد بقي سنة ونصفاً ينام إذ ينام على حصير، ويجعل ما يجد من ملابسه تحت رأسه حتى أتاه أحدهـم بفراش.

وكانت زوجته وبناته ما زلن في جبلة، محظور عليهّن الخروج من سوريا. فالتقى الشيخ عز الدين بشيخ مغربي ـ اسمـه محمد العلمـي، كان قد هاجـر الى المدينـة حـين احتـلال الفـرنسيين

للمغرب، ثم خرج بعدها الى فلسطين ـ عرض عليه أن يكلف بعض أصدقائه في الجيش المغربي ـ التابع للفرنسيين ـ بالوساطة لدى الفرنسيين ليسمحوا لعائلته بالخروج. فرفض الشيخ عز الدين ذلك، متكلاً على الله، رافضاً الاستعانة بالكفار. فسر الشيخ المغربي منه وقال له: انهم سيأتون إن شاء الله. فأتوا بعد مضي خمسة أيام من ذلك.

وكان وإخوانه جميعاً يسكنون مع عيالهم داراً واحدة ويأكلون معاً، بحيث تطبخ كل يوم إحدى النساء للجميع، وكانت تقدم اليه جميع النقود التي يحصل عليها إخوانه فيضمها الى الوارد الكبير الذي كان يأتيه من التعليم وعقد الانكحة والوظيفة، فلا يستنفدها في البلاليع الكبيرة لهذه المدنية الغربية القذرة رغم أنه لم يكن في بيته أريكة حتى ولا بساط، وإنما كان ينفق اليسير منها عليهم ويشتري بالباقي أسلحة للجهاد، وهذا كان دأبه منذ القديم، حتى أنه لما كان في جبلة، كلف أحد اخوانه أثناء قتاله للافرنسيين، أن يبيع له داره، فاشترى بثمنها أربعاً وعشرين بندقية.

وكان كثير العبادة، يحرص على صلاة الجماعة، والقيام قبل الفجر للتهجد، والأذكار بعد الصلاة، والصيام. . وكذلك كان أكثر إخوانه. وبجده ودأبه أصبح إخوانه متعلمين واعين، بعد أن كان أكثرهم أميين.

وكان عندما يزور المزارعين يساعدهم في السقي وحمل الماء

والحراسة كما كان يَنْهَى في خطبه ودروسه رجال القرى عن تشغيل نسائهم بالفلاحة وجلب الحطب.

وطلبت اليه الحكومة تعليم الموظفين العرب، اللغة العربية في الليل. . فرأى أحدهم مرة ثملاً، فصفعه على وجهه وطرده، ورفض التعليم إلا بشرط أن يوافق على كل موظف، وألا يدخن أحد أثناء الدرس.

وكانت طريقته قادرية، ولكنه لم يكن يسير فيها مغمض العينين بل يأخذ منا الخيرّ المفيد مما وافق الكتاب والسنة، ويترك ما رابه منها، ولم يكن يدعو أحداً الى طريقته، بل كان يحارب البدع ويدعو الى تركها، وقد أبطل كثيراً مما كان يُصنع على المآذن وفي المساجد من بدع، مما أثار عليه بعض الجهال والمسترزقين بالبدع، فكادوا له حتى عُزل عن الخطابة، ولكنهم خُذلوا، فأعيد رغم أنوفهم، وجربوا سهماً آخر، حين صعد أحد الخطباء مدفوعاً منهم، ولكن الناس أنزلوه، وصعد الشيخ. .

وكان لا تأخذه في الحق لومة لائم، فقد طلب منه عندما مات عباس البهاء ـ وهو كغلام أحمد القادياني رأس فرقة من فرق الضلال التي تتمسح بالاسلام ـ أن يؤبّنه، فرفض، فطلبوا اليه أن يخرج على الأقل، فأبى، وخطب منكراً على كل من مشى في جنازته أو حمده. وعند إقامة نصب (عمود فيصل) الذي أقامته الحكومة الانكليزية رفض الحضور أو إلقاء كلمة.

وقامت سنة ١٣٤٧ ثورة، خُشي معها أن يهجم اليهود يوم

الجمعة على الجوامع، فطلب أحد المشايخ من الانكليز حراسة المساجد، فأرسلوا الجنود لذلك، فغضب الشيخ، وخطب بأن المسلمين لا يجوز أن يحفظهم عدوهم الكافر من عدو آخر والواجب أن يحفظوا هم أنفسهم، فحدثت ضجة وطلبه الانكليز فحققوا معه، فأضربت البلد مما اضطرهم الى إخلاء سبيله.

وتابع الشيخ عمله في الاستعداد حسب خطة محكمة للقيام بحركة للجهاد واسعة، وكانت له قدرة عظيمة على بث دعوته واستمالة الناس اليه بإيمانه الصادق، فكثر أتباعه في شمال فلسطين عامة وفي حيفا خاصة، وكان يذهب الى كل بلد وقد يقيم في بعض البلدان أياماً، يتعرف الى الذين لديهم الاستعداد للثورة، فينظمهم، ويجعلهم يشترون للفقراء منهم البنادق التي يحتاجونها، ويعين لكل فئة منهم رئيساً ليتلقى التعليمات والوقت الذي تحدث فيه الثورة، فقد كان في نيته أن تقوم الثورة في كل أنحاء فلسطين بآن واحد.

وعندما رأى ـ سنة ١٣٥٤ ـ أنَّ وقت الثورة قد حان، ترك الوظيفة، وخطب في مسجد حيفا خطبة مشهورة، دعا فيها الى الخروج والقتال، واندفع على أثرها الى الجهاد مع إخوانه، وكانت لهم مواقف رائعة، وكان مما قاموا به أن قتلوا حاكم لواء الناصرة وبعض كبار قواد الانكليز وكانوا خلال ذلك يتدربون على القتال، ويحثُّون الناس على الاستعداد وحمل السلاح.

وفي إحدى جولاته مع بعض اخوانه، حيث كانوا يتدربون في

الجبال ـ قرب قرية فقوعة ـ مر شاويش يهودي مع ثلاثة من الجنود العرب في الطريق، فقال الحارس المكلف بالمراقبة ـ واسمه محمود السالم ـ لزميل له ـ يسمى حسن الباير ـ أن يخبر الشيخ أن هناك كافراً يمر في الطريق فهل يأمر الشيخ بقتله؟ ولما ذهب هذا وجد الشيخ نائماً، فكره أن يزعجه زاعماً أن روح كافر لا تستحق إيقاظ الشيخ، فعاد وقال لزميله : اقتله. وعندها استيقظ الشيخ وساءه ما فعلوا، وأمر بالانتقال فوراً. وعندما علمت الحكومة بالأمر أخذوا بتعقبونه بقوة كبيرة تزيد على خمسمائة جندي تحوم من فوقهم الطيارات، وتصحبهم السيارات المدرعة، حتى حاصروا المجاهدين في جبال يعبد قرب جنين وطلبوا اليه الاستسلام فأبى، وكان عددهم أربعة عشر رجلاً، ودارت معركة حامية استمرت ثماني ساعات ـ من الفجر الى العاشرة صباحاً ـ انجلت عن مقتل أربعة من المجاهدين، هم: الشيخ عز الدين القسام والشيخ عمر حسن السعدي والشيخ يوسف عبدالله والرابع مصري يسمى حنفي. وقبضوا على الباقين ومنهم الشيخ أبو درة، والشيخ داود الخطاب ـ ويقيم الآن في دوما ـ وكان ذلك يوم الاربعاء ٢٣ شعبان سنة ١٣٥٤. وفي اليوم الثاني، الخميس، دُفن الشهداء بموكب ضخم، وأضربت البلد ـ حيفا ـ اضراباً عاماً لم تعرف مثله، وزاد عدد الجماهير التي شيعتهم على ثلاثين الفاً، وقد خرج الموكب بعد الصلاة عليه في الجامع الكبير عند الظهر فلم يصل الى المدافن إلا في الخامسة مساءً.

غدا توفى النفس ما كسبت ويحصـــد الزارعــون ما زرعوا
إن أحسنوا، أحسنـوا لانفسهم وإن أســاؤا، فبئس ما صنعوا

ومما يذكر عن المعركة أن الشيخ أمر بعدم إطلاق الرصاص على رجال البوليس الوطني الذين كانوا في المقدمـة وورائهـم الجنـود البريطانيون، ولما اقتربت القوة العسكرية منهم، ألحـوا ثانية على الشيخ بأن يأمرهم باطلاق الرصاص على الصفوف الاولى فأبى، ولذلك لم يقتـل ولـم يجـرح أحد من الوطنيين وقـد قال الشيخ لرجاله : يجب أن لا تطلق رصاصة على أحد من أهل البلاد ولو كان هو البادىء باطلاق النار علينا.

﴿ولاَ تَسْتَوي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئة، ادْفَعْ بالتي هي أحْسَنُ. فإذا الذي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنَّه وليٌّ حَيممٌ. وما يُلَقَّاها الا الـذين صَبَرُوا، وما يُلَقَّاها الا ذُو حظٍّ عَظيمٍ﴾. فصلت ـ ٣٤، ٣٥.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المسلم إنسان إيجابي

للأستاذ

محمد هيثم الخياط

صفر ١٣٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الاسلام يجعل من المسلم انساناً ايجابياً . .

لأنه يضعه مباشرة أمام مسؤولياته ، ولا يسمح له بالتهرب لحظة واحدة من هذه المسؤوليات بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

ولأنه يضعه دائماً في وضع كفاح . . كفاح للوصول الى الرزق الحلال . . وكفاح للشر في المجتمع لاقرار النظام الفكري (الايديولوجي) الذي يحمله في موضع السيادة .

ولانه يكره الضعف ويثير الضعفاء ولا يسمح بالتخاذل والاستسلام .

١

فالانسان في نظر الاسلام ليس روحاً علوياً هبط من السماء . . لا ! وليس حيوانساً راقياً ولا حيواناً ناطقاً ولا حيواناً مدنياً بالطبع . . . ولكنه مخلوقٌ مكلف !

والاسلام واقعي حين لا يطلب من الانسان شيئاً في خارج حدود وسعه وطاقته وامكاناته :

﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [1]

﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [2]

ولكنـه واقعـي كذلك حـين يجعلـه في حدود هذه الطاقـات والامكانات والوسع مسؤولاً تمام المسؤولية :

﴿ فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [3]

﴿ ولتُسألنَّ عما كنتم تعملون ﴾ [4]

﴿ وسوف تُسألون ﴾ [5]

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [6]

« كللكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

ومزايا هذه المسؤولية الاسلامية أنها اولاً تقيم الانسان مباشرة امام مسؤولياته بصورة فردية :

﴿ وأن ليس للانسـان إلا ما سعـى . وأن سعيه سوف يرى ﴾ [7] .

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ [8]

﴿ كل امرىءٍ بما كسب رهين ﴾ [9]

---

(١) البقرة ٢٨٦

(٢) الطلاق ٧

(٣) الحجر ٩٢ ـ ٩٣

(٤) النحل ٩٣

(٥) الزخرف ٤٤

(٦) الاسراء ٣٦

(٧) النجم ٣٩ ـ ٤٠

(٨) الاسراء ١٣

(٩) الطور ٢١

وأنها ثانياً لا تسأله عن مسؤولية سواه ولا تحمله مسؤولية أحد مخففة عن ذلك الأحد:

﴿ ولا تسالون عما كانوا يعملون ﴾ (١)

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (٢)

وأنها ثالثاً مسؤولية أمام الله، تجعل الانسان دائماً على حذر وعلى مراقبة لأعماله خشية أن يخل بهذه المسؤولية اخلالاً يحاسب عليه يوم القيامة.. يوم ﴿لا تظلم نفس شيئاً﴾ (٣)

﴿ يومئذٍ يوفيهم الله دينهم (حسابهم) الحق ﴾ (٤).

وهذه النقطة الثالثة من أهم مزايا المسؤولية في الاسلام ذلك لأنها تخلق في الانسان نوعاً من السلوك يطلق عليه في المصطلح الاسلامي اسم « التقوى » يبدأ بالاحسان هو:

« ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٥)

ويجعل كثيراً من الاختبارات للمؤمن لتحقيق هذه التقوى.. هذه المراقبة لله.. كالصيام الذي هو لله وهو يجزي به لانه قد يصوم المرء أمام الناس تظاهراً وهو مفطر في بيته بينه وبين نفسه إن لم يكن من المتقين ولذلك كتب الله الصيام:

---

(١) البقرة ١٣٤

(٢) الزمر ٧

(٣) يس ٥٤

(٤) النور ٢

(٥) رواه مسلم

﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [1]

فاذا كانت الشرائع والنظم الاخرى تفسح للانسان مجالاً أن يتهرب من مسؤوليته حين لا يكون عليه رقيب فان الاسلام لا يفسح له هذا المجال وهو مسؤول في كل لحظة:

﴿ اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.. ما يلفظ من قول إلا رقيب عتيد ﴾ [2]

والذي يفقه هذا النمط من التربية لا يستغرب بعدئذ أن يأتي بدوي من بداة الصحراء بأعظم لؤلؤة من كنوز كسرى وهو يسترها تحت ردائه المرقع لأمير المؤمنين عمر يسلمه إياها.. فيسأله بعض من حضر: ألم تجد غيرها؟ فيجيبه جواب المسلم العارف بمسؤولياته: لولا الله ما أتيت بها!! ثم يسألونه من هو فيأبى الاجابة كيلا ينقص من ثوابه عند الله عز وجل!

ولنظام المسؤولية في الاسلام مزية رابعة رائعة لا يمكنك ان تجد مثلها في أي نظام آخر.. ذلك أنه لا يسمح للمسلم أن يتهرب من هذه المسؤولية.. ان الاسلام كما ذكرنا يخلق من المسلم شخصاً ايجابياً وههنا مظهر من أجلى مظاهر هذه الايجابية لا يسمح الاسلام للمسلم أن يهرب من واقعه ولكنه يريد له أن يبقى دائماً في صميم هذا الواقع!

---

(١) البقرة ١٨٢

(٢) سورة ق ١٧ و١٨.

إن الفرار من المعركة شيء مستكره في الاسلام في حالة الحرب:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُولّوهم الأدبار.. ومن يولهم منكم يومئذ دُبُره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾. [1]

وهو كذلك شيء مستكره في الإسلام في كل حالة ولا يجيزه الإسلام بأي شكل من الأشكال!..

ولعل ذلك احد اسباب تحريم الخمر والمخدرات وكل مسكر لأن الاسلام لا يسمح للمسلم أبداً أن ينسى أو يتناسى واقعه لأن في ذلك الخطوة الاولى من خطوات الضعف التي يعقبها الانهيار... والاسلام يعدّ ذلك إثماً كبيراً أو على الأقل شعبة من شعب الاثم الكبير.

٢

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الانسان مفطوراً على حب المعرفة... منذ أن علَّم آدم الاسماء كلها.. ولقد أراد الله عز وجل أن ييسر للانسان وسطاً يستطيع فيه أن يستغل فيه حب المعرفة هذا إلى أبعد الحدود... فجعله في الدنيا مكلفاً بالبحث عن المعرفة، وخاطب بذلك مشاعره وحواسه كما خاطب ضميره وعقله.. ودعا إلى أن يبحث ويفكر ويتأمل ومنَّ عليه بذلك وعدّه أمراً يستحق الشكران :

---

(١) الانفال ١٥ و ١٦

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١)

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . . خلق الإنسان من علق . . اقرأ وربك الأكرم . . الذي عَّلم بالقلم .علّم الانسان ما لم يعلم﴾(٢)

ونعى على الذين لا يستغلون هذه الهبات التي هي الحواس والعقل واعتبرهم كالبهائم بل وأقل من ذلك لأنهم وُهبوا هذه الهبات ولكنهم لم يستعملوها .

﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بهاولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل ! ﴾ (٣)

ومن هنا تنبع نقطة أخرى من نقاط الايجابية الاسلامية هي ضرورة استغلال هذه الحواس وهذا العقل وعدم جواز إهمالها والأهم من ذلك عدم جواز اتباع أي رأي دون علمٍ به ودون تحقق !

﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم . . إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ (٤)

---

(١) النحل ٨٧

(٢) اقرأ ١ ـ ٣٦

(٣) الاعراف ١٧٩

(٤) الاسراء

٣

الله قد أنشأ الانسان من الأرض، واستعمره فيها لينظر كيف يعمل.. والقرآن يجعل الأرض مستقراً ومتاعاً للانسان:

﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [١]

ينبغي أن نشكر الله عليه:

﴿ ولقد مكنّا كم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾ [٢].

ولقد قضى الله سبحانه ـ لأمر يريده ـ بأن يعقب نزول الانسان إلى الارض كفاح مرير بين الناس:

﴿ قلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو ﴾ [٣].

وفي مرحلة هذا الصراع والتزاحم، على الانسان المسلم أن يثبت وجوده!

عليه أولاً أن يثبت وجوده بالنسبة لهذه الأرض التي استعمره الله فيها فيستغل رزقها من حله:

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي ﴾ [٤]

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ﴾ [٥].

---

(١) البقرة ٣٦
(٢) الاعراف ٩
(٣) البقرة ٣٦
(٤) طه ٨١
(٥) البقرة ٢٦٦

﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً ﴾ [1].

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [2].

حتى إن الله يجعل تحريم الحلال بمنزلة استحلال الحرام.

﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله! ﴾ [3].

فالاسلام لا يسمح للمسلم أن يهرب من الرزق لأن في هذا شيئاً من السلبية غير قليل.. صحيح أنه لا يجعل الدنيا كل شيء في الموضوع ولا يسمح للمسلم أن يتكالب عليها ولا يقصدها لذاتها.. ولكن ليس في الاسلام إفراطٌ ولا تفريط:

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [4].

﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ [5]

كان رسول الله عليه السلام جالساً ومعه أصحابه فمر رجل سأل عن النبي عليه السلام فقالوا: هو زاهد متعبِّد فقال: من يطعمه؟ قالوا: كلنا نطعمه قال: من يكسوه؟ قالوا: كلنا نكسوه قال: «كلكم خيرٌ منه! لأن يأخذ أحدكم حبله على غاربه فيحتطب فيأكل خير له من أن يكون عالةً على الناس.. اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى».

---

(١) البقرة ١٦٨

(٢) البقرة ١٦٨

(٣) المائدة ٨٧

(٤) القصص ٧٧

(٥) البقرة ٢٠٠

٤

ثم إن الاسلام يحلُّ عقيدة القدر بشكل هو أروع ما يمكن أن يصل اليه التصور. . فالمسلم لا يؤمن بأنـه مجبـر عى ما يأتيه من أفعال. . ذلك قول المشركين: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء ﴾ [١]. . ولا بأنه مختار مطلق الاختيار من تلقـاء نفسه. . يفعل ما يشاء هو وحده، ويقوم بما يريد. . فيفرح (أي يغتر) حين يأتـي عمـلاً خـيرّاً، ويصـدم حـين يصـاب بمصيبـة فادحة. . ولكن الاعتدال!. . انه مكلف. .أن الله امره وعليه أن يطيع أمره. . وكلفه وعليه أن يتبِّع تكليفه. . وبينَّ له سبل عبادته وعليه أن يعبده كما بين له. . . ـ : ﴿ إياك نعبد ﴾!

وانه بالاضافة إلى ذلك محتاج إلى معونة الله وإرشاده وهدايته. . مفتقـر إلى ارداة الله لتحقيق ما يصبـــو إليه. . ودعــاؤه إياه من العبادة. . بل هو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « الدعاء هو العبادة ». . . . ـ : ﴿ إياك نستعين ﴾!

وبايمان الانسان بعقيدة القدر هذه، تبقى حياته خصبة منتجة، ولا تعثِّره الصدمات عن متابعة الطريق، ولا تقعده المصائب عن القيام بالواجـب. . في الايمـان بالقــدر حلٌ لمشــاكل الماضي. . وارتكاز متين للمستقبل. . يجعل قلب المؤمن في اطمئنان دائم لما

---

(١) الانعام ١٤٨

جرى من قبل الله عز وجل ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بأذن الله . . ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه! ﴾ (١).

﴿ ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأهـا إن ذلك على الله يسـير. لكيلا تأسـوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا (تغتروا) بما آتاكم ﴾. . (٢)

﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (٣).

جملة واحدة تحل المشكلة الكبرى. وتقيم الانسان مقاماً واقعياً في الحياة. فالمؤمن القوي، كما يقول شاعر الاسلام محمد اقبال ـ : « هو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يُرد ». وإيمانه بالقدر يحطم في نفسه روح الخمود والكسل. . كما يحطم روح الغـرور واليأس. . ويجعله دائماً قوياً لأنه يستعين بالله .. والله أكبر!.

« يا غلام! احفظ الله يحفظك. . احفظ الله تجده تجاهك. . اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن الله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك! ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك!

رفعت الاقلام. . وجَّفت الصحف! »

وهكذا يجعل الاسـلام من عقيدة القـدر مصـدر قوة ومبعـث

---

(١) التغابن ١١

(٢) الحديد ٢٢ و ٢٣

(٣) النساء ١٩

ايجابية في حياة المسلم، على خلاف ما يتصوره بعض الغربيين حين يمرون ببعض قرى الأناضول فيسمعون منهم أمثال كلمات (قُسمت) و (مقدر) و (مكتوب) ويظنونها تعني الامعان في السلبية، وما هي في حقيقة الأمر إلا ينبوع صاف للايجابية لما فيها من عزوفٍ عن العيش في الماضي وفي مصيباته وأكداره وانتقال إلى العيش في الحاضر والمستقبل فحسب.

٥

يرى بعض الناقدين من الكفار أن الاسلام مناقض بطبيعته للعمل والسعي في سبيل الحياة لأنه يفهم من الاسلام أنه التواكل وتسليم الامر إلى الله بغير حاجة إلى الحول والقوة لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وجهلُ هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم باللغة. . لأن الاسلام إلى الله وحده وتحريم الاسلام لغيره تأبى على المسلم أن يسلم للظلم أو يسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة، وينهاه أن يستسلم للخيبة والقسمة الجائرة، وأن يستسلم لكل قضاء لا يرضاه ويعلم أن الله يرضاه!

إن الاسلام قد قام منذ كان في الدنيا أنبياء جاؤوا بالاسلام بعمل أول سبق الأعمال كلها هو الثورة على الأصنام وتحطيم الطواغيت. . ومن هنا نستطيع أن نبين لماذا قاوم النمروذ سيدنا ابراهيم، ولماذا قام فرعون في وجه موسى عليه السلام.

إن النمروذ لم يجادل سيدنا ابراهيم في أن الله هو الخالق لهذا الكون، ولكنه جادله فيما تيقنه من أنه أتى يريد أن يحطم طغيانه وجبروته عى الناس. . فكان أن ادعى أنه إذا غضب على إنسان وقرر ان يموت فسيموت وإذا عفا عنه حيي :

﴿ ألم تر إلى الذي حاجَّ ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ﴾ (١)

وإن فرعون وجد الخطر في موسى لأنه جاء يبعث أمته الخائفة ليتحرروا من عبوديتهم له :

﴿ إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾. (٢)

والذي يدلنا على مبلغ الذلة والضعة والسلبية البالغة في بني اسرائيل الذين عبدوا فرعون إذ ذاك من دون الله أو أشركوه بالله الموقف الذي تلا نجاتهم من فرعون إذ قال لهم موسى :

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين. . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ﴾ (٣) . ﴿ انا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون! ﴾ (٤)

---

(١) البقرة ٢٥٨

(٢) القصص ٤

(٣) المائدة ٢١ ـ ٢٢

(٤) المائدة ٢٤

من أجل ذلك كتب الله عليهم التيه . . وما هو التيه؟ إنه تربية جيل جديد يؤمن بالله وحده ولا يستسلم لغيره . . في الصحراء التي تربي المرء على الخشونة والأنفة والايجابية البالغة . . وإذ ذاك بعد أن قضوا هذه المدة ، وانقرض الجيل السلبي الخانع ونشأ الجيل الايجابي المسلم استطاعوا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ويتبوأوا فيها المركز الذي اراده الله .

إن من أشرك بالله شيئاً مهما كان حقيراً استعبده ذلك الشيء ، والله عز وجل يَكِلُه إليه :

« ان الله تعالى يقول : أنا خير قسيم لمن اشرك بي : من أشرك بي شيئاً فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك بي أنا عنه غني ! »

وإن في اخلاص الاسلام لله والانخلاع والانعتاق من عبودية كل ما سواه من أشخاص أو نفوس أو أهواء لأغنى منبع للايجابية الخالصة . . إنَّ المسلم الذي يدوس بقدمه على الدنيا وعلى ما فيها من طغاة وجبارين ، ولا يبالي بما فيها من مصاعب وأهوال وشرور لأنه يعلم أن الله معه و(الله أكبر) . . لهو المثال الحق للايجابية الكاملة !

إن الاسلام لله عز وجل وحده لهو معراج يرقى به المسلم إلى الله من اسفل سافلين الى أعلى عليين :

﴿يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ (١)

---

(١) الانشقاق ٦

٦

من هنا يمكن أن تستجلي السرَّ في أن الله عز وجل يهاجم الضعف دائماً ولا يجعله عذراً للضعيف ابداً.

﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يَرْجع بعضهم الى بعض القول. . يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا: لولا انتم لكنّا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين ﴾ (١)

﴿ إنَّ الذين توّفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيمَ كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الارض. . قالوا: ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنَّم وساءت مصيراً ﴾ (٢)

ويريد دائماً ان يخلق من صميم هذا الضعف قوة هائلة بسلاح عظيم هو الصبر وإذ ذاك يخفف الله عز وجل عن المؤمن:

﴿ الآن خفف الله عنكم - وعلم أن فيكم ضعفاً - فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين﴾ (٣).

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الارض ﴾ (٤)

---

(١) سبأ ٣١ و ٣٢

(٢) النساء ٩٧

(٣) الانفال ٦٦

(٤) القصص ٥و٦.

٧

لا يسمح الاسلام للمسلم أن يكون ساذجاً يستغل من قبل أي كان بل يريد منه أن يكون واعياً:

مات ابراهيم ابن رسول الله الحبيب، وبينما كانوا يدفنونه إذ كسفت الشمس، فضج الناس وقالوا: كسفت الشمس لموت ابراهيم.

كان بامكان النبي عليه السلام أن يغض الطرف عن هذه الحادثة في مثل هذا الموقف.. ولكنه وهو رسول الاسلام.. دين الايجابية في كل شيء.. في العقل والتفكير.. أبى عليهم أن يفكروا بهذه السذاجة.. فقرر ـ وهو في موقف حزنه العميق هذا ـ بكل صراحة ووضوح:

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله! لا تُكْسَفَان لموت أحد ولا لحياته »..

ولا يسمح الاسلام للمسلم أن يشلَّ هذا العقل والتفكير، وان يتابع أياً كان على العمياء.

﴿قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا.. أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ [1].

« لا يكن أحدكم إمّعة يقول أنا مع النسا إن احسن الناس أحسنت وإن أساؤا أسأت.. ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وان أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ».

---

(١) البقرة ١٧٠

ويزّود القرآن المسلم بزاد للرجولة الحقة هو الصبر في البأساء والضراء:

﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [1].

٨

يضع الله سبحانه المسلمَ في وضع ايجابي لا نظير له، حين يجعله نائباً عنه في الدعوة الى الخير وكفاح الشر:

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [2].

ويقيمه في وضع المكافح للشر الذي يمثله الشيطان وجهاً لوجه مزوداً بسلاح قوي منه مستمداً منه عز وجل العون والقدرة على هزيمته:

﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ ﴾ [3]

﴿ ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً ﴾ [4]

﴿ ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ [5].

ويدعو المسلم الى كفاحه مبيناً أنّ كيد الشيطان ضعيف ان اعتمد العبد على ربه، وأنه لا يستطيع أن يتغلب على المسلم إن

---

(١) البقرة ١٧٧
(٢) آل عمران ١٠٤
(٣) الكهف ٥٠
(٤) الاسراء ٥٣
(٥) فاطر ٦

اعتصم بالله. وإن الشيطان لا يستطيع التغلب على المرء ان كان ايجابياً بل ان السلبية وحدها أمام الشيطان هي التي تسمح له بالاستحواذ على المرء:

﴿ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [1]

﴿ ان كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ [2]

﴿ وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ [3]

فمن أطاع الشيطان فقد أضاع نفسه فظلمها ولم يظلمها الشيطان:

﴿ قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين ﴾ [4]

واذا جاز الانسان هذه الرحلة.. مرحلة اعلان الحرب على الشر في حد ذاته فان عليه أن ينتقل الى حرب اخرى يعلنها على قوى الشر في المجتمع...

وفي هذه المرحلة بالذات تتجلى الايجابية الاسلامية بشكل واضح.. بسلوكٍ يسمى في المصطلح الاسلامي « الجهاد ».

والجهاد على خلاف المعنى المتبادر لاذهان العامة ليس معناه مجرد الحرب ولا الحرب المقدسة كما يسميه بعض الكتاب الغربيين.. ولكن معناه بذل الجهد في حصول ما يحبه الله تعالى من خير ودفع ما

(١) الحجر ٤٢
(٢) النساء ٧٦
(٣) ابراهيم ٢٢
(٤) الاعراف ٢٣

لا يحبه من شر. وهو خطة خطها الانبياء المسلمون منذ القدم ومن اوائلهم سيدنا ابراهيم عليه السلام:

﴿ وجاهِدوا في الله حقَّ جهاده.. هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم ابراهيم، هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا، ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ (١)

﴿ إن ابراهيم كان أمَّة قانتا لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين (٢) ﴾.. ﴿إذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين (٣) ﴾ من اهم عناصر هذا الجهاد ما يسمى في مصطلح الاسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائر »

« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام الى إمامٍ فأمره ونهاه فقتله »

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (٤).

---

(١) الحج ٧٨

(٢) النحل ١٢٠ ـ ١٢٢

(٣) البقرة ١٣١

(٤) آل عمران ١١٠

﴿ الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ (١).

وهو ما نرجو ان نتعرض اليه بالتفصيل في بحث مستقل.

ومن اهم عناصر هذا الجهاد أنه يقر المحبة في الله والبغض لله. وهو اذا كان يوجب على المسلم أن يدعو اقاربه الادنين قبل غيرهم الى الخير، فانه يوجب عليه ان لم يستجب احدهم ان يكون ايجابياً في مقاطعته حين يلزم الامر والا فلا بأس من معاملته بالحسنى.

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ (٢).

﴿ وانذر عشيرتك الاقربين ﴾ (٣).

﴿ وقد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَءاؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله.. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٤).

﴿ ووصينا الانسان بوالديه حُسناً، وإن جاهداك لتُشْرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعمها ﴾ (٥).. ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ (٦).

ومن أهم عناصر هذا الجهاد أن المرء مسؤول عنه بنفسه وواجبه

---

(١) الحج ٤١
(٢) التحريم ٦
(٣) الشعراء ٢١٤
(٤) الممتحنة ٤
(٥) عنكبوت ٨
(٦) لقمان ١٥

أن يجاهد في سبيل الله ولو بقي وحده لأنه انما عليه نفسه، ولا يهمه الآخرون الذين يقعدون عن نصرته:

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم! لا يضركم من ضلّ اذا اهتديتم ﴾ [١]

وهي سنة الرسول الامين يوم وقف وحده ينادي في بطحاء مكة ان (لا إله إلا الله) ويوم قال لعمه:

« والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر أو أهلك دونه ما تركته »

هذا من ناحية.. ومن ناحية ثانية فهو مسؤول عن هذا الجهاد وإلا عوقب كما يعاقب العاصي:

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ قالت امّة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا: معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾. [٢]

﴿ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين

---

(١) المائدة ١٠٥

(٢) الاعراف ١٦٣ ـ ١٦٥

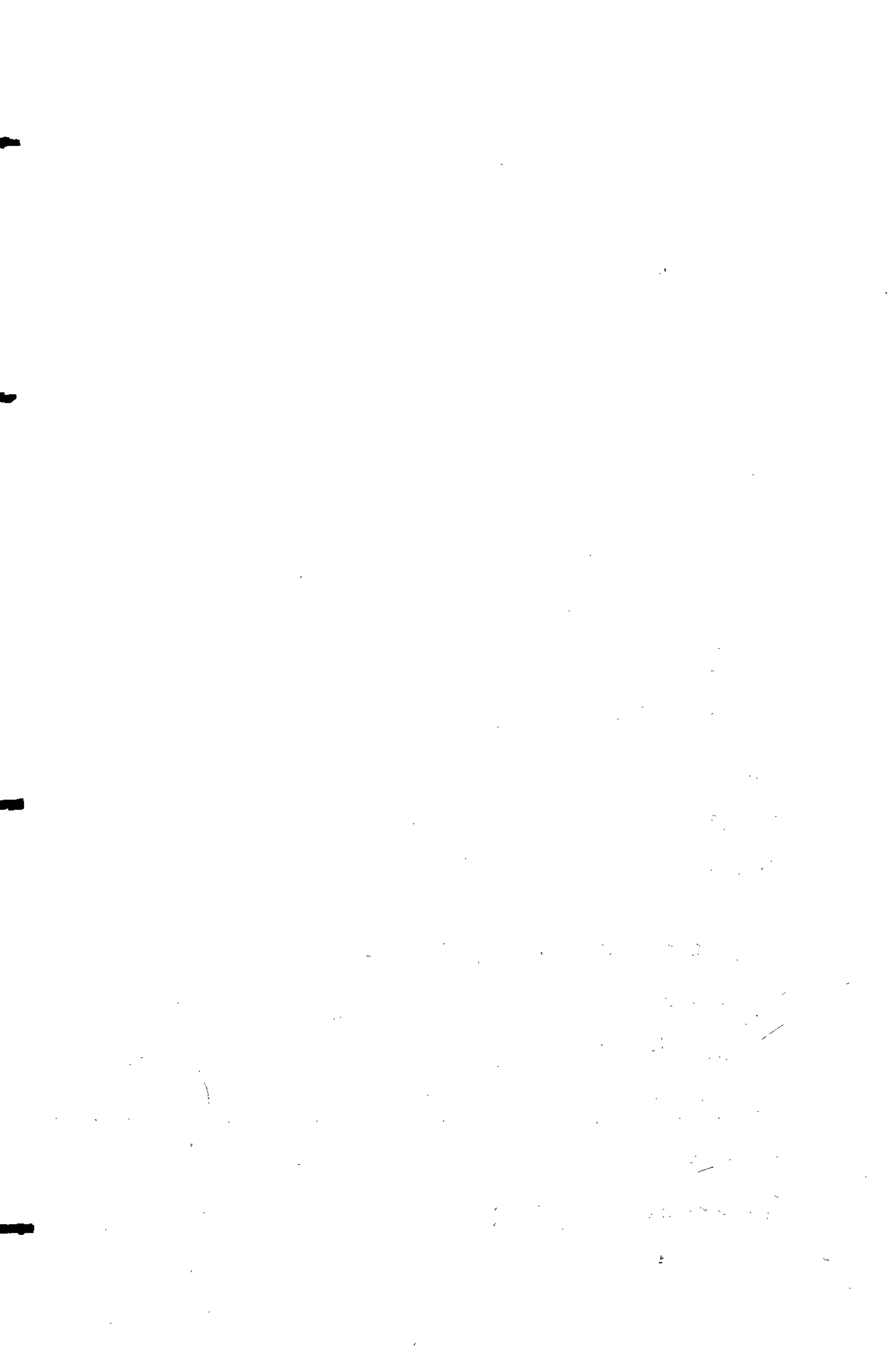
كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ [1].

كنت اظن حينما بدأت أكتب هذه الكلمات اني سأعرض من عناصر الايجابية الاسلامية ما يبرزها واضحة للعيان ولكنني اكتشفت الآن وقد كتبت هذا القدر من الصفحات انني لم افعل شيئاً.. وأرجو أن أوفق الى القيام بهذا الواجب في فسحة الاجل الباقية.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

---

(١) المائدة ٧٨ ـ ٨١

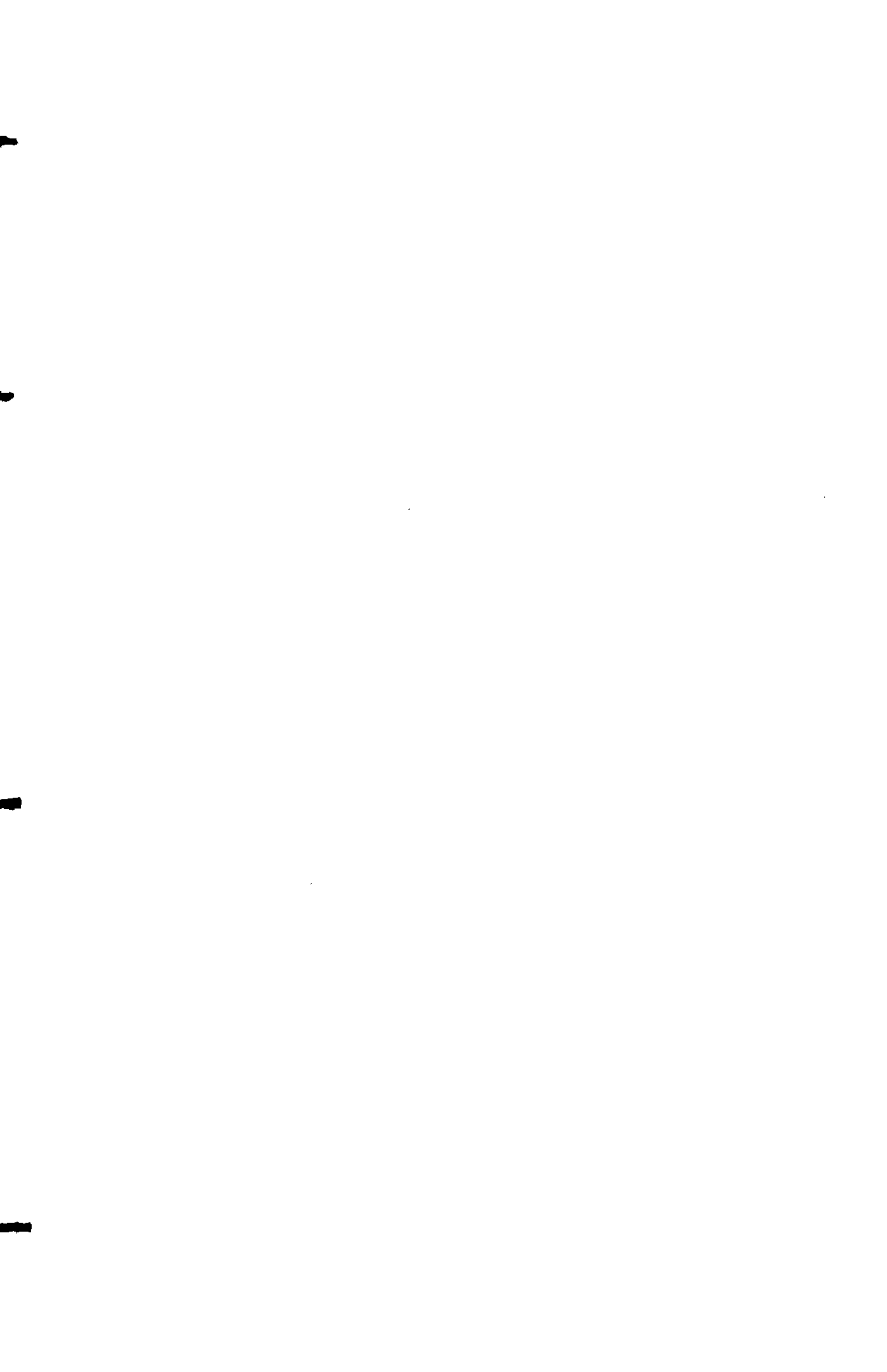


عبد الحكيم الأفغاني

للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

صفر - ١٣٨٣



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قدّر فهدى، والصلاة والسلام على رسوله مبينٍ طريق الهدى. وبعد، فلولا الحاجة إلى هذه الرسائل لما أخرجنا هذه الرسائل. وحاجات المسلمين، في مختلف بقاع ديار الإسلام، كثيرة عديدة، إلا انها تكاد أن تعود إلى أصل واحد، هو الافتقار إلى الرجال، الرجال الذين يحملون الروح المتوثبة التي تأجَّج بالإسلام، ويتصفون بالفهم الواسع العميق للاسلام، ويستقيمون على سبيل الإسلام، ويحكِّمون في جميع أمورهم موازين الإسلام.

والرجل المسلم الذي نريد، له جوانب عدّة، ولهذا كان الاهتمام بدراسة أعلام كثُر، يساعد كل منها على إضاءة وإيضاح جوانب من هذه الجوانب.

فعزّ الدين للدعوة والجهاد وعبد الحكيم للزهد والاستقامة وبقية الأعلام تأتيك تباعاً أن شاء الله تعالى.

لجنة المسجد

عبد الحكيم الأفغاني

١٢٥١ ـ ١٣٢٦

١٨٣٥ ـ ١٩٠٨

١ ـ حياته

ولد الشيخ عبد الحكيم الأفغاني في قندهار ـ من بلاد الأفغان ـ سنة ١٢٥٠ ـ ويقال سنة ١٢٥١ ـ وبارح بلاده وهو في شرخ الشباب إرتياداً للعلم في بلاد الهند وغيرها، وجاور مدة في الحرمين الشريفين وبيت المقدس ثم نزل دمشق واتخذ مدرسة دار الحديث الأشرفية مقامه زهاء ربع جيل، حتى توفاه الله بها في اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٢٦.

٢ ـ خَلْقه وخُلُقه

كان طويل القامة، قمحي اللون، أسود العينين، واسع الجبهة، كثيف اللحية، عصبي المزاج، وقور الطلعة، عظيم الهيبة، لا يعرف سوى الجد في جميع أموره، لم يتزوج قط، لا رغبة عن السنّة، فالزواج ليس له نفس الحكم دائماً، وإنما يختلف حكمه باختلاف الناس وتفاوت أحوالهم فيكون فرضاً، وواجباً،

ومستحباً، ومكروهاً، وحراماً. فيتعينّ حين يعصم عن حرام، ويحرم متى أفضى إلى حرام، ويسنّ في الحالة الغالبة، لأغلب الناس، لا لهم جميعاً فقد تركه كثير ممن لا يشكّ في دينهم وعلمهم وورعهم وحرصهم على التمسك بالسنّة، كالتابعيّ الكبير الزاهد العابد الصالح عامر بن عبد القيس، والفضيل بن عياض، والإمام النووي، وابن تيمية، وجمال الدين الأفغاني، والشيخ طاهر الجزائري، وكثير غيرهم.. تركوه، لأنه الأفضل في حقهم وما أحاط بهم من أحوالهم كما أن الأفضل لسائر الناس الزواج إذا قاموا بحقوقه. فالشيخ عبد الحكيم لم يتزوج، لكونه من أرباب التجرد للعلم والنسك، حتى أنهكت قواه كثرة العبادة فاحدودب ظهره قبيل وفاته بمدة وجيزة.

لم يُشهد في عصره مثيله في الورع والزهد والتقشف والعبادة فضلاً عن فضله وعلمه. وكان يريد تلامذته على أن يفهموا ما يقرره تمام الفهم، فإذا استعاد كلامه التلميذ مستفهماً أو مستثبتاً يجيبه بسعة صدر وقبول وإذا ألقى عليه إشكالاً أو إعتراضاً في محله يتلقاه بكل ارتياح وإغتباط، وإذا كان السؤال خارجاً عن الصدد تحمر وجنتاه ويغضب غضباً شديداً لأنه عصبي المزاج، ثم يتراجع الى دائرة الحلم رويداً رويداً وينصح للسائل برفق أن يقلع عن مثل هذه الاسئلة الفارغة.

٣ ـ سيرته

كان قليل الطعام والمنام والكلام. صارفاً أغلب أوقاته في المنافع

من تعليم وتقرير ومطالعة وتحبير، وعبادة وتلاوة قرآن، بترتيب وتوزيع ونظام.

ونسخ بيده عدة مصاحف شريفة ووقفها في سبيل الله تعالى، إذ أنه كان من أرباب الاجادة في الخط.

وكان يضحي كل سنة، وكثيراً ما يتصدق في السر..

٤ - تواضعه واخلاصه

كان على جانب كبير من التأدب مع العلماء واحترامهم فلا يجلس بحضرتهم إلا على ركبتيه مع هرمه وشيخوخته، كما أنه كان كثير التواضع للفقراء والمساكين، غير أنه يتميز من الغيظ إذا طلبوا إليه كتابة تميمة ونحوها من التعاويذ فقد كان مناوئاً للبدع التي لم ترد في الشريعة المطهرة وإن كان أهل وقته يعتبرونها من القربات.

طلب إليه تلاميذه أن يدرسوا عليه شيئاً من الحديث. فقال لهم : ليس معي إجازة بقراءة الحديث، ولما أصروا عليه ذهب الى الشيخ بكري العطار، وقال له : طلب مني أن أدرس الحديث وليس معي إجازة بذلك، فإن أجزتموني حدثت وإلا لا، فحدثه الشيخ حديث الأولية (يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً..) وكتب له إجازة..

وكان لا يلقي درساً إلا بعد تحضيره أولاً، وقد تعترضه عند التحضير إشكالات، تعرب عن قوة تحقيق في العلم، ثم بعد

التأمل ينفتق ذهنه لحلها واكتشاف غامضها، فيكتب الإشكال وحله على هامش الكتاب. وإذا لم يكتشف غامضه يكتبه ويلقيه على نوابغ تلامذته في حلقة الدرس قائلا : قد أشكل علينا حين المطالعة هذه العبارة، ولم نفهم مراد مولانا المؤلف. فما قولك يا فلان؟ فيجيبه التلميذ المسؤول، فان وجد جوابه ملائماً للصواب ابتهج به وكتبه فوراً، وإلا أضرب عنه وانتقل الى آخر. وإذا اعتاص الإشكال على الجميع يقول : ما ظهر لنا ربنا يعطينا.

وإذا أشكل عليه شيئاً من دقائق النحو أو المنطق - وعهده بهما بعيد، إذ كان عاكفاً في أواخر مدته على مزاولة العلوم الشرعية - سعى إلى أحد العلماء، وقد يكون أحد تلامذته لأن العلم يؤتى ولا يأتي.

كما أنه لم يكن يقبل أن تهيأ له حلقات في الجوامع لوعظ العامة. بل كان أبعد الناس عن ذلك.

٥ - إباؤه وعزته

ذكروا أن الصدر الأعظم المشير جواد باشا زاره حينما كان قائد الفيلق الخامس في الشام فوجده جالساً عند باب غرفته على الارض، فلم يعبأ به ولم يقم له، سوى ان رد عليه السلام فقط، فجلس المشير الى جانبه القرفصاء وبعد دقيقتين أو أكثر انصرف، والشيخ بعد على جلسته، لكن بدت منه التفاتة فوجد بجانبه صرة، لم يعلم مقدار دنانيرها الذهبية، فانبرى حافياً مسرعاً، ونادى أحد حجاب المشير وألقى الصرة من يده قائلاً : أخبر هذا

أنني غني غير محتاج، وعاد إلى غرفته فدخلها وأغلق الباب.وله مع ولاة الامور والاغنياء وقائع كثيرة من هذا القبيل.

قال الوالي مرة لاديب أفندي القباني ـ وكان من تلاميذه ـ أحب زيارة رجل من أهل العلم والصلاح، فأخذه في عربة إلى الشيخ عبد الحكيم.

ولما وصلا، قال له أديب أفندي: هذا الوالي قد جاء يزورك. فلم يقم له، وإنما هش له قليلا وقال : أهلا وسهلا، وسأله الوالي الدعاء، فدعا لهم بضع دقائق، ثم أقبل على قراءته ومطالعته. فوضع الوالي عشر ليرات على « الرحلاية » ثم قام ومضيا، وبَصُرَ الشيخ بالليرات بعد ذهابهما، فأخذها ولحق بهما،وصاح: ما هذا يا شيخ أديب؟ فقال الوالي : يا سيدي إستعن بهذا، فقال : « ما في حاجة مافي حاجة » فقال : يا سيدي وزعها، فأمر أحد طلابه فصرفها له « مجيديات » فوزعها وأخرج من جيبه « نحاسة » فاشترى بها مرق مخلل.

وبعد شهر، جاء الوالي مرة أخرى لزيارته، ودعا لهم، كالمرّة الأولى، ثم وضع له عشرين ليرة، وذهبا، فلحق بهما وقال : ما هذا؟ فقال : يا سيدي إستعن بها على العلم، فقال : ألم أقل لك لا حاجة، قال : يا سيدي وزعها، فغضب وقال : (شو أنا « ياور » عندك؟ وزعها بنفسك).

٦ ـ تعففه و زهده

كان يبتعد عن الامراء والوزراء والاغنياء والسراة، وكان يكتفي بالقوت الضروري، ولا يجيب دعوة الناس إلى ولائمهم مطلقاً، ولا يأكل طعام أحد، ولا يتناول منه ما يسد الرمق إلا إذا غلب عليه حسن الظن بطيب كسبه.

وكان الرجل الصالح، الشيخ سعيد الماردينـي ـ وهـو أحـد تلامذته ـ يأتيه أحياناً ببعض الطعام ـ بالرغم من بعد بيته ـ يشتهيه فيه، فاذا وصـل وقدمـه إليه، قال له : (عجيب! ما رأيت في طريقك أفقر مني؟).

٧ ـ تقشفه و بساطته

كان طيلة حياته، في شبابه وكهولته، يشتغل مع فعلة الطين، ليأكل من كدّ يمينه. وعرق جبينه، فراراً من الاكل بالدِّين، فإذا اشتهر أمره في بلدة، هاجر منها فوراً على أقدامه إلى غيرها..

زاره الوالي مرة، في أوائل رمضان، ولما أراد الانصراف دفع إليه صرة، فأبى وغضب، فقال له الوالي : أنا أعلم أنـك لا ترغـب بهذا، ولكن أعلم بأنك لا تعمل في رمضان ـ وهذه كانـت عادة الشيخ، يتفرغ فيه للعلم والعبادة ـ فهـذه « مؤونـة » رمضـان. فأجابه الشيخ : لا حاجة لي فيه، فقـد هيأت أمـري من قبـل، وأعددت زاد رمضان، أنظر، وأشار إلى الرف، ونظر الوالي، فإذا عدد من الارغفة اليابسة وقطرميز من مرق المخلل.

٨ ـ جده ودأبه

كان لا يذر وقتاً من عمره يضيع سدى، بل إنه يقرأ في دار الحديث كل يوم درسين، صباحاً وبعد الظهيرة مدة كل درس ساعتين، ويطالع الدرس قبل القراءة مع التعليق عليه مقدار ساعتين أيضاً، ويصرف بقية يومه في العبادة وتلاوة القرآن الكريم والتأليف.

حدث من رآه مرة وقد أرق، فأضاء المصباح، وتناول كتاباً فأخذ يقرأ فيه، إلى أن أحس الميل إلى النوم، فلما لم ينم عاد الى الكتاب، فعل ذلك عدة مرات.

وظل، أجزل الله ثوابه، مثابراً على دروسه في تعليم تلاميذه، حتى أعياه مرض الموت.

٩ ـ علمه وآثاره

كان ـ كما يقول أحد تلاميذه ـ بحراً زاخراً في العلوم النقلية والعقلية. ومنحه الله قسطاً وافراً من التحقيق والتدقيق لكنه صرف الثلث الأخير من عمره في مزاولة العلوم الشرعية فقط وكان فقيهاً حنفياً جليلا.

يقول عنه تلميذه الشيخ سعيد الباني : هو علامة المعقول والمنقول. وكان المخلصون من علماء الشام يجلونه ويقولون : من أراد أن ينظر إلى علماء السلف فلينظر إلى الشيخ عبد الحكيم.

سأله مرة أحد طلابه، حينما كان يقرأ عليه أصول الفقه، عن

فائدة هذا العلم، فأجابه على البداهة إن فائدته الاجتهاد فقال : يا سيدي، ألم يقولوا بأن باب الإجتهاد مقفل؟ فأجاب بحدة : ومن أقفله؟ أصلح الله حالك ، لكن طالب العلم في بلادكم يدعي الاجتهاد، وهو لما يقرأ بعد نور الايضاح.

له من الآثار كتاب كشف الحقائق، شرح به كنز الدقائق في الفقه الحنفي، وشرح الشاطبية ، وحاشيه على شرح البخاري، وحواش وتعليقات على الهداية وحاشية ابن عابدين وشرح المنار، وحاشية على تفسير النسفي.

ولم يطبع من آثاره سوى كشف الحقائق.

١٠ ـ وفاته

توفي رحمه الله في الثامن من شوال سنة (١٣٢٦)، ولما أعلن نعيه، واستفاض الخبر، هرع الناس أفواجاً من كل حدب إلى دار الحديث لتشييع جنازته. وملأ الناس الطريق من الجامع الأموي إلى المقبرة وهم يذرفون العبرات، وتقدم الجنازة كتائب من الجند وفصائل من الدرك والشرطة وتلامذة المدرسة الحربية ومشى وراءها العلماء والحكام وأعيان البلدة وأشرافها وسراتها وعامة الناس، الى أن ووري في رمسه بمقبرة باب الصغير في جوار قبرَي العلائي صاحب الدر المختار ومُحَشيّه ابن عابدين عليهم رحمة الله.

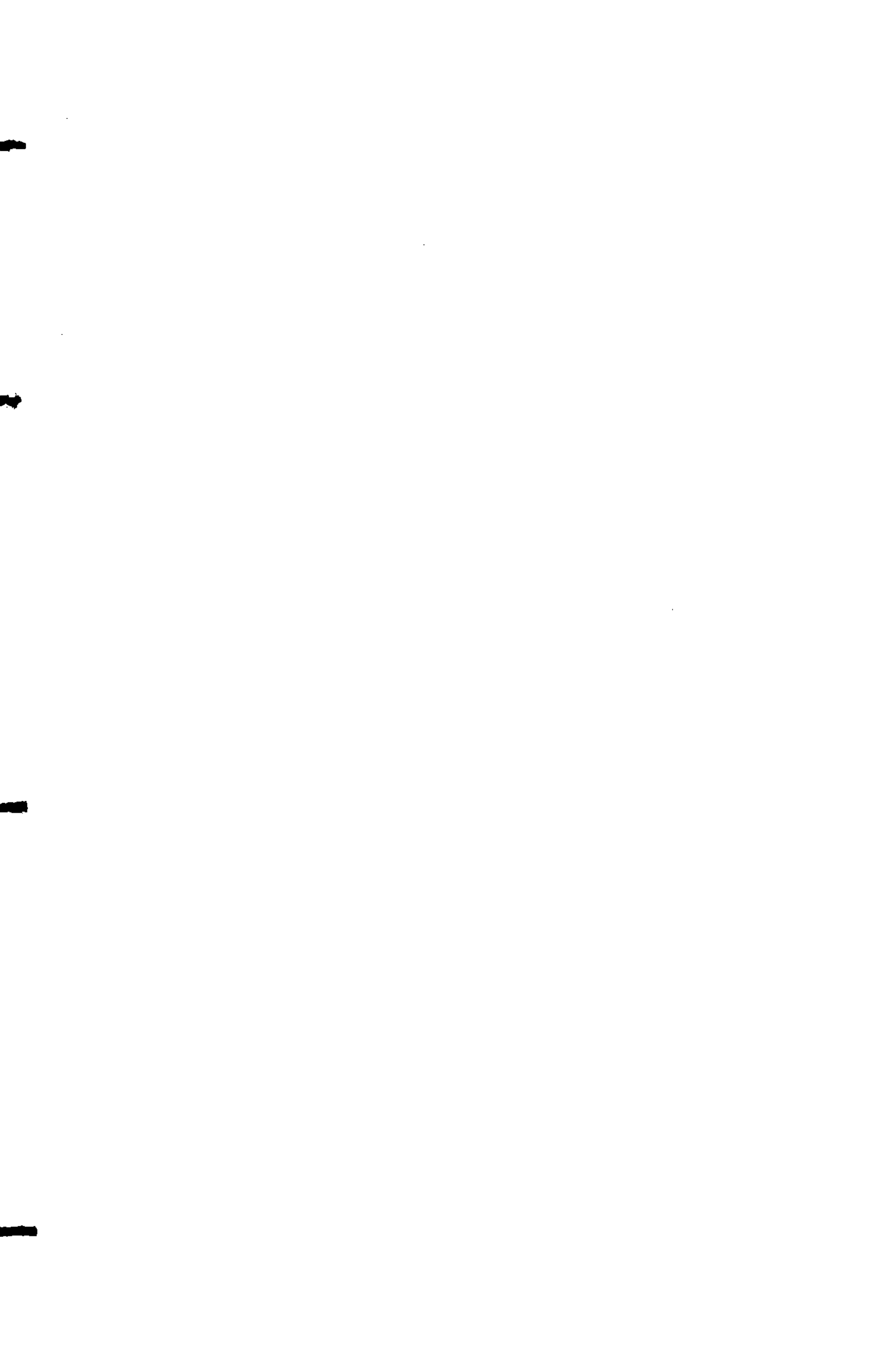
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الاستاذ

عبد الوهّاب حمامي

ربيع الاول ١٣٨٣



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله الذي خصّ نفسه بالعزّة، وأمدّ بها من شاء من عباده ـ المؤمنين ـ؛ وصلاة الله وسلامه على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فما أحوجنا دائماً وأبداً وفي كل حال(وخاصة في هذه الأيام) ـ التي يقول فيها الحسن البصري رحمه الله ـ هيهات هيهات! أهلك الناس الأماني؛ قول بلا عمل ومعرفة بغير صبر، وايمان بلا يقين. مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً! وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً! دخل القوم والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرموا ثم استحلوا. إنما دين أحدكم لمقة على لسانه، إذا سئل: أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال: نعم! كذب ومالك يوم الدين.

ما أحوجنا ـ بعد هذا ـ إلى الايمان الصادق، والعمل المخلص، وأن نتصف بصفات المؤمنين الصادقين.

إن من أخلاق المؤمن قوة في دين، وايماناً في يقين، وعلماً في حلم، وحلماً بعلم، وكيساً في رفق، وتحملاً في فاقة، وقصداً في غنى، وشفقة في نفقة؛ ورحمة لمجهود، وعطاء في الحقوق، وانصافاً في الاستقامة؛ لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم في مساعدة من

يحب. لا يهمز ولا يغمز ولا يلمز، ولا يلغو ولا يلهو ولا يلعب، ولا يمشي بالنميمة، ولا يتبع ما ليس له، ولا يجحد الحق الذي عليه، ولا يتجاوز في الحدّ، ولا يشمت بالفضيحة إن حلت بغيره، ولا يُسر بالمعصية إذا نزلت بسواه.

المؤمن في الصلاة خاشع، وإلى الركوع مسارع. قوله شفاء، وصبره تقى، وسكوته فكرة، ونظره عبرة. يخالط العلماء ليعلم، ويسكت بينهم ليسلم، ويتكلم ليغنم. إن أحسن استبشر، وإن أساء استغفر، وإن عتب استعتب، وإن سُفه عليه حلم، وإن ظُلم صبر، وإن جير عليه عدل؛ لا يتعوذ بغير الله، ولا يستعين الا بالله، وقور في الملأ، شكور في الخلاء، قانع بالرزق، حامد على الرخاء، صابر على البلاء. إن جلس مع الغافلين، كتب من الذاكرين؛ وإن جلس مع الذاكرين، كُتب من المستغفرين.

هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ، الأول فالأول، حتى لحقوا بالله عز وجل؛ وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح، وإنما غيرّ بكم لما غيرّتم؛ ﴿ إنّ الله لا يغيرّ ما بقوم حتّى يغيرّوا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له، وما لهم من دونه من وال ﴾ (١)

فإلى الاسلام يا أخي.. إلى الأعمال الصالحة.. الى الإخلاص لله..

(١) الرعد: ١١.

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد
وكل زاد عرضة النفاد   إلا التقى والبر والرشاد

وأخيراً، فسبيل الخلاص هو الإخلاص بالأعمال والأقوال، والحركات والسكنات؛ ولا نجاة ولا فلاح إلا بالإخلاص..

وهذا ما أتحفنا به الأخ الأستاذ عبد الوهاب، فجزاه الله عنا وعن المسلمين ـ خير جزاء، ووفقه والمسلمين إلى الحق والرشاد، وجعلنا وإياهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وجمعنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم اجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم، وردنا إلى دينك المستقيم، إنك يا مولانا على كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين

لجنة المسجد

الإخلاص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم فأخلصوا له القول والعمل، وما تنكبوا عن الطريق السوي المستقيم.

وبعد: فما أحوجنا نحن معاشر المسلمين إلى تفهم حقيقة ديننا الذي ارتضى الله لنا، ومعرفة أسراره والتمسك بالسبل الموصلة إلى رضى الله عز وجل.

والإخلاص لله يا أخي شرط أساسي وركن عظيم من أركان الإسلام والإيمان، بل هو الإيمان كله، يقال خلص الشيء من التلف إذا نجا وسلم وخلص الماء من الكدر إذا صفا، والاخلاص في الشيء هو تصفيته وتخليصه من الشوائب والأخلاط المخالفة. ولذا قال بعضهم: لا خلاص للانسان إلا بالإخلاص أي لا نجاة له ولا سلامة من بأس الله وغضبه إلا به. والاخلاص لله بهذا الاعتبار هو تنقية الأقوال والأعمال عن الأغراض والمصالح الموقتة والتوجه بها جميعاً إلى الله عز وجل، فموضوعه يتعلق بالبواعث القلبية على الأعمال، فهو روح الأعمال جميعها به تحيا وبتركه والزيغ عنه تهلك. قال تعالى:

﴿وقدِمْنا إلى ما عملوا مِن عملٍ فَجعلنْاه هباءً منثوراً﴾ [1] ذلك لأنهم عملوا الأعمال لغير الله فحقيق عليه ألاّ يقيم لها وزناً.

---

(١) الفرقان: ٢٣

وقد قال رسـول الله ﷺ : إنما الأعمال بالنِّيَّات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى ». وهذا يعني أن الله عز وجل لا ينظر إلى العمل بصورته المادية ولكن ينظر إلى البواعث والدوافع الخفية التي تكمن وراء كل عمل، وعلى هذه الدوافع، والنيات يكون الثواب والعقاب وهذا أساس عظيم من أسس المسؤولية في الإسلام أمام الله عز وجل، فكثيراً ما تتشابه الأعمال في صورها وأشكالها ولكنها تختلف في روحها وجوهرها، فالعبرة في العمل للنية الموجهة والقلب الدافع. فمن الاعمال ما تكون روحه خبيثة شريرة فهو العمل النتن الفاسد ومنها ما يكون مشرقاً صافياً وضَّاءً وهو ما قام على أساس الاخلاص لله تعالى. « وإنَّما لكل امرىءٍ ما نوى » ليس للانسان نصيب من عمله إلا بقدر نيته ومقدار باعثه وإن بدا للناس حسنه أو سوءه فليست العبرة بما يبدو منه. فإذا عرف المسلم الميزان الذي توزن به الاعمال عند الله تعالى وجب عليه أن يقيم هذه الاعمال على أقوم طريق وأفضله وأكثره ثقلاً في ذلك الميزان، وقد أيَّد رسول الله ﷺ هذه الحقيقة بأحاديث كثيرة منها قوله عليه السلام :

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قلنا يا رسول الله ، هذا القاتل، فما بالُ المقتول؟ قال إنه كان حريصاً على قَتْل صاحبه » فهذا دليل قاطع على أن المسؤولية إنَّما تقع على النية لا على الفعل المادي، فمع أن المقتول معتدى عليه ولم يقم بالقتل كان نصيبه النار نظراً لسوء قصده ونيته ، فتساوى هو والقاتل مع اختلاف ظواهر الحال المادية.

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكونَ كلمة اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ الله » فإذا لم يتوفر عنصر الاخلاص في القول والعمل كان الهلاك المحتم. وبهذا الاعتبار ترى أن الاخلاص أكسير الحياة العظيم، وسر من أسرار الأعمال والحياة، وهبه الله لعباده المؤمنين ورفعهم به إلى أعلى عليين. فالاعمال المختلفة كالمعادن الخسيسة الرخيصة إذا خالطها جوهر الاخلاص تحولت إلى طبيعة عظيمة فصارت مشكاة للنور والخير، فهذه كما قال عليه السلام : « عجباً لأمر المؤمن إنَّ كلَّ أمرِه له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له ». الناس جميعاً يأكلون ويشربون وينامون وينكحون و. . . إلا أن المؤمن تتحول لديه هذه الأعمال كلها طاعات وقربات يرتفع بها درجات عند الله، فإذا أكل أو شرب قصد بطعامه وشرابه تقوية جسمه ليقوم بما أمر الله فكان له بذلك أجزل الثواب، وإذا أنفق نفقة صغيرة أو كبيرة على نفسه وأهله وعياله ومن تلزمه نفقتهم امتثالاً لأمر الله تعالى كان له بذلك درجات وقد قال عليه السلام : « وفي بُضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيهاأجر؟ قال : ارأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر ».

حمداً لك يا رب العالمين، وشكراً لك يا سيد المنعمين، لا كفاء

لنعمك ولا إحصاء لفضلكِ.

وبهذا المعنى الواسع يتحقق قوله عز وجل﴿وما خلقت الجنَّ والانس إلا ليعْبدون. ما أريد منهم مِن رزق وما أريد أن يطعمون إنَّ الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾ [1].

فكل امتثال لأمر الله عبادة، وكل اجتناب لنواهيه عبادة، والمباحات من الأعمال إذا توفر فيها الاخلاص كانت عبادة، كالمشي والكلام والبيع والشراء.. الخ، والويل كل الويل لمن كفر به وأعرض عنه.

﴿إنَّ الله لا يغفر أنْ يُشرَك به ويَغفِر ما دُونَ ذَلِكَ لمنْ يَشاء﴾ [2] فكل من ابتغى في عمله غير وجه الله فقد أشرك. إلا أن الشرك درجات فمنه الشرك الظاهر ومنه الشرك الخفي وقد كان عليه السلام يستعيذ بالله منهما ويقول «اللهم إنَّا نعوذُ بك من أنْ نُشرك بكَ شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه». والشرك الخفي هو الرياء وهو قاصمة الظهور ومبيد الجهود والأعمال، فالشرك الظاهر هو عكس التوحيد وأمره أن يعالج عن طريق النظر والفكر والاستدلال حتى يعلم المرء أن الله هو الحق المبين.

وأما الشرك الخفي فهو ما يخالط الأقوال والأعمال فيفسدها جميعها ويظن المرء نفسه أن قد عمل شيئاً وكسب خيراً، فإذا هو صفر اليدين منها جميعاً وقد تحول معظمها إلى آثام وذنوب يسأله الله عز وجل عنها. وقد جاء في الحديث الشريف على لسان يحيى ابن زكريا عليهما الصلاة والسلام: «أنَّ الله تبارك وتعالى أمرني

(١) الذاريات: ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ (٢) النساء: ١١٦

بخمس كلماتٍ، أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. وإنَّ مَثَلَ مَنْ أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ـ فضة ـ فقال : هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأدِّ إليّ. . فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيِّده، فأيّكم يرضى أن يكون عبده كذلك. . » فمن لم يقصد بعمله وجه الله تعالى فلا يرجوَن ثوابه والقبول منه، وهذا أمر طبيعي يتناسب مع المنطق والواقع.

والحقيقة أن للنفس ميولاً وأهواءً ورغبات فمن قيدها بالشرع الحنيف صدرت عنها الاعمال مشرقة نيرة وإلا كانت تبعاً لهذه الميول، وهذا ما يفسر قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ». لأنَّ الايمان إذا استولى على القلب استولى على سائر العواطف فيه من حب ورجاء وخوف فلا يحب إلا لله ولا يكره إلا له ولا تحدثه نفسه بشيء من الشرور والآثام البتة، لأنه قد أقام في قلبه حب الله عز وجل، وإذا حدث هذا في القلب انعكست صورته على سائر الجوارح وتسلط على جميع الاعمال فإذا بها على أكمل وجه وأتم طريق مصداق قوله ﷺ : « ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صَلَحت صلحَ الجسد كلّه، وإذا فسدَتْ فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب ». وبهذا نفهم الأثر الصحيح « إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ». فالقلب هو مكان نظر الله عز وجل من العبد وعليه المعول في وزن الأعمال وقد قال الفضيل بن عياض :

العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه، قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فمنْ كانَ يرجو لِقاءَ ربِّهِ فلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [1] وقال تعالى ﴿ ومن أحسنُ ديناً ممن أسْلَمَ وجهه لله وهو محسن﴾ [2] فإسلام الوجه : إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه متابعة الرسول ﷺ، وفي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها « من عمل عملا ليسَ عليه أمرنا فهو رد ». فكل عمل بلا اقتداء لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارىء القرآن، والمجاهد. والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قارىء، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله وفي الحديث الصحيح القدسي « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشْرَكَ فيه غيري فهو للذَّي أشْرَكَ به وأنا منه بريء » وورد في أثر آخر يقول له يوم القيامة « أذهبْ فَخذْ أجرك ممن عملت له، لا أجرَ لكَ عندي ».

وللاخلاص أمارات ودلائل. أوَّلها : أن يكون العمل جميعه ظاهراً وباطناً لله تعالى لا يراد فيه من أحد من الناس جزاء ولا شكوراً، كما وصف الله عز وجل عباده الأبرار بقوله﴿إنَّ الأبْرارَ يَشربُون مِنْ كأسٍ كانَ مِزاجُها كافوراً. عيناً يَشْرَبُ بها عبادُ الله

(١) الكهف : ١١٠ (٢) النساء : ١٢٥

يفجِّرونها تفجيراً. يوفون بالنَّذْرِ ويخافون يوماً كانَ شَرُّه مُسْتطيراً. ويُطعمون الطعامَ على حُبِّه مِسكيناً ويتيمًا وأسيراً. إنَّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً. إنَّا نَخافُ مِنْ ربِّنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ [1].

ومن دلائل الاخلاص التجرد عن الدنيا والزهد فيها وذلك بمعنى تجرد القلب لا تجرد البدن وذلك بالتوجه إلى الله عز وجل في كل أمر وعمل وجعل مرضاته ومثوبته فوق كل عرض من أعراض الدنيا، فان جاءته الدنيا كانت في نفسه صغيرة حقيرة لا يغتربها ولا يجعلها همه وشغله، بل يسخرها في سبيل الله ويشكر الله تعالى أن هيأ له سبيل الخير وهداه إليه، ولا يستشعر في نفسه أبداً الفوز على من لا دنيا له ولا يظن بنفسه خيراً على غيره من المؤمنين الذين لا يجدون ما ينفقون أو لا يجدون سبل العمل وإمكانياته، مخافة أن يحبط الله عمله ثم لا يكون من الفائزين.

ورضي الله عن عمر بن الخطاب فقد بكى حين وردت إليه أموال كسرى بعد انتصار المسلمين في القادسية وقيل له: إن هذا لموطن شكر يا أمير المؤمنين وليس بموطن حزن، فقال: إن الله قد حجب الدنيا عن نبيه وصاحبه وفتحها لي فأخاف أن أكون مستدرَجاً، وأجهش في بكائه.

وهذا ما ينسجم تماماً مع قول الله عز وجل: ﴿وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا﴾ [2] فالقصد الأساسي هو وجه الله تعالى والدار الآخرة، على أنه لا مانع من

(١) الانسان: ٥ - ١٠.
(٢) القصص: ٧٧

التمتع بالدنيا في حدود الشرع بما لا يشغل عن ذكر الله والقيام بمختلف الواجبات التي أمر الله بها دون إفراط في ناحية منها وتفريط في أخرى، فيعطي المسلم كل ذي حق حقه في كل عمل من جهاد وصيام وصلاة وذكر وإكرام ضيف وقيام وتعلم وتعليم وتلاوة ونصر حق.. الخ. ودليل التجرد عن الدنيا أن يستوي لدى المؤمن وجودها وعدمها فلا يحزن البتة، على ذهاب ماله، ولا يشح في إنفاقه في وجوهه، ولا يبالي كثرة ولا قلة ولا يضجر من ضيق ذات يده.. الخ. كما ورد في حديث ابن عمر في وصف المؤمن الذي هو من أهل الجنة: «لو دخلت الدنيا في حوزته صباحاً وخرجت منه مساءً لما فرح بها حين دخلت ولا حزن عليها حين خرجت».

فأين نحن يا أخي ـ حفظك الله ـ من هذا؟ إنما هذه المنازل العالية العظيمة لأصحاب القلوب الكبيرة، أجل إنها لكبيرة حقاً أكبر من الدنيا وما فيها ذلك لأنها عرفت خالقها فاستصغرت كل ما عداه واستهانت بكل ما سواه واعتبرت سعادتها الأبدية ساعة لقاه.

وهذا هو سر الايمان والاسلام، يكون الرجل صغيراً حقيراً في نفسه وقومه فما هو إلا أن يغطه الإيمان غطة أو يلمسه وميض ذلك النور الإلهي حتى يغدو رجلاً لا كالرجال، وانساناً لا كبقية الناس، إن فيه نفحة من نفحات الله فغدا آية الله في الأرض يلقن البشر دروساً في الحياة والعمل لا ينسونها أبداً، لأنها تحررهم من طبيعة الطين، وتسمو بهم في آفاق الروح، آفاق الانسانية الحقة.

ومن دلائل الأخلاص ان يستوي لديك مدح الناس لك وقدحهم، فلا تميلنَّ الى مديحهم ولا تستسيغنه بل تقول: اللهم اغفر لي مالا يعلمون واجعلني خيراً مما يظنون. ولا تتألمنّ من ذمهم فلعلهم يُهدون إليك عيوبك ويرشدونك إلى سيئاتك. وإن كان ذمهم لك زوراً وبهتاناً فلن يضروك شيئاً سوى أنهم يحكمّونك في حسناتهم. وقد قيل لأحد الصالحين : بلغنا أنك تذم فلاناً وتقول فيه كيت وكيت فقال : ما بلغتْ منزلته عندي أن أحكمّه في حسناتي وفي نحو هذا قال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. ـ وفيه نظر ـ.

شوائب الاخلاص :

لسنا في صدد الحديث عن حالات انعدام الاخلاص بالشرك والكفر ولكننا نتحدث عن المسلمين المؤمنين الذين زلت بهم القدم وانحرفت بهم السبيل فنقول : رأينا سابقاً أن العمل الصحيح هو ما توفر فيه شرطان أساسيان : ابتغاء وجه الله أولاً، وموافقة الشريعة ثانياً فإذا خلا من أحدهما كان باطلا. والأعمال كثيرة متنوعة : منها العبادات والفرائض التي فرضها الله على عباده وتعبدهم بها كالصلاة والصيام والحج والزكاة وما أشبه ذلك، ومنها الأعمال الدنيوية الأخرى التي هي من ضرورات الحياة كالطعام والشراب والنوم وكسب الرزق وما أشبه ذلك، ومنها الأعمال المباحة المختلفة الاخرى كالكلام والضحك.

فتوفر هذين الشرطين في جميع هذه الأعمال هو أعلى مراتب الكمال وهو منتهى القصد وغاية مجاهدة النفس. ولكن الواقع يختلف عن هذا فكثير من الناس لا يَصلون إلى هذه المرتبة، وكيف يصلونها وقد أخذ الشيطان على عاتقه اغواءهم وافسادهم وصرفهم عن الله عز وجل في كل أمر :﴿ قال فبعزَّتكَ لأغوِينَّهمْ أجمعينَ إلا عبادكَ مِنهم المخلصين﴾ [١]. فقد اعترف سلفاً أنه لا سلطان له على الخلاصة الصافية من عباد الله المؤمنين الصادقين ويئس منهم قبل أن يراهم. .

ولكنه بسط سلطانه على فئتين اثنتين، احداهما : فئة المشركين بالله الكافرين بدينه وهذه لا تكلف عناءً ولا مشقة لأنها مستريحة إلى ضلالها مطمئنة إلى فسادها، بل هي تدعمه وتسانده وتسير معه في موكبه القذر فهي مثله في المهمة﴿وَكذلكَ جعلنا لكلِّ نبيٍ عدواً شياطين الإنس والجنِّ يوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخرُفَ القول غروراً﴾ [٢].

وثانيتهما : فئة الأخسرين اعمالاً ، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. فهؤلاء تسلط عليهم ابليس في عباداتهم وأعمالهم فأفسدها، فما من عمل يعملونه ولا عبادة يؤدونها إلا وللشيطان فيه نصيبٌ وحظٌ وقلما يسلم لهم عمل من الاعمال من كيد الشيطان، فقد ألبس عليهم أعمالهم فاختلطت عليهم العادات والعبادات فإذا صلّوا سهوا عن صلاتهم وقصدوا

---

(١) ص : ٨٢ ـ ٨٣ (٢) الأنعام : ١١٢

بها غير وجه الله، وإذا تصدقوا كذلك فلم يبق لهم عمل.. فظاهر هؤلاء الاسلام، وباطنهم عبادة الشيطان والشهوات عبادة غير مباشرة..

وهنالك نوع ثالث هم الذين صدَق عليهم قول الله عز وجل ﴿ وآخرين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [1].

فهؤلاء سلمت لهم بعض الأعمال الصالحة وفسدت لهم بعض الأعمال الأخرى، وكانوا في صراعٍ دائم مع الشيطان ينتصرون تارة وينهزمون اخرى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وسبل الشيطان في إفساد الأعمال كثيرة أظهرها وأجمعها أمران : الناس، والنفس.

أما التأثر بالناس : فله آثار كثيرة لسنا بصددها؛ منها : الاعراض عن الايمان بالحق تمسكاً بتراث الآباء الباطل، ومنها الانقياد الأعمى لكبرائهم ومجرميهم وإغماض أعينهم عن النور ولكننا نريد منه الجانب الذي يتعلق بموضوعنا فالتفات القلب إلى المجتمع وانصرافه عن الله عز وجل مفسدة كبيرة ومزلة خطيرة.

فكثير من الناس يصدرون في أعمالهم وأقوالهم بدافع من حب الظهور في المجتمع والرغبة في كسب الثناء والمديح بين الناس حتى إنهم بذلك يفسدون عباداتهم لله التي ما شرعها إلا لتكون خالصة له﴿فويلٌ للمصلينَ. الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يُراؤن ويمنعون الماعون﴾ [2]. فهؤلاء ما أرادوا بصلاتهم إلا المنزلة

(١) التوبة : ١٠٢ (٢) الماعون : ٤، ٥، ٦، ٧.

عند الناس فهي صلاة، جوفاء، منتنة، لا تزيدهم من الله إلا بعداً. حتى إن الرجل الذي يُتقن صلاته بين الناس أكثر من صلاته خالياً خشية أن تكون موضع نقدهم، يُعد مرائياً في هذا الاتقان ويُخشى ألاَّ تقبل منه. قال تعالى ﴿ومن الناس من يتخذُ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدُّ حباً لله . . ﴾[1].

وهكذا سائر العبادات من صدقةٍ وصيام وحجٍ وزكاةٍ، وكذلك سائر الأعمال والأقوال. وهنا يجب أن يفرق المرء في نفسه حينما يتصدى للعمل العام بالدعوة إلى الله عز وجل من أمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر وما يلحق بذلك، يجب أن يفرق بين الرغبة في قيادة الناس، والرغبة في خدمتهم، والاحسان اليهم. فكثيراً ما تلبس الأولى ثوب الثانية، ويخدع الرجل نفسه بنفسه فمن علائم الأولى التبرم من النقد الصحيح وضيق الصدر باستعراض الاخطاء والهفوات وكثرة تحدث الإنسان عن نفسه زاعماً لها كثيراً من الاعمال والمميزات، ثم يزعم بعد هذا أنه يعمل لله ولا يتورع أن يمنَّ على الاسلام والمسلمين بخدماته الجُلىَّ وأعماله الباهرة﴿بل اللهُ يمنُّ عليكم أنْ هداكم للايمان إنْ كنتم صادقين﴾[2] أما الصادقون المخلصون فلا يرون لأنفسهم فضلاً كلما أثنى عليهم الناس أو امتدحوهم، ذكروا عيوبهم واستشعروا الصغار بينهم وبين ربهم والتجأوا إليه في ضراعة أن يستر عوراتهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويسدد خطاهم ـ لا أن يتواضعوا أمام الناس تواضعاً كاذباً ـ وهؤلاء

---

(١) البقرة : ١٦٥ (٢) الحجرات : ١٧

أوسع الناس صدراً للنقد والتجريح ويرونه الطريقة الصحيحة لوضع الأمور في نصابها وكشف الزيف من السليم، فإن النقد إما أن يكون صادقاً وهو أعظم هدية تهدى للانسان فتهديه، وإما أن يكون خاطئاً فسرعان ما يتلاشى أمام نور الحق والحقيقة؛ بل يزيد الحقيقة جلاءً ووضوحاً، والعزيمة مضاءواقداماً - وبضدها تتميز الاشياء - قال تعالى: ﴿فلما كُتب عليهم القتال إذا فريقٌ منهم يخشوْن النَّاس كخشية الله أو أشد خشية﴾ (١).

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري: «من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس» فإنْ أخلص العبد لله تعالى، وقدَّم جانب الله على جانب الناس، كان حقيقاً على الله أن لا يضيِّعه وأن يحفظه وأن يكتب له من المحبة والمهابة في قلوب الناس أضعاف ما ناله بل يجعل الله عز وجل إعراضه عن الناس سبباً في تعلقهم به، وقال رسول الله ﷺ لابن عباس في حديث طويل «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

فاستصغار شأن الناس ووساطاتهم والارتباط بمسبب الاسباب والقادر القاهر يقطع على الانسان مهالك الزيغ ويحرره من سائر أنواع الرق والعبودية المادية والمعنوية تحريراً صحيحاً - إلا من العبودية للحق وحده - ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحق وأنَّ ما يدعون من

(١) النساء: ٧٧

دونه الباطل﴾ [1].

وأما المدخل الثاني من مداخل الشيطان فهو النفس وفي ذلك عدة معان :

أولها : اعجاب المرء بنفسه وأعماله، وهذا يصرفه عن شكر الله عز وجل على ما وفقه إليه من صالح العمل ـ فقد كان الصالحون لا يرون لأنفسهم فضلاً في عمل من الأعمال وإنما هو منة من الله ومحض هداية وتوفيق منه قال تعالى حكاية عنهم : ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله﴾ [2]. وقال تعالى : ﴿ولولا فضْلُ الله عليكم ورحمته ما زكى منكم مِنْ أحَدٍ أبداً ولكنَّ الله يزكِّي من يشاء﴾ [3].

فلو عرف الانسان قدر ربه وقدر نفسه لم ير لنفسه شيئاً أبداً، ولشعر من أعماقه بواسع رحمة الله عز وجل وفضله، ولَمَلَك عليه الحياء من عمله، نفسه، وقلبه، أمام الله تعالى.

وثانيها: الرضى عن العمل، فرضاه عن عمله واغتراره به مُقعدٌ له عن طلب الكمال صارف له عن رؤية سيئاته، فما من عمل يعمله الانسان إلا وله عيوب، سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال : « هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد ». فاذا كان هذا التفات طرفه أو لحظه فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله عز وجل وانشغاله به؟ ـ أي بما سوى الله عز وجل ـ كما أن القعود عن طلب الكمال وعن استشعار النقص في

---

(1) الحج : ٦٢ (2) الاعراف : ٤٣. (3) النور : ٢١.

الأعمال يتنافى مع تقدير الله حق قدره فإن الأعمال مهما بلغت لا تصل إلى الدرجة التي تنبغي لله عز وجل. وقد قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدَّني الله برحمته ». فإذا كان هذا هو نظر رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ إلى عمله فكيف بنا وبأعمالنا؟! . . اللهم اعف عنا . .

الى العلاج

فإذا استطاع الانسان اغلاق منافذ الشيطان فقد أمن مكره ووقي شره، وذلك لا يكون إلا كما ذكرنا بشيئين : عدم الالتفات إلى الناس وعدم الاعجاب بالنفس، لأن من شاهد في أعماله الاخلاص ـ كما يقول السوسي ـ فقد احتاج اخلاصه إلى اخلاص.

وهذه ناحية سلبية هامة جداً لسلامة الاخلاص، أما الناحية الايجابية فتعتمد على عدة أمور :

أولاً : دوام المراقبة لله تعالى مما يصل بالمرء إلى مرتبة الاحسان التي عناها رسول الله ﷺ بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

ثانياً : ولا بد مع المراقبة من استشعار عظمة الله تعالى وتقديره حق قدره حتى تخشع له سائر الجوارح وتضعف عنده بالنسبة إليه سائر النوازع فيسيطر على نفس المرء الخوف والرجاء، الخوف من

بأس الله وبطشه والرجاء في رحمته وواسع مغفرته، وأن يتقلب قلب المرء بين هذين العاملين حتى يسير صعداً في مراقي الفلاح.

ثالثاً : ذكر اليوم الآخر وأن هذه الدنيا زائلة وليست سوى دار ابتلاء وامتحان، ليس فيها كرامة لمن أنعم الله عليهم إلا بالقدر اليسير. أما دار القرار، قرة أعين الأبرار، ونقمة الفجار فهي الدار الآخرة قال تعالى :﴿وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة﴾ ﴿فمَن كان يرجو لقاء ربه﴾. ﴿إنا نخاف من ربِّنا يوماً عبوساً قمطريراً. فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾. فمن عرف الدنيا، وعرف الدار الآخرة، وعرف المسؤوليات فيها، لم تخدعه الأولى عن الثانية وقال : إليك عني يا دنيا غُري غيري - وقصرّ أمله وأعد عدته للقاء الله تعالى.

رابعاً: محاسبة النفس : وأعني بها المحاسبة الدائمة للنفس على سائر أعمالها، وعد خطواتها وأنفاسها، واستصغار شأنها واتهامها في أعمالها، وتجديد الهمة، والتوبة والمضي في الطريق الصحيح، مع الالتجاء إلى الله في طلب الهداية فذلك غاية الغايات.

نسأل الله تعالى أن يهدينا ويرشدنا ولا يربط قلوبنا إلا به وأن يتجاوز عن سيئاتنا ويغفر زلاتنا ويستر عوراتنا ونستغفره من ذنوبنا الظاهرة والخفية والحمد لله رب العالمين.

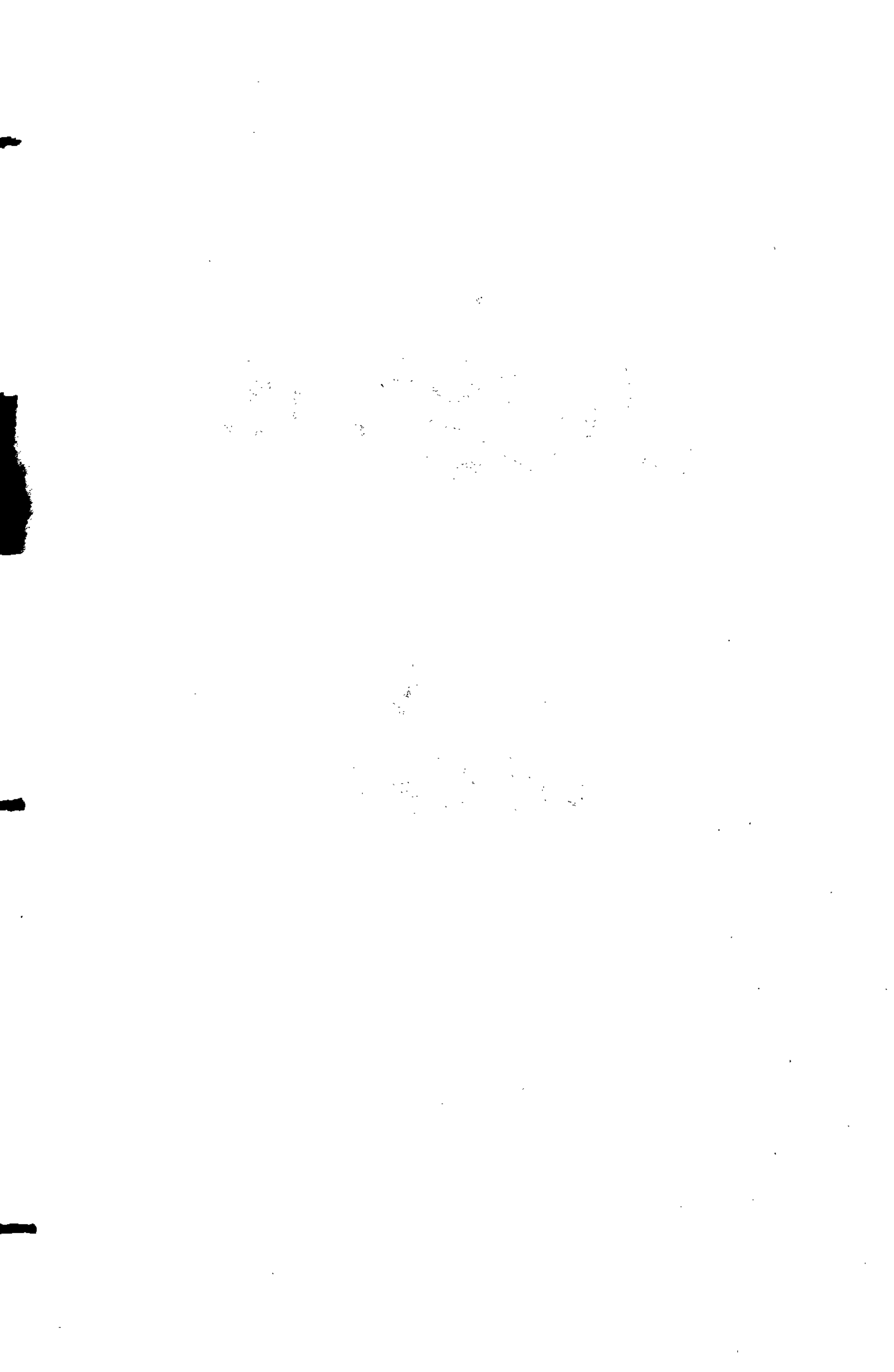
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

١٤ ربيع الأوّل

للأستاذ

محمّد سعيد الطنطاوي

ربيع الأول ١٣٨٣



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . الحمد لله الذي أخرج الناس من الضلال إلى الرشاد، ومن الظلمة إلى النور . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً للمؤمنين بالجنة، ونذيراً للكافرين بالعذاب . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

وبعد : نعيش هذه الأيام في فوضى المفاهيم، واختلاف المقاييس . بدأت الوجوه تنحرف عن السبيل الذي اتجه إليها صحابة رسول الله ﷺ ، وأخذت النفوس تغفل عن غاياتها، والأقدام تزل عن طريقها، وأصبح الاسلام غريباً بين أهله .

غاضت سمة الاسلام من الوجوه، لتحل محلها سمة الكاسيات العاريات الكافرات . وغاضت من الثياب والأثاث، لتحل محلها هيئة الفرنج والأعداء . وغاضت من العقول، لتحل محلها الثقافات الضالة، والمقاييس المنحرفة . . . ونتج عن هذا الجهل

بالاسلام، وهذه الرهبة من الغرب، أن تنكبنا الطريق الصحيح، وانحرفنا عن الصراط السوي، وصرنا إلى هاوية ـ إن لم نتدارك أنفسنا ـ تؤدي بنا إلى شر المآل والعياذ بالله.

ونحن إذ نلجأ إلى أخينا الأستاذ محمد سعيد، الذي عرف الطريق المستقيم فسلكه، ودرس الانحراف والمنحرفين فانزوى عنهم. وهو يشرح لنا في هذه الرسالة ما كاد يجهله معظم المسلمين ـ إن لم يكن جلّهم ـ من نضال صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، وكيف أنهم وهبوا أنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة ـ تعالى، وفي سبيل خدمة الاسلام والمسلمين.

إن الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون.

اللهم اجعلنا منهم. والحمد لله رب العالمين

لجنة المسجد

١٤ ربيع الاول

أنت تعلم منزلة ربيع الأول بين الشهور، تعلم أنّه شهر البِشر بولادة خير البشَر، وشهر الدعوة، بهجرة أكرم الرسل، وشهر الحزن، بانتقال الحبيب الأغلى إلى الرفيق الأعلى.

وقد تعلم أنه شهر اليقين، إذ فيه مكث، أفضل من دعا وعمل وهاجر، في غار ثور، ثلاثاً ومعه صاحبه الصديق يلاحقهما العدو الفاتك. وشهر الصبر، إذ فيه امتحنه بوفاة ابنه إبراهيم، مَن يحب مِن عباده أن يكون أحب اليهم من جميع عباده. وشهر الجهاد الذي فيه كانت غزوة بُواط وغزوة بدر الأولى، وغزوة غطفان، وغزوة بني النضير وإجلاؤهم، وغزوة دومة الجندل، وغزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وسريّة عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر، وسريّة شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر، وسريّة كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح، وسريّة الضحاك بن سفيان الكلابي الى بني كلاب، وسريّة خالد بن الوليد المخزومي الى بني عبد المدان بنجران.

قد تعلم هذا كله، وقد لا تعلمه أو لا تعرف تفاصيله وفقهه، فموعدك ربيع الأول من العام المقبل ان شاء الله تعالى. ولكنني أكاد أجزم أنك لا تدري بالاجتماع الذي جرى في هذا الشهر، وفي الرابع عشر منه بالذات في المدينة على رأس خمسة وعشرين شهراً

من مهاجرَ رسول الله ﷺ إليها. والذي أحببت أن تكون هذه الرسالة ـ التي موعدها هذا اليوم، ١٤ ربيع الأول ـ موعدنا للاجتماع بهذا الاجتماع، الذي ضمَّ ستة رجال، أود منك ـ قبل أن نحضر لقاءهم ـ أن ترافقني لنلتقي بهم، واحداً واحداً:

ـ ١ ـ

فأحد هؤلاء: بطل في الخامسة والثلاثين، امتلأت نفسه بالخير، والعمل به، والذود عنه، فكان من أسرع الأنصار اليه، إذ أجمع المؤرخون (كما ينقل ابن عبد البرّ) على أن اسلام عبّاد بن بِشْرْ ابن وقش على يد الداعية الأول في المدينة، مصعب بن عمير كان قبل إسلام أسدَي الأوس: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير. ثم مضى لا يلتفت الى غير هذه الدعوة، فشهد بدراً والمشاهد كلها، مع رسول الله ﷺ. وبعثه عليه الصلاة والسلام الى بني سُليم ومُزينة يصدّقهم (أي يأتي بصدقاتهم، ولا يسند ذلك إلا رأس في الحنكة والحكمة والأمانة) فأقام عندهم عشراً، وانصرف الى بني المصطلِق من خُزاعه بعد الوليد بن عقبة ابن أبي مُعيط يصدّقهم، فأقام عندهم عشراً وانصرف راضياً. وجعله رسول الله ﷺ على مقاسم حنين، واستعمله على حرسه بتبوك من يوم قدم الى أن رحل (وكان أقام بها عشرين يوماً) ودعا له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما ترويه عائشة رضي الله عنها قالت: تهجد رسول الله ﷺ في بيتي فسمع صوت عبّاد بن بِشْرْ (أي في تهجده في

المسجد) فقال: يا عائشة، صوت عبّاد بن بِشْرْ هذا؟ قلت: نعم، قال: اللهم اغفر له.

وكان من فضلاء الصحابة، روى أنس بن مالك أنّ عصاه كانت تضيء له إذ كان يخرج من عند النبي ﷺ الى بيته ليلاً. وعرض له ذلك مرّة مع أسيد بن حضير. فلما افترقا، أضاءت لكل واحد منهما عصاه، روى حماد بن سلمة عن ثابت (البناني) عن أنس قال: كان عبّاد بن بشر ورجل آخر من الأنصار (هو أسيد بن حضير) عند النبي ﷺ يتحدثان في ليلة ظلماء حندس، فخرجا من عنده فأضاءت عصا ابن بشر، حتى انتهى عباد وذهب، فأضاءت عصا الآخر، وقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنهما قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بني عبد الأشهل (رؤوس الأوس) سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر.

شهد عباد بن بشر يوم اليمامة (في قتال مسيلمة الكذاب) وكان له يومئذ بلاء وغَناء ومباشرة للقتال وطلب للشهادة، حتى قتل يومئذ شهيداً، سنة اثنتي عشرة وهو يومئذ ابن خمس وأربعين سنة.

يقول أبو سعيد الخدري: سمعت عباد بن بشر يقول: يا أبا سعيد، رأيت الليلة كأن السماء قد فرجت لي ثم أُطبقت عليّ فهي ان شاء الله الشهادة، قلت: خيراً والله رأيت، قال: فأنظر اليه يوم اليمامة وإنه ليصيح بالأنصار: أحطموا جفون (أي أغماد)

السيوف. وتميَّزوا من الناس، وجعل يقول: أخلصونا أخلصونا، أربعمائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد يقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة (الفارس العظيم الذي أعطاه عليه الصلاة والسلام عوداً فهزه فإذا هو سيف قاطع) والبراء بن مالك (البطل الباسل أخو أنس) حتى انتهوا الى باب الحديقة (حديقة الموت التي تحصن فيها مسيلمة مع اربعين الفاً من فرسانه) فقاتلوا أشد القتال، وقتل عباد بن بشر رحمه الله، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً، ما عرفته الا بعلامة كانت في جسده.

- ٢ -

ونلتقي مع آخر من هؤلاء، فاذا هو شاب في السابعة والعشرين ولكنه عريق في البطولة، حسباً ونسباً يمت اليها بأوثق الوشائج يأتي بين جبلي الدعوة، ابن خاله أسيد بن حضير، وعمه سعد بن معاذ ذلكم هو فتى البطولة، وبطل الفتيان: الحرث بن أوس، الأوسي الذي آخى رسول الله ﷺ - كما رووا - بينه وبين عامر بن فهيره (الذي صاح لما طعنه جِبار بن سُلمى: فزتُ والله! ورفع الى السما عُلوّاً، فأسلم جبار بن سُلمى لما رأى من قتل عامر بن فهيره ورفعه. وقال رسول الله ﷺ - فيما يذكره ابن سعد -: إن الملائكة وارت جثته وأُنزل عليين)، انحدر الحرث بن أوس من هذه الأرومة الكريمة، ونشأ في هذه البيئة الطيبة، وتربَّى في مدرسة البطولة على يدي عمه الصلد الجلد، سيد الأوس سعد بن معاذ،

فكان تلميذه ورفيقه، يروي ابن سعد أن عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الارض من ورائي، تعني حِسّ الأرض، فالتفت، فاذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحرث بن أوس يحمل مجنّه (أي ترساً) فجلست الى الارض، فمر سعد وهو يرتجز ويقول:

لبّث قليلاً يدرك الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

شهد الحرث بدراً، وشهد أحداً. وكان يوم استشهد ابن ثمان وعشرين سنة.

- ٣ -

ومن هؤلاء: أبو عبس بن جبر، نجده في وقتِ اللقاء - الذي سنتحدث عنه قريباً بين الستة - في نحو الأربعين يقل عنها سنوات او يزيد. وأبو عبس هذا كان يسمى في الجاهلية عبد العزّى، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن لأنه يحب لأصحابه وأمته، في كل ناحية، كل خير، ولأنه إنما بعث لإحداث الانقلاب الخير في حياة الناس، بجميع أجزائها، حتى تقوم على أساس جديد كريم سليم سام، كل ما فيها، من صغير وكبير، يذكرهم بغايتهم، وينبثق عن عقيدتهم، ليتاح لهم أن يهزّوا الدنيا، فينفضوا عنها غبارها، ويقيموها على الأساسْ الجديد، أمة واحدة ناعمة هانئة في ظل عبادة الله وطاعة رسوله.

وكان أبو عبس يكتب العربية قبل الأسلام، وكانتْ الكتابة في العرب قليلاً، وآخى رسول الله ﷺ، بين أبي عبس وبين حصن ابن حذافة السهمي، البدري (وهو زوج حفصة بنت عمر بن

الخطاب زوج رسول الله ﷺ).

كان أبو عبس بن جبر، عظيماً في استقامته على دينه وعقيدته، وجعل الإسلام محوزاً لحياته كلها، يعمل لأجله، ويبذل كل شيء في سبيله، وذلك منذ اليوم الأول لإسلامه، إذ عمد هو وأبو بردة بن دينار الى أصنام قومهما بني حارثة، يكسرانها حين أسلما (كما فعل سعد بن معاذ وأسيد بن حضير حين أخذا عقب اسلامهما في تحطيم أصنام بني عبد الأشهل). ونقل ابن حجر في الإصابة أن رسول الله ﷺ أعطى أبا عبس بن جبر بعدما ذهب بصره عصا، فقال تنوّر بهذه. فكانت تضيء له ما بين كذا وكذا. وأبو عبس هذا هو الذي يروي لنا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، وهو قوله ﷺ : « من اغبرّت قدماه في سبيل الله، حرّمه الله على النار ».

شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وكان من كبار الأنصار فكان عمر وعثمان يبعثانه يصدّق الناس.

مات أبو عبس في سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان ابن عفان وهو ابن سبعين سنة، وصلّى عليه عثمان ودفن بالبقيع، وعاده عثمان رضي الله عنه في احتضاره، فلما أفاق قال عثمان : كيف تجدك؟ قال : صالحاً، وجدنا شأننا كله صالحاً إلا عقولاً (جمع عقال وهو الرسن) هلكت بيننا وبين العمال (الذين يجمعون الزكاة) لم نكد نتخلّص منها! (كيف كانت حياة هؤلاء الذين يستعظم أحدهم شبهة لقطعة حبل في عنق البعير. وكيف تكون

الآن حياة من يستصغر في الحرام الجبل، ويبتلع الجمل، ولا يحسّ بما فعل؟).

- ٤ -

فاذا التقينا مع أبي نائلة، سِلْكان بن سلامة بن وقش، طالعتنا نفس الصورة من البطولة والإيمان والاندفاع، التي اخذت بقلوبنا في الذين زرناهم آنفاً والـذين لم نزرهـم، من الـذين تربّـوا في مدرسة محمد ﷺ.

ليس كالمسلم في الخلق أحد
ليس خلق اليوم بل خلق الأبد
إنما الإسلام في الصحرا امتهد
ليجـيء كلُّ مسلـم أسـد!

ولا عجب في أن يكون ابو نائلة من هذه الزمرة الخيِّرة، وعبّاد بن بشر (أو من لقيناهم) ابن عمّه، ومحمد بن مسلمة (الذي سنلتقي به بعد قليل إن شاء الله تعالى) رضيعه.

شهد المشاهد مع الرسول الكريم ﷺ.

وأنبتت هذه البذرة الطيبة في قلبه، بذرة الإيمان، النبتَ الطيب في جوارحه (والجوارح تبع للقلـب) ظهـر هذا في لسانـه فكان شاعراً محسناً، وظهر في يده، فكان من الرماة المذكورين، ونرجو أن يظهر في خاتمته، فيكتبنا الله وإياه من الفائزين.

- ٥ -

ونلتقي أخيراً بمحمد بن مسلمة، سيّد هذا اللقاء الذي سنذكره

بين هؤلاء الذين ذكرنا، وهو رضيع أبي نائلة، وأخو أم عيسى بنت مسلمة، وأبو أم الحرث بنت محمد بن مسلمة، وكلتاهما من أزواج أبي عيسى بن جبر. كما أن إحدى أزواج محمد بن سلمـة، (أمّ عمر بنت سلامة بن وقش)، أخت أبي نائلة، الذي يكون هذا خال أم الحرث بنت محمد، زوج أبي عبس بن جبر.

وهو أول، من سمي محمداً من الانصار، فقد ولد (كما ذكر الواقدي) قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة.

أسلم محمد بن مسلمة قديماً، على يد مصعب بن عمير، وذلك قبل إسلام أسيد بن حفيد وسعد بن معاذ. وشهد محمد بدراً وأحداً (وكان فيمن ثبت فيها مع رسـول الله ﷺ حـين ولىّ النـاس) والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما خلا تبوك، فإن رسـول الله ﷺ ، استخلفـه على المدينـة حـين خرج إلى تبـوك. وآخـ ءا ، الصلاة والسلام بين رأسي الأمانة من المهاجرين والأنصار. بـي عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة.

وكان محمد ممن يوجههم رسـول الله ﷺ في المهـام، بعثـه إلى القُرطاء (وهم من بني كلاب) سرِّيةٍ في ثلاثين راكباً من أصحاب رسول الله ﷺ فسلم وغنم، وبعثه أيضاً إلى ذي القَصَّة، سرّية في عشرة نفر. ولما خرج إلى عمرة القضاء فانتهى إلى ذي الحُليفة قدّم الخيل أمامه، وهي مائة فرس، واستعمل عليها محمد بن مسلمة.

وقد جاء عنه أنه كان يقول: يا بنَيّ، سلوني عن مشاهد النبي عليه السلام ومواطنه، فإنّي لم أتخلف عنه في غزوة قط، إلا واحدة في

تبوك، خلّفني على المدينة. وسلوني عن سراياه، ﷺ، فإنـه ليس منهـا سرّية تخفـى عليّ إمـا أن أكون فيهـا، أو أن أعلمهـا حـين خَرجتْ.

وكان محمـد مُعـدّاً عنـد عمـر بن الخطـاب، لكشف الامـور المعضلة في البلاد، وهو كان رسوله في الكشف عن أمير الكوفـة، وحـرق باب قصره (ولا أعــد ببيان هذا وغــيره من هذه الحياة الفخمة لمحمد بن مسلمة في رسالة صفر، ولكن عسى).

ولما كانت الفتنة تجنَّبها، واعتزل فيمن اعتزل (كسعد بـن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر).

عن ضبيعة بن حصين الثعلبي قال: كنـا جلوسـاً مع حذيفـة فقال: إنّي لأعلـم رجلاً لا تغرّه الفتنة شيئاً، فقلنا: من هو؟ قال: محمد بن مسلمة الانصاري، فلما مات حذيفة، وكانت الفتنـة؛ خرجتُ فيمن خرج من الناس فأتيت أهل ماء، فإذا أنا بفسطـاط مضروب مُتَنَحىً تضربه الـرياح، فقلـت: لمن هذا الفسطـاط؟ قالوا: لمحمد بن مسلمة، فأتيته فإذا هو شيخ، فقلت له: يرحمك الله، أراك رجلاً من خيار المسلمين، تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرتك، قال: تركته كراهية الشرّ، ما في نفسي أن تشتمل على مصر من أمصارهم حتى تنجلي عمّا انجلت.

وعن الحسن وزيد بن أسلم، أن محمد بن مسلمة قال: أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً فقال: يا محمد بن مسلمة، جاهد بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان، فاضرب

به الحجر حتى تكسره، ثم كف لسانك ويدك، حتى تأتيك منيةٌ قاضيةٌ، أو يد خاطئة، فلما قتل عثمان، وكان من أمر الناس ما كان، خرج إلى صخرة في فنائه، فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره. ومات محمد بن مسلمة بالمدينة، في صفر سنة ست وأربعين، وهو يومئذ ابن سبع وسبعين سنة وصلى عليه مروان بن الحكم.

- ٦ -

هؤلاء خمسة، وسادسهم يدعى كعب بن الاشرف، موغل في الغدر والخيانة، عريق في الشر والإيذاء، ترعرع فيهما (وهو بعد في صلب أبيه، وهو طائي من بني نبهان) الذي كان فيما يبدو من معدن الاذى، فأصاب دماً في قومه في الجاهلية، ففرّ إلى المدينة حيث حنّت جوانحه إلى اليهود، فحالف بني النضير، ثم لم يكتف بهذا حتى تزوج بامرأة منهن (عقيلة بنت الحقيق)، وكأنه أراد لهذا الثعبان الذي سيثمره هذا الزواج، أن يجد الحمأة الخبيثة التي تتلاءم مع هذه النفس الشريرة، تنشأ فيها، وترَبّى بين أوحالها. وفتحت لكعب أبواب الثراء، فساد يهود الحجاز بكثرة ماله، وكان يعطي ويهب لكن للشرّ، وينفق من ماله، لكن للصدّ عن الخير، والكيد للحق، وصرف الناس عنه، فكان يعطي أحبار يهود ويصلهم، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، جاءه أحبار اليهود، من بني قينقاع، وبني قريظة، لأخذ صلته على عادتهم، فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل؟ فقالوا: هو الذي كنا ننتظر، ما أنكرنا

من نعوته (أي أوصافه) شيئاً. فقال لهم: قد حُرمتم كثيراً من الخير، ارجعوا إلى أهليكم فإن الحقوق في مالي كثير، فرجعوا عنه خائبين. ثمّ رجعوا إليه وقالوا له: إنا أعجلنا فيما أخبرناك به أولاً، ولما استنبأنا علمنا أنا غلطنا، وليس هو المنتظر! فرَضي عنهم، ووصلهم، وجعل لكل من تابعهم من الاحبار شيئاً من ماله.

وكان كعب بن الأشرف شاعراً أيضاً، إلا أنّه كذلك حبذ لسانه في خدمة الشيطان، لينفث السمّ، من هذا القلب الكالح، الذي ملأه الحقد على الاسلام ورسوله والمسلمين، فنصب نفسه رأساً للضلاِل، وأخذ يهجو الرسول الكريم، ويحرّض عليه كفار قريش، فسكت عنه، وأمر أصحابه بالصبر، علّه يقلع، ولكنه لم ينزح عن أذاه، وقد كان عاهد النبيﷺ أن لا يعين عليه أحداً، فنقض كعب العهد، وسبّه وسبّ أصحابه. حتى إذا كانت وقعة بدر، فنصر الله دينه وأيّد رسوله، وأدال للحق من الباطل، فهُزمت قريش، وقُتل سبعون من صناديدهم، وأسر مثل ذلك من أشرافهم. وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشّران أهل المدينة بما فتح الله على رسوله والمؤمنين، قال: أحق هذا؟ أتُرَون محمداً قَتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الارض خير من ظاهرها. فلما تيقّن عدو الله الخبر، ورأى الاسرى مقرنين، كبُتَ وذلّ، وخرج إلى قريش حتى قدم مكة، فنزل على المطّلب بن أبي وداعة السهمي وزوجته عاتكة (من بني

أميّة) فأنزلته وأكرمته، وجعل يحرّض على رسول الله ﷺ ، وينشد الاشعار، ويبكي أصحاب القَليب من قريش الذين أصيبوا ببدر. فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا حسّان فهجا المطّلب وزوجته (وأسلما بعد، رضي الله عنهما) فلما بلغ ذلك عاتكة ألقت رحله وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟ فخرج من عندها وصار يتحول من قوم إلى قوم، فيفعل مثل ما فعل عند عاتكة ويبلغ خَبَرُه النبيَّ ﷺ ، فيذكره لحسّان فيهجوه، فيفعلون معه كما فعلت عاتكة..

ثمّ عاد إلى المدينة وهو على أخبث مما عليه من الهجاء، والايذاء للمسلمين، والتشبيب بنساء الصحابة، والتغزّل بهنّ، والتحريض على المسلمين..

فلما صار الامر إلى هذا وأسفر على حقده وعداوته، ونقض العهد، وحالف الكفار على المسلمين، وأخذ يؤلب عليهم، ويؤذيهم.. حينئذ قال رسول الله ﷺ : اللهم اكفني ابن الاشرف بما شئت، في إعلانه الشرّ وقوله الاشعار. ثم أضاف إلى التجائه إلى الله عزّ وجلّ، واستنصاره به، واعتماده عليه (وهو أساس كل عمل، وأصل كل نجاح) أضاف إلى ذلك الاخذ بالاسباب (التي ليس فيها أي أثر من جدوى، ولكن الله عزّ وجلّ قد يجعل فيها النجع - الفوز - إذا أراد) فقال: من لي بابن الاشرف فقد آذاني؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا به يا رسول الله، وأنا أقتله. فقال: إفعل، وشاورَ سعد بن معاذ في أمره (ولذا يحسن بالمسلم ألا يغفِل المشورة في جليل أموره، على أن يتخيرّ من يصلح لهذه

المشـورة). فاستشـار سعيداً فقـال له: توجّـه إليه واشـك إليه الحاجة، وسله أن يسلفكم طعاماً (الطعام هنا القمح). فمكث محمد بن مسلمة ثلاثـاً مشغـول النفس بمـا وعـده من قتـل ابـن الاشرف، لا يأكل ولا يشرب إلا ما تعلق به نفسـه. فبلـغ ذلك النبي ﷺ، فدعاه فقال له: لِمَ تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفِينَّ لك به أو لا. قال: إنما عليك الجهد.

فأتى مُحمد أبا نائلة وعبّاد بن بشر، والحرث بن أوس وأبا عبس ابن جبر، فأخبرهم بما وعد به رسول الله ﷺ من قتله، فأجابـوه وقالوا: كلّنا نقتله، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنه لا بدّ لنا من أن نقول. (أي مما يسرّ كعباً وإن كان فيه بعض الطعن، لنتوصل به إلى التمكّن من قتلـه) فقـال: قولـوا ما بدا لكم، فأنتم في حلّ من ذلك.

فاحتجوا على أن يسبقهم أبو نائلة، سِلـكان بن سلامـة، إلى عدوّ الله كعب بن الاشرف، قبل أن يأتوه، وكان أبو نائلـة أخـا كعب من الرضاعة فجاءه أبو نائلة، فأنكره كعب وذُعر منه (وغير المؤمن لا لبّ له) فقال: أنا أبو نائلة، وقد جئتـك لحاجـة أريد ذكرها لك فاكتم عنّي، قال: أفعلُ، قال: إنما جئت أخبـرك أن قدوم هذا الرجل كان علينا بلاء من البلاء، عادتنـا به العـرب، وحاربتنا، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبـل، حتـى ضاع العيال، وجُهـدت الانفس، وأصبحنـا قد جُهِدْنـا وجُهِـد

عيالنا، فقال كعب: أنا ابن الاشرف، أنا والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الامر سيصير إلى ما يقول، وأيضاً والله لتَمَلنَّه، ويحكم. ألم يأنِ لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل؟ قال: إنا قد اتبعناه فلا نحبّ أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تبيعنا طعاماً وتمراً، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة. فقال: أترهنونني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إنا نستحي أن يُعَيّر أبناؤنا فيقال: هذا رهينة وسقٍ وهذا رهينة وسقين. ولكنا نرهنك سلاحنا، وقد علمت حاجتنا إلى السلاح اليوم، وإن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك (وإنما قال له ذلك لئلا ينكر عليهم مجيئهم إليه بالسلاح) فقال: إن في الحَلْقَه لوفاء (أي إن السلاح يفي بهـذا العرض) إئتوني بسلاحكم واحتملوا ما شئتم فرجع سِلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، وأجمعوا أمرهم على أن يأتوه إذا أمسى، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه. فمشى معهم إلى بقيع الفرقد، ثم وجّههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته.

ومضوا في ضوء القمر (ليلة الرابع عشر من ربيع الاول في العام الثالث من الهجرة) حتى انتهوا إلى حصنه (ويقوم على حصنه بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية، وبينه وبينها نحو ساعتين ونصف، وما تزال بعض آثاره إلى الآن، ويبدو منها أنه بشكل مربع ضلعه ٣٣ متراً) وكان حديث عهد بعرس، فهتف به أبو

نائلة، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها. وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلـون في هذه الساعـة، قال: إنه أبو نائلة، قالت: والله إني لاسمع صوته كأنما يقطر منه الدم، وإنّي لأعرف فيه الشرّ، وما طرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشيء مما تحبّ! فقال: أنا معهم على ميعـاد، وقـد حدثونـي بحديثهـم وشأنهم وإنما هو أخـي محمـد بن مسلمـة ورضيعـي أبـو نائلـة، فقالت: فأرسلْ إلى أمثالهم من قومـك يكونـوا معـك، قال: لو وجدني هؤلاء نائماً ما أيقظوني، قالت: فكلمهم من فوق البيت، فأبى وضرب بيده الملحفة وقال: لو دعي الفتى لطعنه لأجاب (وقد دفق اطمئنان إليهم إلى هذا التبجّج، ولم يدر الشقـيّ أنّ الروابط السابقة لدى المسلم قد زالت كلها، وأصبحت جميع الروابط لديه تقوم على أساس الايمان فقط). ثم نزل إليهم، فحادثـوه ساعـة حتى انبسط إليهم وأنس بهم، ثم قالوا: هل لك يا ابن الاشراف أن نتماشى إلى شعـب العجـوز (شِعـب في الجبـل، يرتـاده النـاس للنزهة) فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم، فخرجـوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم ان محمد بن مسلمة أدخل يده في شعره ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأنّ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ برأسه ثم قال: اضربوا عدوّ الله، فضربوه فاختلفت عليهم أسيافهم ورد بعضها بعضاً (اذ كان كلهم حريص على العمل لمحـق الباطـل وازالة الشرّ وعلى أن يكتب له هذا الخير) فلم تغن شيئاً، ولصق

بأبي نائلة (فقد ذهب اطمئنانه إليهم، الذي دفق إلى التبجج وطار لبّه فأنساه الخوف أن الفتى إذا دعي لطعنة أجاب). ويذكر محمد ابن مسلمة سكّيناً كانت معه، فينتزعها فيضعها في سرّته، ثم يتحامل عليها، فقطّعه حتى انتهى إلى عانته، فصاح عدو الله صيحة لم يبق حصن من حصون اليهود إلا أوقدت عليه نار، ووقع عدوّ الله ثم حزوا رأسه وحملوه معهم، وعادوا متوجهين إلى المدينة، واجتمعت اليهود، فأخذوا على غير طريق الصحابة ففاتوهم، وأبطأ الحرث بن أوس، الذي كان قد جرح في رأسه، أو في رجله، أصابه بعض أصحابه، فنزف الدم، فلما وصلوا إلى حرّة العُرَيض، انتظروه حتى جاء يتبع آثارهم، فاحتملوه، فلما بلغوا بقيع الفرقد كبّروا، وقد قام رسول الله ﷺ تلك الليلة يصليّ، فلما سمع تكبيرهم كبّر، وعرف أن قد قتلوه. ثم انتهوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أفلحت الوجوه! فقالوا: ووجهك يا رسول الله، ورموا برأس كعب بين يديه، فحمد الله على قتله، وتفل النبيّ ﷺ على جرح الحرث فَبَرىء ولم يؤذ بعد.

وأصبح اليهود وقد خافوا لمصرع الخائن (ولا يخاف الوفيَّ الوفيُّ) فليس بها يهوديّ إلا وهو يخاف على نفسه وملأهم الذعر، فجاؤوا النبيَّ ﷺ فقالوا. قُتل سيدنا غيلة! فذكّرهم النبيُّ ﷺ صنيعه وما كان يحضّ عليهم ويحرّض في قتالهم ويؤذيهم (فكتبوا بينه وبينهم صلحاً، وكان كتاب الصلح بعد ذلك مع علي رضي الله عنه).

ولن نذكر هنا قصيدة كعب بن مالك التي أولها:

فغـودر منهـم كعـب صريعاً
فذلّـت بعـد مصرعـه النضير

ولا أبيات حسّان بن ثابت التي يذكر فيها قتـل ابن الاشرف وسلاّم بن أبي الحُقَيْق :

لله درٌّ عصابـة لاقيتهم
يا ابـن الحقيق وأنـت يا ابـن الاشرف

لأننا سنكتفي في هذا المجال بما قاله عباد بن بشر أحد الخمسة الذين جندلوا الطاغية :

صرخـتُ به فلـم يعـرض لصوتي
وأوفى طالعـاً مَن رأس حذر
فعـدتُ له، فقـال من المنادي؟
فقلـت أخـوك عبّـاد بن بشر
وهذي درعنـا رهنـاً فخذها
لشهـر إن وفى أو نصف شهر
فقـال معـاشر سغبـوا وجاعوا
ومـا عدمـوا الغنـى من غـير فقر
فأقبـل نحونـا يهـوي سريعاً
وقـال لنـا لقـد جئتـم لأمر
وفي أيمانـنـا بيض حِداد
مجربـة، بهـا الكفـارَ نفري

فعانقه ابن مسلمة المردّى
به الكفّار كالليث الهزبر
وشدّ بسيفه صلتاً عليه
فقطّره أبو عبس بن جبر
وكان الله سادسنا فأُبْنا
بأنعم نعمة وأعزّ نصر
وجاء برأسه نفر كرام
هم ناهيك من صدَق وبرّ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تحت لواء القرآن الكريم

للأستاذ

وهبي سليمان الألباني

ربيع الثاني ١٣٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تحت لواء القرآن الكريم

١ ـ وصف القرآن الكريم وفضله :

القرآن هو كتاب الله تعالى الخالد على الدهر الباقي على الايام سليماً محفوظاً، الدائم على ممر القرون نبراس الحق والهدى ضم أصول الديانات السابقة ونقلها بامانة إلى الأجيال اللاحقة، هو روح القلب ونور العين وهداية الطريق.

القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في ثلاثة وعشرين سنة تقريباً، فكان حياة الناس وهداهم، كان الضياء المشرق والنور المضيء والمرشد الناصح، كان الجامع بعد الفرقة والمنظم بعد الشتات، كان المشرع العادل الحكيم بعد حكم الفرد والعادة، كان المعلم بعد الأمية والهادي بعد الضلالة، كان المشجع إلى الحق بعد التهيب والمظهر له بعد هوان، كان الحارس الرادّ لكرامة الانسان بعد انهيار ها والحافظ لحياة الأنثى بعد امتهانها، كان = القرآن = ذلك الذي حول العرب من أمة متفرقة جاهلية مهينة إلى أمة موحدة نورانية كريمة من مهامها قيادة العالم إلى الهدى والحق.

ولقد وصف الله تعالى القرآن الكريم في القرآن الكريم باوصاف عديدة تدل على فضله العظيم.

أ ـ فوصفه بأنه حياة وروح، قال الله تعالى ﴿ وكذلكَ أوْحَيْنـا الَيْكَ رُوْحاً مِنْ أمْرِنا ما كُنْتَ تدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ. . ﴾ (١) وكما تكون حياة الجسد بالروح كذلك تكون حياة الايمان بالقرآن.

وقد كان القرآن الكريم كذلك = وما يزال = فهو الذي نفخ في روح حياة المؤمنين فجعلهم عباد الله سبحانه وحده من بعد عبادة الأحجار والأصنام، وغرس فيهم فضيلة العزة بالاسلام وللاسلام بعد أن كانت بالمظاهر وللنفوس والأهواء، وأهـاب بالقلـوب أن تعمر بحب الخير للنـاس، وجعـل مصلحـة المؤمـن الحقيقية هي مرضاة الله تعالى وما والاه، وحض على إخلاص العمل كلـه لله تعالى وجعل حرفة الكسب على طاعته سبحانه كعبادة من العبادات في تكفير الذنوب والسيئات، هو الذي شرع الاخـوة لاصحـاب المبدأ الواحد وشرع الجهاد لاعلاء كلمة الله تعالى وإيصال شرعته إلى أرجاء الأرض، وفرض على العباد طهارة القلب واللسان واليد وعفة الروح والجسد، هو الذي سما بأهله إلى أعلى مراتب المجد وجعلهم شهداء على من سبقهم من أمم هذه الأرض.

وما أجلّ وصف القرآن الكريم لما صنع القرآن الكريم بالعرب من تحويلهم إلى حياة عزيزة مثمرة من حياة مظلمـة تافهـة، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ . . وكُنْتمُ أمْواتاً فأحْياكمْ. . ﴾، ﴿ يا أيهُا الذينَ آمنُوا استْجيبُوا لله ولِلرسولِ إذا دعاكم لِما يُحْييكمْ. . ﴾(٢).

ب ـ ووصفه بأنه ضياء ونور،قال الله تعالى ﴿قدْ جاءَكمْ مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبين يهدي بهِ اللهُ من اتَّبَعَ رضْوانهُ سُبُلَ السّلامِ وَيخرجُهُمْ مِنَ الظُلماتِ إلى النُّور. .﴾ [1]، ﴿ما كنْتَ تدري ما الكِتابُ ولا الإِيمان ولكنْ جعْلناهُ نوراً. .﴾ [2].

وقد كان القرآن الكريم كذلك ـ وما يزال ـ فهو الذي أضاء على المؤمنين به سبيل العقيدة والدين الصحيح، أشرق على النفوس فنشّأها على الخير ورباها على الاستقامة نظّم صلة العبد بربه سبحانه وصلته بنفسه وبالناس ونظّم علاقته بماله ووقته وعمله، أضاء على المؤمنين طريق السيادة فجعل لهم الخلافة في الأرض ونصرهم على الأعداء ومكن لهم في الحكم وسخر لهم ـ ولغيرهم ـ من أجل مصلحتهم ما في السموات والارض.

فالمؤمنون به يعيشون في قلوبهم وأعمالهم وأخلاقهم على هدى ونور.

قال الله تعالى ﴿. . فهوَ على نورٍ منْ ربِّه. .﴾،﴿ومنْ لم يجْعل الله لهُ نوراً فما لهُ مِنْ نُور﴾.

ج ـ ووصفه بانه دواء وشفاء، قال الله تعالى﴿. . قلْ هو للّذين آمنوا هُدىً وشِفَاءٌ. .﴾﴿قدْ جاءَتْكم موعظةٌ منْ رٰبِّكم وشِفاءٌ لما في الصُدور﴾.

وقد كان القرآن الكريم كذلك = وما يزال = فلقد شفى الانسان من مرض عبادة غير الله تعالى، عالجه من مرض اطلاق الاهواء والغرائز من عُقُلها تحيا دون هدف وتسعى إلى غير غاية

ليس لها وازع ولا رادع، داواه من أمراض القلب الفتاكة كالحقد والحسد والبغضاء فحفظ المجتمع من حقد الفقراء على الاغنياء وحَسْدِهم لهم وتمني زوال نعمهم ولحاق الضرّ بهم، وهذه الامراض الثلاثة هي اليوم أشد الامراض فتكاً بالبشر بعد ضعف الثقة بالله تعالى، داواه من أمراض اللسان القتَّالة كالغيبة والنميمة والفحش والبذاءة، داواه في نفسه فجعلها تحيا لغاية كريمة لا تجعل الدنيا أكبر همها ولا مبلغ علمها بل تحيا طلباً لمرضاة الله تعالى واتقاء سخطه، شفاه من أمراض الفرقة واحتقار الذات، فقلب العرب الموزعين أشتاتاً ما بين خاضع للفرس في دولة الحيرة وخاضع للرومان في امارة الغساسنة وخاضع لظلم الامراء في غير ذلك، قلبهم إلى أمة واحدة تضرب الفرس والروم معاً في حصونهما وتخرج من المعركة ـ بعد قليل ـ مظفرة منتصرة ثم تسيح في الارض تنشر الضياء وتقيم صروح العدالة على حكم القرآن وتردّ الى الانسان كرامة الانسان.

داواه من الكبر والغرور والاستهانة بالضعفاء وترك القيام بمصالحهم كما أمر الله تعالى وهذه الامراض الثلاثة هي بعض أسباب طغيان الاغنياء وظلمهم الفقراء والضعفاء، وانها لعمري معاول الهدم في بناء الاخوة وسيوف الفتك في جسم المجتمع. فيا حبذا شفاء الحياة بالقرآن

قال الله تعالى﴿ونُنَزِّلُ منَ القُرآنِ ما هوَ شِفَاءٌ ورَحمةٌ للمؤمنين﴾[1].

---

(١) سورة الاسراء : ٨٢.

٢ ـ لا بد لكل جماعة من عقيدة وكتاب :

الايمان بالله تعالى أو الدين للخالق فطرة في الانسان وطبيعة، قال الله تعالى في الحديث القدسي « . . وإني خَلقْتُ عبادي حُنفاءَ كلهم وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالتْهم عنْ دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرَتْهم أنْ يُشركوا بي ما لم أنزِّل به سُلطاناً » مسلم. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « كلُ مولود يولد على الفطْرة، فأبواهُ يهُوِّدانه أو يُنصرّانه أو يُمجِّسانه » البخاري ومسلم. ان التدين استعداد فطري اصيل في اعماق النفس الانسانية، وليس ـ كما زعم بعض الملاحدة ـ ناشئاً عن الخوف فان الخوف يدفع إلى النفور والبغض، بينما يدفع الايمان إلى الحب الذي يسترخص في سبيله المال والروح والاهل والارض، يُستنزل به الدمع ويخفق لبشائره القلب، قال هنري برغسون : لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة، وقال : إن فطرة التدين ستلاحق الانسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح وستزداد فيه هده الفطرة على نسبة علوّ مداركه فلا يسع العقل إلا أن يسلم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من عالم الشهادة الملموس مراحل أخرى من عالم الغيب المجهول فيعود صاغراً وقد آمن بحدوده البشرية.
وقال الاستاذ عبد الرحمن النحلاوي :

[. . فالرغبة الظامئة إلى الاستزادة من المعرفة وحب الوصول إلى اليقين أمام المشكلات الكونية الكبرى مع عجز الانسانية عن

الوصول إلى جوابٍ شاف عن هذه المشكلات بدون اللجوء الى الايمان والاعتقاد والوحي، كل ذلك يدل على أن النفس الانسانية مفطورة على التدين والخضوع الى الذات الالهية والتسليم لها بالعلم والقدرة والكمال].

لذا لا نجد في القرآن الكريم = أمين الكتب السماوية وزبدتها = دعوة الى الايمان المجرد بالله تعالى، وانما نجد فيه دعوات الى الايمان بالله تعالى وحده والخضوع له وحده، وهي مقتضى الفطرة الانسانية قال الله تعالى﴿فأقِمْ وجْهكَ للدينِ حنيْفاً، فِطْرَةَ اللهِ التي فَطرَ الناسَ عَليْها لا تبْدِيلَ لخلْقِ الله، ذلكَ الدِّينُ القيم..﴾[1] ان الإلحاد = وهو دعوة سلبية تقوم على النفي والانكار، يحجر على العقل ويحرمه البحث في أسرار الله تعالى في هذا الكون ويكتفي أمام الحقائق الكونية الكبرى بهزّ الاكتاف جهلا ووقاحة، ويقف من الحقائق الانسانية والنفسية موقف المجانين = ان الالحاد عقيدة عند اهله، فانه ايمان وخضوع وعبادة للهوى والشيطان أولرجل وجماعة من الناس وله كتاب أو كتب هي كذا وكذا، ومن خلال تلك العقيدة وذاك الكتاب ينتظم سير جماعة الالحاد ويفلسف لها الكون والحياة والانسان، ويعدّ الخارج عليها كافراً خارجاً على جماعته.

ان الجماعة لا تحيا دون عقيدة، وان عاشت في فترة من حياتها على عقيدة غير واضحة، احتارت وتعثرت وترددت في سيرها.. ترفع رأسها الى السماء وتخفضه الى الأرض، تنظر يميناً ويساراً..

(١) الروم : ٣٠

تطلب من يمسك بيدها ليحملها على الطريق. تجد فيها = أثناء تلك الفترة = الايمان القوي والالحاد المتطرف، التمسك المتين والتحلل المزري، الفوضى العجيبة والاستعداد لتقبل كل دعوة.

. . وبعض البلاد الاسلامية تعيش هذه الفترة في حياتها ونسأل الله تعالى أن لا تطول بها، فتعود إلى الايمان الصحيح من جديد لتصنع به الأعاجيب.

إن الايمان بالله تعالى وجميع ما جاء من عنده في كتاب الله تعالى وصحيح السُّنة هو عقيدة الجماعة المؤمنة، والقرآن الكريم والسُّنة المطهرة، كتاب الجماعة المؤمنة، يفلسف لها الكون والحياة والانسان وعلائق الإنسان بالإنسان، على أن جميع ذلك خلْق الله تعالى وتقديره وحكمه وقضاؤه ومشيئته وأمره، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض وما بينهما، من خلال ذلك الكتاب ـ والسنة من أمر الكتاب ـ ينتظم اعتقاد الجماعة المؤمنة وسلوكها وسيرها في سائر ميادين الحياة، ويُعدّ الخارج عليه كافراً مرتداً مستباح الدين يقتله الحاكم.

٣ ـ لواء القرآن الكريم :

وقد رفع القرآن الكريم لواءه لمتبعيه ووضع الصوى والاعلام في طريق المؤمنين به.

أ ـ فمنها : الأخوّة فقد جعل المؤمنين إخوة يكون بينهم ما يكون بين الاخوة من تلاقي وتعاون وتناصح وتكافل وشرط لتلك الاخوة

المحبة - وهي زبدة الخير واكسير حياة الأفراد والجماعات، قال الله تعالى: ﴿ إنَّما المُؤْمِنونَ إخْوَةٌ فَأصْلِحُوا بَينَ أخَـوَيْكُمْ وَاتَّقـوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [1] وقالﷺ: « والذَّي نَفْسي بيدِهِ لا تدْخلون الجنَّة حتَّى تُؤْمنوا ولن تؤمنوا حتَّى تحابوا أوَلا أدلُّكم على شيء إذا فعلْتموه تحَابَبْتم؟ أفشوا السَّلام بينكم » مسلم. وقال: « لا تباغضوا ولا تدابَروا ولا تنافَسوا وكونوا عباد الله إخواناً » مسلم. وقال: « لا يُؤْمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » متفق عليه. وقالﷺ ليزيد بن أسد: أتحب الجنة؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: « فأحِب لأخيك ما تحب لنفسك ». وجعل تلك المحبة قائمة على أسس متينة وأصول ثابتة، وليس وليدة العواطف الذاهبة ولا المصالح المتبدلة، فربما تبدلت العواطف فأبغض الحبيب حبيبه، وربما اختلفت المصلحة فنسي الصديق صديقه.

من تلك الأصول ما ذكر الله سبحانه في آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلاَ تَفرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمةَ الله عَلَيْكُم إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأصْبَحْتُمْ بِنعْمَتِهِ إخْواناً، وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّار فَأنْقَذَكُمْ مِنْها، كَذَلِك يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2] إن الاخوة القائمة على أصل ثابت من التمسك بكتاب الله تعالى والاحتكام إلى شرعه والاجتماع على ذلك هي التي تحفظ القلوب من البغض وتصون الأنفس عن الغرض وتعصم العقول من الخديعة، هي التي تقوّي الرابطة فترتفع من التلاقي إلى

---

(١) الحجرات: ١٠ (٢) سورة. ١٠٣

التعاون، ومن التعاون إلى الاحسان ومـن الاحسـان إلى الايثار ومن الحب إلى التضـحية والاخـلاص ومـن الاخـلاص إلى سلّ سخيمة الحسد والحقد، وبدون ذلك الاصل تقوم الاخوة بناءً دون روح وظاهرة دون حقيقة ﴿. . تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى. . ﴾فلا تجتمع كلمة ولا تتحد غاية. ولقد قضت حكمة الله تعالى أنه لا يجمع قلوب الناس «ومنهم العرب» على فكرة دومـاً إلا الـذي جمعهـا يومـاً، وذلك هو الله تعـالى بهـذا القـرآن ولا شيء سوى القرآن، قال الله تعالى: ﴿. . وَأَلَّف بَيْنَ قُلُوبِهِـم لَوْ أَنْفَقْـتَ ما في الأرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ الله أَلَّف بَيْنَهُمْ إنَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [1]. فلو أنَّ الرسول ـ بأبي هو وأمـي ﷺ ـ وهـو من في عقله وإخلاصه وسمو خلقه وحسن إدارته، حاول أن يجمع قلوب الناس على غير القرآن لعجز عن ذلك! فمن ذا الذي يزعـم أنـه يجمع قلوب الناس ـومنهم العربـ على غير القرآن ويقدم لزعمه الدليل والبرهان؟ إن القرآن يقطع على مثله الطريق قائلا له لا . . لن تنجح . . لن تجمع بل ستفرق وتشتت.

إن قلوب الناس ـ وأخص العرب ـ جُمعت على الاسلام يومـاً فعزَّت وعزّ بها الاسلام، ولن تجتمـع تلك القلـوب في القـريب والبعيد إلا بالقرآن ومن أجل العمـل بالقـرآن، وعسى أن يكون ذلك قريباً﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤْمِنُونَ. . ﴾.

ومـن تلك الأصـول ما ذكر الله سبحانــه في سورة التوبــة: ﴿والْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُـمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُـرُونَ بالمعْـروفِ

(١) الأنفال: ٦٣.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورسُوله أوْلئِكَ سَيَرْحَمَهمَ اللهُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾ فان من يحب الخيرله ويكره له الشر، يرقب عمله فان رآه مستقيماً شجعه وأعانه، وإن رآه منحرفاً قام إليه مخلصاً يبذل له النصح ويخلص في المشورة.

وكما انه لا بد من التعاون الماديّ في المجتمع من تجارة وصناعة وزراعة وحكم، كذلك لا بد من التعاون الأدبي في النصح وبذل المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج، وكما أنه إذا أهُمل التعاون المادي سبَّب انهيار المجتمع كذلك إذا فُقد التعاون الادبي انهار المجتمع وتفككت أوصاله، فعدم الحب والغيرة والاحسان، وايم الله إن فقد تجاوب القلوب وتخاصرها في المجتمع لهو الهدم الأكبر الذي يودي بالمجتمع كلياً لا يبقي فاسداً ولا يرحم صالحاً، وقد عبر رسول الله ﷺ عن التعاون الأدبي بصورة بارعة هي آية في الصدق والحكمة فقال: « مثلُ القائمِ في حدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمثلِ قومٍ اسْتَهمُوا على سفينةٍ فصارَ بعضهمْ أعلاها وبعضهمْ أسفلها وكانَ الَّذينَ في أسفلهـا إذا اسْتقوا الماءَ مرُّوا على مَنْ فوقَهم فقالوا لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولمْ نُؤذِ مَنْ فوقَنا فإِن تركوهمْ وما أرادوا هَلكوا جميعاً وإنْ أخذوا عَلى أيْديهم نَجوا ونُجُّوا جميعاً ». البخاري.

وقد ابتلينا زمانا بالنظام الرأسمالي القائم على تقديس الحرّية الخاصة ولو خرجت على كل دين وعُرف، فأثمر ما نرى في المجتمع

من التفكك وضعف التعاون الصادق والنفور من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال ﷺ : «منْ رأى منكم مُنكراً فليْغيرهُ بيدهِ فإنْ لم يستطع فبلسانِهِ وإن لم يستطعْ فبقلبهِ وذلك أضعفُ الإيمان » مسلم.

ب ـ ومنها : وجوب الاحتكام إلى شرع الله تعالى في جميع شؤون الحياة، لقد قرر القرآن الكريم أن الله تعالى خلق السموات والأرضين وما فيهنّ وان له ملك السموات والأرضين وما فيهن ليس له فيهن شريك ولا معين، هو صاحب القدرة والجبروت، شؤون الخلق وأعمالهم جميعها مردها إليه جبريل ومن دونه عباد له خاضعون لاحكامه، لن يستنكف نبي مرسل ولا مؤمن تقي عن الخضوع لأحكامه سبحانه. كما قرر أن الانسان ضعيف لا طاقة له على جلب نفع أو دفع ضرٌ، لا يمكنه أن يصل إلى رزقه وينتفع بخيره ولا يدفع عنه الاذى والمكروه إلا بإذن الله تعالى وتقديره، ولولا أن الله تعالى منحه العقل وسخر له ما في البر والبحر لكان أعجز من أن ينال بعض ذلك بقوته، كما هو عاجز دوماً عن خلق نملة أو صنع حبة أو إيجاد معدوم، كما قرر أنه عاجز جاهل قد يرى الخير شراً والشر خيرا لا يدرك من هو خير له ابنه أو أبوه، قد يظن المصلحة فيما يضره ويرى الموت فيما فيه صلاحه، لا يعرف مطالب نفسه وما قد يطرأ على غده، يعيش في طبيعة لا يعرف دائماً نظامها ويحيا في كون يتقلب بامر الله سبحانه كما يشاء.. فلا مفرّ له من الخضوع مع تمام الرضا والقبول لحكم الله تعالى في كل شأن من الشؤون.

قال الله تعالى : ﴿وَمَا كانَ لِمؤمنٍ وَلاَ مُؤمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسُولُه أمراً أنْ يَكُونَ لَهُم الخيرةُ مِنْ أمْرِهم وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبيناً﴾ [1] ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْليماً . .﴾ [2] . . ﴿ويَقُولُون آمنَّا بالله وبالرَّسُولِ وَأطَعْنَا ثُمَّ يتولىَّ فَريقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بالمؤْمنِينَ، وإذا دُعوا إلى اللهِ وَرسُولِهِ ليَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذَا فَريقٌ مِنْهُم مُعْرضُونَ . وإنْ يَكُن لَهُم الحقُّ يَأْتُوا إلَيْهِ مِذْ عِنين . أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أم ارْتابُوا أمْ يَخَافُونَ أنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُم الظَّالمونَ . إنَّما كانَ قَوْلَ المؤْمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليحكُمَ بَيْنَهُمْ أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا وأُولَئِكَ هُم المفْلِحونَ . . .﴾ [3] . ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُم الكافِرونَ﴾ [4] .

إن الطالب في المدرسة على حريته يخضع لنظام المدرسة، والموظف على حريته يخضع لنظام وظيفته، والمواطن على حريته يخضع لقوانين دولته، ولا يؤذن لهم بالخروج على تلك النظم ـ مع أن الحياة والنعم والرزق ليست من المدرسة والوظيفة والدولة ـ! ونحن لا نرى غضاضة في التزام تلك النظم بل نلوم الخارجين عليها، أفتكون ثمة غرابة أو يكون هناك أدنى توقف في وجوب الخضوع لاحكام الله تعالى وتنفيذها، على حب ورضا، وهو سبحانه أنعم وينعم على الانسان بكل شيء ويحب المؤمن أكثر من

---

(١) الأحزاب : ٣٦
(٢) النساء : ٦٥
(٣) النور : ٤٧ ـ ٥١
(٤) المائدة : ٤٤

حب أبويه له وقد سبقت رحمته غضبه؟ أليس يُعدّ الخارج على نظام مدرسته عاقّاً والمخالف لقانون وظيفته مخالفاً والمستكبر على قوانين الدولة باغياً؟ أو يكون كثيراً أن يعدالخارج على نظم الله تعالى وأحكامه مرتداً كافراً؟ ولِمَ يخرج عليها؟ . . لولا ظنه أنَّ غير الله تعالى أفضل منه حكما وأقرب عدلا وأقدر لمصالح العباد لما فعل، ولولا رجاؤه الناس من دون الله تعالى لما جرؤ، ولولا تيقنه أن عقل الفاني أوسع من علم الله تعالى لما خرج!

لا يؤذن للمؤمن بالخروج على احكام الله تعالى بحال، فإن المصلحة ـ كل المصلحة ـ في تنفيذ أوامره سبحانه وحده. وقول ابن القيم أينما وجدت المصلحة فثم شرع الله ـ على إطلاقه ـ ليس باوحد أخطائه الخطيرة، والعصمة لله وحده وللرسول باذن ربه.

والناس ـ كل الناس ـ يرون إلى أية هاوية يؤدي بالبشرية احتكام الانسان إلى غير نظم الله تعالى وأحكامه في الدنيا، وما في الآخرة من عذاب يشيب لهوله الولدان أدهى وأمرّ.

ج ـ ومنها : وجوب الولاء لله تعالى. فما دام أن الخلق والملك لله تعالى، وما دام أن العمر والرزق هو من عند الله تعالى، وما دام أن المؤمن مأمور بالخضوع لاحكام الله تعالى، فلا بد أن يكون ولاء المؤمن ـ في حبه ونصرته وبذله ماله ونفسه ـ لله تعالى ومن أمَر الله تعالى بأن يكون له الولاء.

قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَتولَّ الله وَرَسُولَهُ والذين آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُم الغَالِبُون. .﴾ [1] ﴿اللهُ وليُّ الذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُمْ

(١) المائدة : ٥٦.

مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النور. . ﴾ [1] ﴿ألا إنَّ أوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنونَ، الذِين آمَنُوا وكانوا يَتَّقُون﴾ [2].

وما دام أن الولاء يعني الحب والنصرة والطاعة وبذل الجهد، فقد حذر القرآن الكريم من موالاة الأعداء الكافرين لأنهم. . يسخرون من المؤمنين وشعائر دينهم، لا يرقبون فيهم إلاّ ولاذمة، لا يرضون عنهم حتى يخرجوهم عن دينهم ولو بقوا بعد ذلك دون دين! قال الله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ المؤمِنُونَ الكافِرينَ أولِيَاءَ من دون المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ منَ اللهِ في شيْء إلا أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً ويُحَذِّرُكم اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المَصيرْ. . ﴾ [3] ﴿بَشرِّ المنافِقِينَ بأنَّ لُهم عَذاباً أليماً. الذينَ يَتَّخِذون الكافِرينَ أوْلِيَاءَ منَ دونِ المؤمِنِينَ أيَبْتَغُونَ عِندَهُم العِزَّةَ فإن العزة للهِ جَميعاً. . ﴾ [4] ﴿لا تَجدَ قوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوادّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ ولو كانوا آباءَهُمْ أو أبناءَهُم أو إخْوانَهُم أو عَشِيرَتَهُم أولئِكَ كَتَبَ في قلوبهِم الإيمان وأيَّدَهُم بروحٍ مِنْهُ. . . ﴾ [5] وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: « لا تصَاحِبْ إلاّ مُؤمِناً ولا يَأكل طَعامَكَ إلا تَقي » رواه أحمد وغيره وهو حديث صحيح.

وفي سبيل إظهار تلك الموالاة أمر الشرع الاسلامي المسلمين بأن يخالفوا الكفار فلا يشاركوهمْ في أزيائهم وهيئاتهم الخاصة بهم ـ كلبس البرنيطة الخاصة بهم ـ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) البقرة : ٢٥٧
(٢) يونس : ٦٢
(٣) آل عمران : ٢٨
(٤) النساء : ١٣٩
(٥) المجادلة : ٢٢

« من تشبه بقوم فهو منهم »[1] رواه أحمد وأبو داود. قال الشيخ علي محفوظ بعد أن ذكر هذا الحديث من تشبَّه بالفسَّاق أو الكفار في أي شيء مما يختصون به من ملبوس أو هيئة اختلف العلماء في الحكم على فعله، فقال بعضهم بكفره وهو ظاهر الحديث وقال آخرون لا يكفر ولكن يؤدَّب. قال السيوطي في رسالته - مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة - روى الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه حديثاً يوماً وقال إنه صحيح، فقال قائل أتقول به يا أبا عبد الله؟ فاضطرب وقال يا هذا أرأيتني نصرانياً أرأيتني خارجاً من كنيسة أرأيت في وسطي زناراً أروي حديثاً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا أقول به؟ وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « خالفوا المشركين وفِّروا اللحى واحْفوا الشَّوارب. . » البخاري.

ولا شك أن تقليد الإنسان لغيره يعني إعجابه به وطاعته له واستحسان ما يكون منه = إلا ما كان لضرورة ورد تقديرها بالشرع = والإسلام لا يرضى للمسلمين بأن يستحسنوا إلا ما جاء من عند الله تعالى ولا يقلدوا إلا من سار على شرعة الله تعالى ما دام ضمن تلك الشرعة، ذلك لأن اعتزاز المسلم إنما هو بالله تعالى ومن والاه، وقد ذكرتُ أن الله تعالى يصف المنافقين بالاعتزاز بغير الله، ﴿بَشِّرِ المنافقينَ بأنَّ لهم عذاباً أليماً، الذينَ يَتخذُونَ الكافرينَ أوْلياءَ مِنْ دونِ المؤمنينَ أيبْتغُونَ عِنْدَهم العِزَّةَ فإن العِزَّةَ للهِ جميعاً﴾.

لا، لا ولاء لغير الله تعالى وأوليائه وشريعته، فإنا عباده والعبد

(١) ورواه الديلمي بلفظ « لا يشبه الزي الزي حتى يشبه الخلق الخلق ومن تشبه بقوم فهو منهم » وقد صحح الحديث ابن حبان والعراقي.

وما ملكت يداه لسيده، منه الأمر وعلينا الطاعة، منه الإرادة وعليه الخضوع منه الحكم وعلينا التنفيذ على تمام الرضا، ولعمر الحق أن المؤمنين حين صدقوا في ولاء الله تعالى منحهم العقول والقلوب والعزائم العجيبة فصنعوا للانسانية مالا يصنعه إلا من صدق صدقهم.

لا، لا ولاء لأعداء الله تعالى الكافرين فقد ذقنا المرار والعلقم منذ سنة ١٣٤٢ حين هدموا الخلافة بأيدينا وأيديهم واقتسمونا دويلات عربية، وجعلوا لنا الحدود المتداخلة ليشغلونا بها عند الحاجة وأطلقوا فينا الدعوات المخالفة المتناحرة ليلهونا بها عن الإسلام، كنا دولة واحدة فجعلوا منا أكثر من ثلاثين دولة، وهذا الذي أطلق لسان الشاعر إقبال ليقول في حرقة :

في قديم الدهـر كنتم أمة ليت شعري كيف صرتم أمما

إن دعوة (وأنَّ هذهِ أمتكم أمةً واحدة . .) لا تعرف حدود الطبيعة ولا تأبه بالتضاريس والجبال والأنهار، بل ولا اللهجات واللغات، إنها تدفع أهلها . . حتى تعيد الأمةَ الواحدةُ الى دولة واحدة لها من قرآنها دستور ونظام ومن نظام حكمها خليفة وإمام.

٤ - من آداب تلاوة القرآن [١] : من آداب تلاوة القرآن الكريم الطهارة، فمن كان يقرأ القرآن ماسًّا له فعليه الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر. وقد كان مما كتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى ابن حزم قوله « . . لا يمسّ القرآن إلا طاهرٌ » النسائي.

---

(١) حبذا لو استكمل القارىء فضل تلاوة القرآن وآدابها من التبيان للنووي او التذكار في افضل الاذكار للقرطبي.

وجاء في القرآن الكريم﴿لا يَمَسّهُ إلا المطهّرون ﴾[1] وقال علي رضي الله تعالى عنه « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلّم يُقرئنا القرآنَ مالم يكن جُنباً » رواه الخمسة وحسنه الترمذي وصححه ابن حبان وآخرون، ومن كان يقرؤه من حفظه شُرط له الطهارة من الحدث الاكبر.

٥ ـ **جمع القرآن الكريم وحفظه** : ذكرنا أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقبلوا على تلاوة القرآن الكريم وحفظه إقبالاً عظيما ثم تبعهم من جاء بعدهم ، ولا شك أن حفظ القرآن الكريم فضلا عما لصاحبه من ثواب، وما يحصِّل به من علم ويثبت له من الكرامة ويؤجر به في الدنيا من حفظ العقل إلى حسن الخاتمة، فانه فرض كفاية على المسلمين في كل زمان، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين. ومن أولى من طلاب العلم بحفظ القرآن الذي هو زبدة العقيدة والفقه واللغة؟ لقد كان الأزهر الشريف لا يقبل في عداد طلابه إلا حفظة القرآن الكريم ـ باستثناء غير المصريين ـ ولكن مما يؤسف له أن العناية بحفظه فيه آخذة في الضعف.

فلقد كان ـ دار العلوم ـ تابعاً للأزهر الشريف = تقريباً = يشترط لطلابه حفظ القرآن الكريم ، ثم فصل عن الأزهر وأدخل فيه حملة الثانوية العامة فأهمل شرط حفظ القرآن، ثم أدخلت فيه

---

(١) المطهرون ابلغ من طاهرون، واهل اللغة يقولون زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لذا شرط الوضوء لمس المصحف دون قراءته.

الفتيات في فروع خاصة، ثم أضيف إلى جامعة فؤاد ثم . . خُلط الطلاب بالطالبات وزالت أو كادت الصبغة الإسلامية في دراساتها فضلا عن اعتبار اشتراط حفظ القرآن. وأخشى ما نخشاه على التنظيم الجديد للأزهر الشريف = الذي قرر فتح كليات للبنات وفتح فروع طب وهندسة ينفَق عليها من أوقاف الأزهر = أن يُلغى شرط حفظ القرآن في المنتسبين إلى الأزهر، ثم يخلط التعليم و. . يصنع بالأزهر الشريف أهله ما عنجز عنه بطش الانكليز ودهاؤهم!

هل تعلم أيها القارىء الكريم أنه ليس لأوقاف الشام مدرسة واحدة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم قراءاته بينما يوجد ذلك لاوقاف حمص وحماه وحلب كما يوجد لاكثر البلاد العربية والاسلامية؟! أين مدارس تحفيظ القرآن الكريم يا وزارة الاوقاف، وعندك من الأموال مبالغ يجب أن تنفق في هذا السبيل كاشتراط الواقفين بدلاً من إنفاقها في بناء دور وعمارات تهيأ فيها أماكن للسينما والبنوك؟!

أيها القائمون على وزارة الاوقاف اتقوا الله ولا تنفقوا أموال الموتى إلا في الطريق المشروع الذي حددوه.

أيها القائمون على المدارس الشرعية اشرطوا حفظ القرآن الكريم كله أو شطره في كل من يودّ الانتساب إلى المدارس الشرعية، وجُودوا ببعض الأموال للطلاب المنتسبين واعنوا بتوجيههم وتثقيفهم عناية أجود، فيزداد نفع المقبلين على الدراسات الشرعية

وفي ذلك خير كثير ان شاء الله تعالى، ولا تبالوا بكثرة العدد فربما تكون الكثرة غثاء.

أيها القائمون على كلية الشريعة من جامعة دمشق، ألغوا التعليم المختلط بقرار حاسم فإنه إثم ولا تُضمن له نتائج حسنة، كونوا قدوة لبقية الفروع الجامعية وائتسوا بجامعة الكويت التي ستنشأ على أساس الفصل بين الذكور والاناث، واشترطوا حفظ القرآن الكريم كله أو أكثره في كل من يودّ الانتساب الى الكلية، واحسنوا اختيار الموادّ والكتب المقررة وهيئة التدريس وزيدوا من نصاب الدروس الشرعية ودّرسوا القوانين الاسلامية ونظرة الاسلام إلى المبادىء والعقائد المعاصرة، لا تدرّسوا قوانين ونظماً كفرية بحجة كونها مطبقة في الامة فإن الاسلام صريح في حكمه عليها من قوله تَعالى : ﴿وَمَنْ لمْ يَحْكُم بمَا أنزَل الله فأولئِك هُم الكافِرونَ﴾. لقد طبعت إحدى مطابع دمشق منذ سنوات مصحفاً شريفاً وُجدت فيه أخطاء عديدة. وقامت فئات غيورة من دمشق وحماه وطرابلس تحصر تلك الاخطاء وتقدمها الى المطبعة لتصحيحها.. تم تبين أن تلك الاخطاء موجودة في طبعة قديمة : هي أصل هذا المصحف : لم ينتبه لها المسلمون. ولا نقول إلا أنه إذا استمرت أخطاء في طبعة وأخرى دون أن ينتبه لها المسلمون ـ بخاصة غير العرب منهم ـ أمكن للاعداء أن يدخلوا على المسلمين بنغمة طالما تمنوا لها دليلاً أو شبهة وهي أن القرآن الكريم ايضاً عرض له تبديل وتغيير وتلك جريمة منا ما بعدها جريمة. فالواجب

على دائرة الافتاء أن تستصدر قانوناً : لا يأذن بتداول مصحف ولا بطبعه إلا بعد عرضه على هيئة رسمية من الحفاظ لتجنب الأخطاء الخطيرة على القرآن الكريم .

وكان بودّي الكلام على حرمة ترجمة القرآن الكريم وترجمة معانيه وبيان تضرر المسلمين من انصرافهم عن القرآن الكريم ، لولا ضيق المجال .

(وبعد) فيا أيها الحكام، أيها المربون والموجهون ، ايها الآباء والامهات ، الدّين الدّين ، القرآن القرآن ، احكموا به شعبكم ووجهوا اليه مواطنيكم وربوا به اولادكم تسعدوا بمواطنيكم واولادكم ويسعد بكم مجتمعكم وترضوا ربكم . فان سلامة العقول والنفوس وسلامة الابدان والارواح وسلامة الاسرة والمجتمع وسلامة كيان الامة والوطن وقْف على توجيه جيلنا الى الاسلام وعمله بالإسلام وحياته من اجل الاسلام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

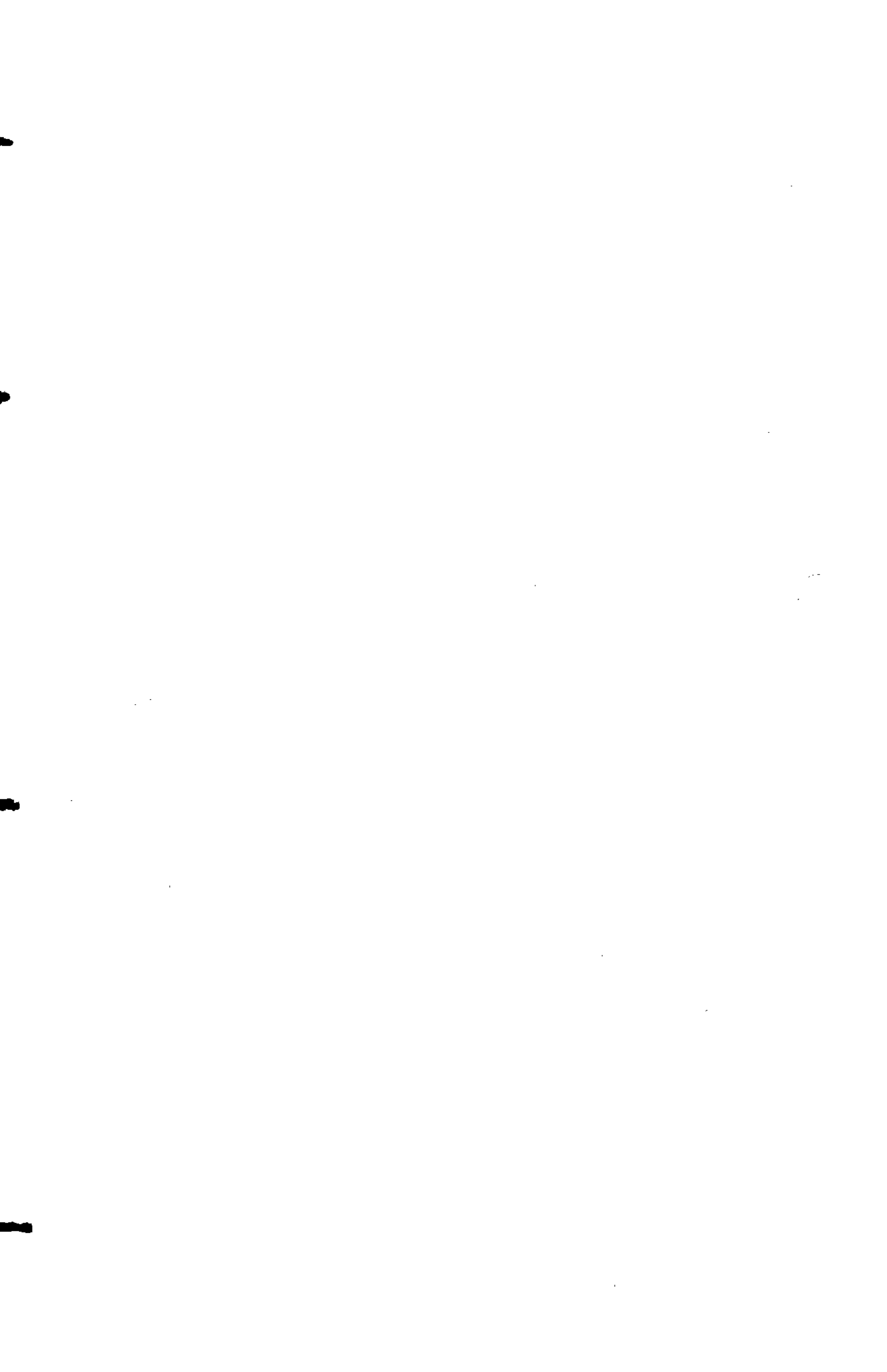
شمس الأئمة السرخسي

ذاكرة مدهشة ومكتبة متنقلة

للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

ربيع الثاني ١٣٨٣



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الحق، وقيض للقيام به رجاله وصلى الله على رسوله الكريم، الذي ربّى أصحابه على الحق، فكان منهم نماذج الحق ودعاة الخير.

وأساس الإستقامة على الحق، ودعامة القيام بالخير، والدعوة إليه، هو العلم، لا يغفله إلا احمق جاهل، ولا يدعو على غير أساسه، إلا مغرض دجّال ، ولا يستهين به إلا هين الشأن صغير النفس.

وهذا العلم لا يستقيم لصاحبه إلا بالفهم والحفظ، أما الفهم فيقوم على الإخلاص والتفرغ : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله « كما يقول الغزالي » : والعلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك « كما نقل عن أبي يوسف القاضي ».

وأما إمساك العلم وحفظه ، فيعتمد على الذاكرة الصافية

الكبيرة، وهذه لا تصفو ولا تنمو، إلا بالحياة النقية الصافية التي لا تعكّر ذاكرتها الذنوب، ولا تدنسها المعاصي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

وهذه الرسالة تعرض نموذجاً من هؤلاء الذين أخلصوا لله فأعانهم الله، وأنقوا حياتهم فصفت نفوسهم. وكان منهم عظماء في الدنيا، وعسى أن يكونوا ـ ونكون جميعاً ـ سعداء في الآخرة.
والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

شمس الأئمة السرخسي

٠٠٠ ـ ٤٨٣

٠٠٠ ـ ١٠٩٠

القاضي شمس الأئمة، أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل، السرخسي « نسبة إلى سرخس، بلدة في خراسان » الفقيه الحنفي الكبير كان إماماً علامة حجة متكلماً مناظراً أصولياً مجتهداً، عده ابن كمال باشا من المجتهدين في المسائل لازم شمس الأئمة عبد العزيز الحلواني واخذ عنه حتى تخرج به وصار أوحد زمانه، ألف عدداً كبيراً من الكتب الجليلة النافعة، فمن ذلك :

الكتاب الذي شرح به الجامع الكبير للامام المجتهد أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، صاحب الامام أبي حنيفة، « توفي الإمام محمد سنة سبع وثمانين ومئة، والإمام أبو حنيفة سنة خمسين ومئة ».

وهو كتاب جليل، اهتم به العلماء اهتماماً عظيماً، حتى شرحه منهم نيف واربعون عالماً، منهم الملك المعظم [1].

---

(١) هو عيسى ابن أبي بكر بن أيوب، سلطان الشام، وكان من عادته أن يعطي مائة دينار لمن يحفظ الجامع الكبير، وخمسين ديناراً لمن يحفظ الجامع الصغير، ومائة دينار لمن يحفظ المفصل للزمخشري. وألف كتباً أخرى منها : السهم المصيب في الرد على الخطيب. =

ولم تقف عناية العلماء بالجامع الكبير على هذه الشروح العديدة بل اقبل بعضهم على نظمه شعراً، وكان من هؤلاء أحمد المحمودي النسفي الذي أورد في كل باب قصيدة فبلغ خمسة آلاف وخمسمائة وخمساً وخمسين بيتاً وكان إتمامه له في محرم سنة خمس عشرة وخمسمائة. لهذا لم يكن من الغريب أن يهتم السرخسي بهذا الكتاب فيشرحه لنا هذا الشرح النفيس. وله أيضاً كتاب المحيط - وهو كأكثر كتبه، في الفقه الحنفي - في عشر مجلدات، ويقال له الرضوي، صنفه أولاً ثم لخصه، يقول عنه : جمعت فيه عامة مسائل الفقه مع مبانيها ومعانيها، بدأ كل باب بمسائل المبسوط، وأردفها بمسائل النوادر، ثم اعقبها بمسائل الجامع، وضم إليها مسائل الزيادات، وسماه محيطاً لشمولها على مسائل الكتب وفوائدها وحقائقها. « المبسوط، والنوادر، والجامع، والزيادات من كتب الإمام محمد ».

وله أيضاً : الأمالي، وشرح أدب القاضي، وشرح الجامع الصغير وشرح الحيل الشرعية، وشرح كتاب الكسب، وشرح مختصر الطحاوي، وكتاب الحيض، وصفة أشراط الساعة . .

هذه المؤلفات العظيمة تدلنا على غزارة علم السرخسي الذي أعان عليه، هذه الذاكرة العجيبة، التي حباه الله تعالى بها، حتى لنكاد نتردد في التصديق حينما نسمع أنه ذُكر مرة للسرخسي أن

= عاش أربعة وعشرين عاماً في القرن السادس واربعة وعشرين عاماً في القرن السابع وتوفي في دمشق سنة اربع وعشرين وستمئة.

الإمام الشافعي حفظ ثلاثمائة كراس، فقال : حفظ زكاة ما أحفظ فحسب ما حفظه فكان اثني عشر الف كرّاس.

ولكننا لن نستطيع أن نبقى في ترددنا طويلاً، حينما نطالع الكتاب الضخم الفخم، المبسوط، بأجزائه الثلاثين الذي ألفه السرخسي دونما رجوع إلى كتاب أو دفتر أو فقيه وإنما أملاه كله من خاطره إملاء، وهو مسجون في جب، يملي من ذاكرته، وطلابه عند أعلى الجب يكتبون، هذا الكتاب الذي هو كالشرح لكتاب الحاكم الشهيد : الكافي فهذا يدلنا ليس فقط على أنه كان يحفظ كتاب الشهيد كله عن ظهر قلب، وإنما يدلنا ايضاً على هذه المعلومات الغزيرة والمعرفة الواسعة التي ملأ بها هذا الكتاب الجليل الذي يزخر بذلك العدد الهائل من الأحاديث والنصوص والأخبار والتي كانت مستقرة كلها في هذا الذهن الجبار. وإذا بقي بعد هذا من جعله عجبه ودهشته يستبعد وجود مثل هذه الذاكرة، وكأنه يستعظم على الله عز وجل أن يحبو من يخلص نيته له، ويصدق العمل فيه، مثل هذه النعمة، ويمن عليه بهذه المنة، إذا وجد من يستبعد ذلك، فإنه لا يملك إلا أن يدع استبعاده ويشهد مع الشاهدين، حينما يعلم أن السرخسي، لم يؤلف في سجنه «بأوز جند» كتابه المبسوط فقط، وإنما ألف فيه أيضاً كتابه الهامَّ، في أصول الفقه : الأصول، والف كتاب : زيادة الزيادات، شارحاً به كتاب الإمام محمد : الزيادات، المشهور الذي قيل فيه :

إن الـزيادات زاد الله رونقها
عقـمٌ مسائلهـا من أصعـب الكتب
أصولهـا كالعـذارى قط ما افترعت
فروعهـن يد في العجـم والعرب
ينـال قارئهـا في العلـم منزلة
يغيب إدراكهـا عن أعـين الشهب

أملى على طلابه هذه الكتب، وشرع أيضاً يملي كتابه شرح السِّير الكبير، موضحاً به وشارحاً كتاب الإمام محمد : السِّير الكبـير، فهذا يشير لنا إلى أن كتب ظاهر الرواية للامام محمد كانت جزءاً مما يحفظه هذا الرجل العظيم.

ولكن عظمة هذا الرجل لا تقف عند هذا العلم الواسع، بل إن سجنه هذا، ليكشف لنا جانباً آخر من عظمة هذه الشخصية الجليلة، فإذا كان كثير من العلماء إنما يطلبـون بعلمهـم الـدنيا ويجعلونه مطية لمالهـا وجاهها يلقونه على أبواب الكبـراء والحـكام والسلاطين، ويلقون معه دينهم وعزتهم، ليجـود عليهـم هؤلاء ببعض الحطام :

درسـوا العلـوم ليملـكوا بجدالهم
فيهـا صدور مراتـب ومجالس
وتزهـدوا حتـى أصابـوا فرصة
في أخـذ مال مساجـد وكنائس

إذا وُجد في العلماء من هذا القبيل، الكثـيرُ ، فإن السرخسي

ليشهد له سجنه أنه عرف قيمة علمه وأدّى حقه، فكان صلباً في دينه، مستقيماً فيه، جريئاً في صدعه بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم، يوقن بعظمة الله فتذل الجبابرة في ناظره، ويصدِّق بوعيد الله، فيستخفّ بوعيد عبيده، ويؤمن بوعد الله، فيزهد في الدنيا وترَّهاتها ولا يأبه لما يفوته منها، ولا يرى فيه أعظم من جزء من جناح البعوضة. كان عالماً يعرف الحق الذي يوجبه على العالم علمه.

أجل، كان سبب سجنه، أنه علم أنَّ الخاقان « ملك الترك ببلاد ما وراء النهر » عزم أن يتزوج بجارية له أعتقها ولم تنقض بعد عدتها. ولم ير السرخسي إزاء هذا أنه يسعه السكوت ولو كان الخاقان ظالماً بطاشاً سفاكاً للدماء، فبين له بحزم أن هذا لا يحل، وغضب الخاقان، وتهدد وتوعد، ولكن السرخسي لم يكن ممن يحابي في الحق، أو يلين في موضع الصدع، أو ترعد فرائصه أمام الوعيد، كان من أنفته وعزته بالعلم، كأن الجرجاني يعنيه حين قال :

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أُكرما

وإني إذا ما فاتني الأمر لم أكن
أقلب كفي إثره متندما

ولـــم أقض حق العلـــم إن كان كلما
بـــدا مطمـــع صيرتـــه لي سلما

ومـــا كل برق لاح لي يستفزّني
ولا كل من في الأرض أرضـــاه منعما

إذا قيل هذا منهـــل قلـــت قد أرى
ولـــكن نفس الحـــر تحتمـــل الظما

أنَهْنِهُهـــا عن بعض ما لا يشينها
مخافـــة أقـــوال العـــدى فيم أولما

ولـــم ابتـــذل في خدمـــة العلـــم مهجتي
لأخـــدم من لاقيت لكن لأخدما

أأشقـــى به غرســـاً وأجنيه ذلـة
إذا فأتبـــاع الجهـــل قد كان أحزما

ولـــو أن أهـــل العلـــم صانـــوه صانهم
ولـــو عظمـــوه في النفـــوس لعظما

ولـــكن أهانـــوه فهـــان ودنسوا
محياه بالاطماع حتـــى تجهما

فكان أن أمر به الخاقان الى السجن. وذهب إلى السجن، لم يذهـب مكتئبـاً حزينـاً ذليلاً، يرى في السجـن مجمـع المصائـب والبلايا والهمـوم وإنما ذهب عزيزاً كريماً، وكأن هذا السجن دليل عزته، وعنوان استقامته، وبرهان عمله بعلمه، ذهـب إليه دون مبالاة أو اهتمام، كما يذهب إليه من أوتي من صفاء البصيرة ونور

اليقين ما جعله يؤمن أن القتل شهادة، والسجن خلوة، والنفي سياحة.

فأقبل في السجن على عمله، ودأب على التأليف، لقد منعوه الكتب والأقلام والدفاتر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسلبوه هذه الكتب الكثيرة التي ضم عليها صدره، ولا هذا القلم الماضي الذي أطبق عليه فكيه، فكان أن أنتج لنا في هذه الفترة التي سجن بها، ما لم يستطعه العلماء الطليقون الكثر.

وكان كلما أنهى باباً من الكتاب ختمه بعبارة يذكر فيها حاله، فيقول عند فراغه من كتاب العبادات ؛ هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات. فترى كيف انه يقول في هذا الكتاب - وقد ذكرنا انه ثلاثون جزءاً - أنه استعمل أوجز العبارات فكم ترى كان يكون كتابه لو أسهب فيه واعتمد فيه على كل علمه وكامل حفظه؟ وقال في آخر كتاب الإقرار : انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار أملاه المحبوس في محبس الأشرار.

فتراه وهو في السجن لا يلين ولا يخضع، وأي سجن في الدنيا أو طاغية في الأرض يستطيع أن يلين من قناة المؤمن الذي آمن بالله فاستهان بملوك الأرض وصدَّق بوعد الله فازدرى المال والجاه ولذات الدنيا. . فلا عجب بعد هذا أن يكون حاله في السجن لا مقام المتزلف الذليل المنكسر ولكنِ موقف الأبِّي الذي يعلن بينهم أنهم من « الأشرار ».

وتلاحظ أيضاً في هذه النفس الكبيرة، أنه لم يندب الحظ العاثر ولم يشكُ السجن الضيق، ولم يتسخط الحبس والاعتقال، وإنما كان الذي يهمُّه ويغمُّه، أنه حُبس عن البقاع الشريفة والأعمال الرابحة الحبيبة، فيملي بأسًى وحرقة : أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات.

ولم يزل على جدِّه وعمله، حتى وصل في الإملاء الى باب الشروط، من كتابه شرح السِّير الكبير، فحصل له الفرج فأطلق، فخرج إلى فرغانة، حيث أنزله الأمير حسن بمنزله واكرمه.

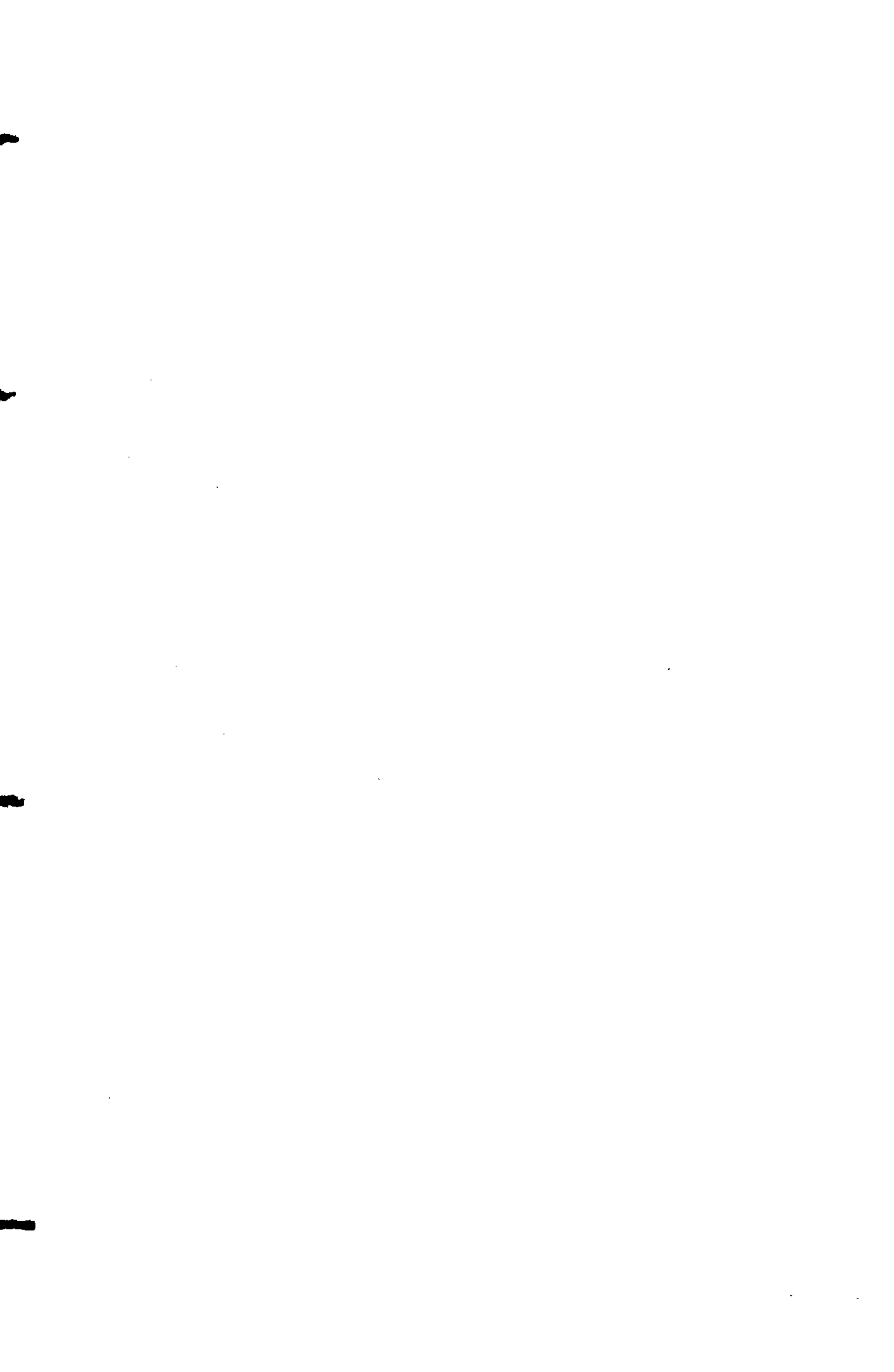
وتوجه إلى مرغينان « بلد في نواحي فرغانة، نبغ منها صاحب الهداية » حيث لحق به طلابه الى هناك فأخذ يملي عليهم تتمة الكتاب حتى أكمله، وذلك سنة ثمانين وأربعمائة قبل وفاته بثلاثة أعوام رحمه الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لماذا هذه الدعوة

للأستاذ
أمين أحسن إصلاحي

جمادى الاولى ١٣٨٣



بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا هذه الدعوة

حاجة البشر الى الانبياء:

فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان على معرفة الخير والشر، فجاء الانسان في هذه الدنيا متحلياً بفطرة عالية، مستحقاً أن ينال الحسنى عند الله إن اختار الخير على الشر مستعيناً بما فيه من قوة الفهم والادراك، أو ينال العقاب إن خرج على فطرته وآثر الشر على الخير.

ولكن مما لا ريب فيه في الوقت نفسه أن الفطرة الانسانية، مع انطوائها على تلك الفضيلة لا تخلو من نقص وخلاء من نواح أخرى، ومن ثم لم يترك الله تعالى أمر هداية الانسان وخلافته في هذه الدنيا على فطرته وحدها، ولم يعتبرها كافية لمجازاته يوم القيامة، بل أرسل إليه أنبياءه ورسله تباعاً ليبينوا له مقتضيات فطرته، ويتموا حجة الله على خلقه، ولا يدعوا لهم أي مجال للاعتذار يوم القيامة لبقائهم على الضلال بأنهم ما كانوا يميزون طريق الخير من طريق الشر. وهذا ما بينه الله تعالى في هاتين الآيتين من كتابه المجيد:

- ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً - النساء ١٦٥ - ﴾

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا (أي يوم القيامة) ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير. والله على كل شيء قدير ـ المائدة ٢٠ ـ ﴾

من أجل هذا بعث الله تعالى هداته وأنبياءه في كل أمة من أمم الأرض. ولما أراد سبحانه وتعالى أن يتم حجته على خلقه ولا يبقي عندهم أي عذر يحتجون به لبقائهم على الضلال، أرسل هؤلاء الرسل والانبياء من البشر أنفسهم، لتتضح الأمور للبشر أنفسهم فلا يبقى لهم مجالاً للحجة التي تتبادر للذهن حين يطالبون بأن يتخذوا علم غير البشر وعملهم أسوة لهم وحجة عليهم. وكذلك ما أرسل الله تعالى في قوم نبياً إلا من أنفسهم على قاعدة معروفة عامة لانكاد نستثني منها إلا أمثلة قليلة جداً. وذلك أيضاً لئلا تكون الشعوبية عرقلة في سبيل إقبال الناس على الحق وقبولهم إياه. وكذلك ما بلغت رسل الله أقوامهم رسالته إلا بألسنتهم أنفسهم حتى يتجلى لهم الحق جلاء تاماً. . وكذلك كانت اللغة التي كان يستعملها هؤلاء الرسل للدعوة والبلاغ في منتهى السهولة والوضوح وأقرب ما تكون لفهم الناس وأحب إلى قلوبهم. ثم إن هؤلاء الرسل لم يكتفوا بدعوة الناس إلى الحق مرة بل جعلوا هذه الدعوة غاية وقفوا لها حياتهم وكانوا هم أسبق الناس إلى العمل بما يدعونهم اليه، وكان أتباعهم وأصحابهم يقتدون به اقتداء شاملاً في مختلف مظاهر حياتهم.

وهكذا ما زال الله جل وعلا يرسل الانبياء والرسل إلى مختلف

أمم الأرض وشعوبها ما دامت لم تهيء الدنيا بنفسها من وسائل الحياة المدنيه والاجتماعية ما كان ضرورياً لجمعها كلها حول داع إلى الحق واحد. ولكن لما أستيقظ في الأمم الوعي الخلقي والاجتماعي بفضل تعاليم الأنبياء إلى درجة مكنها أن تقضي حياتها تحت نظام للعدل عالمي شامل، وحين ترقت في الدنيا الوسائل المادية للحياة الاجتماعية والمدنية حتى أصبح من الممكن أن تبلغ رسالة داع إلى الحق كل ركن من أركان الأرض وكل ناحية من نواحيها. اقتضت مشيئة الله تعالى ورحمته الواسعة أن يرسل إلى الدنيا خاتم أنبيائه محمداً ﷺ بنظام للحياة شامل يلائم طباع بني الانسان ويوافق أحوالهم وحاجاتهم. فهذا هو النظام الإلهي للحياة الذي نعرفه اليوم باسم « الإسلام » وما هو من حيث روحه ومغزاه، إلا نفس الدين الذي ما زالت تأتي به الأنبياء والرسل السابقون إلى مختلف الأمم والشعوب، وإنما يختلف عن أديانهم ببعض الوجوه: منها أن الأنبياء السابقون إنما لقنوا أممهم تعليم العقائد حسب ما كانت عليه من قوة الفهم والذكاء. أما خاتم الأنبياء ﷺ فقد لقن الناس تعليم العقائد حسب المقياس الذي أعطاه الله تعالى بني الانسان - من حيث مجموعته - للفهم والادراك، ومنها أن القوانين التي جاء بها الانبياء السابقون وعلموها أقوامهم، إنما روعيت فيها أمزجة هذه الاقوام وما كان بها خاصة من الامراض ومطاعن الضعف. أما قوانين الاسلام فانما روعيت فيها فطرة الانسانية العامة بدل أن تراعى فيها طبيعة أمة

خاصة واتجاهاتها وعاداتها وحاجاتها. ومنها أن نظام الحياة الذي جاء به الانبياء السابقون من عند الله تعالى، ما كان إلا حسب حاجات أممهم فقط، وأما النظام الذي أوتيه النبي محمد ﷺ، لا يفي بحاجات أمة خاصة من أمم الأرض بل يفي لكل ما لبني الانسان من الحاجات الفردية والجماعية.

وإذ بعث النبي ﷺ إلى العالم كله لاتمام الحجة على الناس جميعاً، ولم يكن ليأتي بعده أي نبي آخر إلى يوم القيامة، فقد بعثه الله تعالى ببعثتين: بعثة خاصة وبعثة عامة. أما بعثته الخاصة فكانت إلى العرب خاصة ولأجل نسبته إلى العرب هذه قيل له ﷺ « النبي العربي » أو « النبي الأمي » وكان يوحى اليه بلسان العرب. وكل ما كان لهذه البعثة من التبعات من البلاغ والدعوة وإتمام الحجة، فقد قام بها النبي ﷺ مباشرة.

أما بعثته العامة فكانت إلى الدنيا جمعاء، ولكي يقوم بتبعات هذه البعثة حق القيام أعطاه الله تعالى أمة أمرها ان لا تزال قائمة بمهمة تبليغ هذا الدين الالهي الصادق الذي تلقته بواسطته ﷺ، وأن تبلغه إلى العالم على حسب طريقته ﷺ كما قال: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ البقرة ١٤٣. وقال تعالى على لسان نبيه الكريم: ﴿ وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ الأنعام ١٩ (أى لينذر به الناس من بلغه).

وكان مقتضى ختم النبوة بمحمد ﷺ، وعمومها بالنسبة للناس

جميعاً، وخلودها إلى يوم القيامة، أن تكفل الله سبحانه بأمرين لحفظ دينه وصيانته على هيئته الصحيحة: الأول أن حفظ القرآن من أي مزج أو تحريف أو تغيير حتى لا تعود الدنيا بحاجة إلى نبي جديد لمعرفة هداية الله وأحكامه..

والثاني أنه قضى أن لا تزال طائفة من هذه الأمة - كما ورد في الأحاديث الصحيحة - قائمة على الحق ليكون علمهم وعملهم نبراساً ساطعاً يهتدي به إلى سواء السبيل كل من أراد الحق بصدق نيته إلى أبد الآباد.

ومعنى ذلك أنه لا بد أن تبقى في هذه الأمة جماعة صالحة [1]، ولو قليلة العدد قائمة بالحق تحيي أسوة الرسول ﷺ وعلم الصحابة وعملهم في كل عصر من العصور، مهما طغى سيل الفساد والضلال والبدعة. وضمن الله أن تقوم هذه الجماعة في كل عصر تدعو الناس إلى الخير وتبذل المساعي لاصلاح مفاسدهم وردهم إلى الحق على الرغم من كل ما تلقى في سبيلها من العقبات والعراقيل، حتى لو فسد ضمير الانسانية إلى حد ينقلب المعروف في نظرها إلى منكر والمنكر إلى المعروف ويمسي زمام الأمر والسلطة والقوة بأيدي أهل الشر ويصبح المتمسك بالدين الحق كالقابض على جمرة متقدة من النار. والله تعالى يريد بجعله جماعة صالحة

---

(١) نريد الاشارة بذلك الى قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي. : الحديث » وما في معناه من الروايات المتعددة الواردة في الصحاح.

كهذه في كل عصر من العصور، أن يحتفظ بأسوة الرسول ﷺ وعلم الصحابة وعملهم إلى أبد الآباد كما احتفظ بعلم الوحي في صورة القرآن إلى يوم القيامة، وأن لا ينطفىء ذلك النور المبارك الذي لا غنى عنه لهداية الخلق وإتمام حجة الرسول ﷺ، كنار على رأس جبل تهتدي بها القوافل في كل ظلمة.

الدعوة باعتبارها واجباً من واجبات الرسالة:

والذي يتضح من هذا التفصيل أن الشهادة على الناس أو دعوتهم إلى الحق ليست بمقصودة في هذه الأمة من حيث هي حسنة من الحسنات أو عمل من الأعمال الصالحة، كما ليس المقصود من ورائها العمل على زيادة عدد المسلمين، بل الحقيقة أنها من عين ما تقتضيه الغاية المنشودة من الرسالة العامة للنبي ﷺ، التي يجب أن يقوم بها المسلمون بعده. وهذا واجب لا بد أن يقوم به كل من يدخل في أمة الاسلام، وهو من واجبات الرسالة التي قد ألقى الله تعالى تبعتها على كاهل هذه الأمة بعد نبيه ﷺ. فالمسلمون إن قصدوا شيئاً في أداء هذا الواجب، فقد قصروا في أداء ذلك الواجب من واجبات الرسالة الذي ألقى الله تبعتها عليهم. ومن النتائج المحتومة لهذا التقصير أن يحرمهم الله تعالى مما قد ولاهم إياه من منصب ﴿خير أمة في الأرض﴾، لأنه سبحانه وتعالى لم يمكنهم من هذا المنصب إلا لأداء هذا الواجب ولا غير، وأن يذوقوا وبال أمرهم ويتحملوا وزر ضلال الدنيا كلها مع وزرهم. لانهم هم

وحدهم أداة لاتمام الحجة على الخلق. فإن قصروا بواجب إتمام الحجة فللدنيا أن تحتج أمام الله تعالى يوم القيامة لبقائها على الضلال بأن الذين كانوا شهداءه عليها وكان ألقى على كواهلهم التبعة في هدايتها الى الحق، ما بلغوها دينه ولم يدعوها اليه، ولو فعلوا لما كانت لتبقى على هذه الضلالات، فبماذا يرد المسلمون هذه التهمة عن أنفسهم؟

شروط الدعوة:

لا يمكن أن يتم أداء هذا الواجب ـ واجب الشهادة على الناس أو دعوتهم العامة إلى الدين بمجرد أن توجد في الارض طائفة تعرف بالمسلمين سواء أكانت قائمة بواجب الشهادة أم لم تكن. وكذلك لا يمكن أداؤه بتلك الطرق والتدابير السخيفة الناقصة التي قد مر إنتقادها لها، والتي بدل أن تنفع الدعوة الإسلامية، قد أضرت بها أيما إضرار إن هذا واجب مهم من واجبات الرسالة ينبغي أن يؤدى بنفس الشروط التي أمرنا الله تعالى أن نؤديه بها، والتي أداه بها الأنبياء الكرام صلى الله عليهم وسلم. وها نحن أولاء نشير فيما يلي إلى بعض هذه الشروط المهمة:

فالشرط الأول من شروط هذه الشهادة أن نؤمن، بصدق، بالدين الحق الذي قمنا ندعو إليه الناس. ولقد كان الانبياء عليهم السلام أنفسهم يؤمنون أولا بدينهم الذي يدعون إليه الناس ولا يحسبون أنفسهم فوق الحق، كما قال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما

أنزل إليه من ربه والمؤمنون. . . الآية ﴾ البقرة ٢٨٥. ، فهم لما آمنوا بالحق، قدموا أنفسهم قبل غيرهم لنفض أيديهم عن كل شيء يخالفه، سواء أكان هو دينهم الذي ورثوه عن آبائهم، أو عصبيتهم لأمتهم وشعبهم وقبيلتهم، أو مصلحة من مصالحهم الشخصية أو الجماعية، وبدأ كل واحد منهم بنفسه: « أنا أول المؤمنين » و« أنا أول المسلمين » في كل ما عرض لهم في هذا الطريق من الشدائد والأخطار. ما قالوا للناس أن ليس نجاحكم وفلاحكم إلا باقتحام هذه الشدائد والأخطار، حتى اقتحموها هم قبل غيرهم.

والشرط الثاني أن يؤديها الانسان بلسانه، فان الذي يؤمن بالحق ثم لا يظهره ويبلغه الناس بلسانه وهو قادر على ذلك فهو « شيطان أخرس » وسيؤخذ يوم القيامة بجريمة كتمان الحق الذي أخذت بها اليهود من قبل، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيِّننه للناس ولا تكتمونه. . الآية - آل عمران ١٨٧ ﴾. وينبغي أن لا تراعى في هذا الباب أي مصلحة إلا لأجل الحق نفسه: أي لا يكون إظهاره وتبليغه الا على الطريق الصحيح المعقول وفي المحل اللائق به ولمن هو أهل له. ذلك ليؤتي بذر الدعوة الحق ثمرته. وأما إذا كان الانسان يعرض عن إظهار الحق لمصلحة من مصالحه الذاتية أو يتغافل عن تبليغه ويتوانى فيه، فانما يأتي بعمل لا تسمح به الشريعة الاسلامية إلا في أحوال شاذة قليلة، وذلك كأن يعرض للانسان خطر حقيقي شديد على نفسه

وهو يشعر أنه من الضروري في هذا المقام من ناحية خدمة الحق نفسها أن ينجو بنفسه. ولكن إذا كان الانسان يكتم الحق بدون أن يعرض له مثل هذا الخطر الحقيقي الشديد، فلا يخلو أمره عن شيئين. إما هو منافق أو رجل لا غيرة ولا حمية في قلبه.

والشرط الثالث ان تؤدي هذه الشهادة باللسان والعمل معاً. وذلك أن الاسلام لا عبرة فيه بشهادة لا يؤيدها ويوثقها العمل من ورائها. لقد كان النبي ﷺ يأتيه أناس يشهدون له «بأنك رسول الله» ولكن الله سبحانه وتعالى لم يقبل منهم هذه الشهادة وشهد عليهم بالكذب والنفاق الصريح. ولإقامة الحجة عليهم بسط لهم أعمالهم وأقوالهم التي كانت أكبر دليل على ما تكنه قلوبهم من العداوة والبغضاء للاسلام والمسلمين. فكذلك كل من يعتقد أن أمراً من الأمور حق ويدعو الناس اليه بلسانه، من المحتوم عليه أن يكون عمله مطابقاً لأقواله، وإلا فهو من عداد أتباع اليهود الذين قد لامهم القرآن وشدد في توبيخهم وتأنيبهم بقوله جل وعلا: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ البقرة ٤٤ ـ فكل من كان سلوكه في حياته يخالف دعوته التي يدعو بها الناس فانما يقدم لهم الدلائل القوية على كذب دعواه وعدم إخلاصه لدعوته. ولأن حجة العمل أقوى من حجة القول، فإن سلوكه في حياته حجة لا تبقى الحاجة بعدها إلى أي حجة أخرى على كذب دعواه. فان كان المسلمون اليوم شاهدين لدين الله، فمن عين ما تقتضيه هذه الشهادة أن لا يكتفوا بايمانهم بهذا الدين ودعوة الناس اليه

بألسنتهم، بل عليهم بأنفسهم أن يعملوا به في نواحي حياتهم الفردية والجماعية. وإلا فمن المستحيل أن يقضوا ما عليهم حق الشهادة التي ما أخرجهم الله تعالى إلا لأدائها ومن اللغو حقاً من وجهة إتمام الحجة على الخلق أن تظل منحرفاً عن الدين في شؤون حياتك ومظاهرها العملية ونكتفي بشهادتك بلسانك ـ وسبحان الله وتعالى أن يؤاخذ الناس ويعاقبهم على ذنوبهم لأجل خطب مثل هؤلاء الوعاظ الذين يقولون ما لا يفعلون، بل الذي سيكون من نتيجة كل ذلك أن تتم حجة الاسلام على المسلمين وحدهم ويؤاخذهم الله تعالى يوم القيامة لأجل إقرارهم بألسنتهم بأنه الحق من ربهم.

والقرآن قد بين صور الانحراف عن الدين في شؤون الحياة ومظاهرها العملية. كما عني ببيان ما يمكن به علاجها فالاولى من صور الانحراف أن تتغلب على الانسان شهوة أو نزعة موقوتة فيخطو خطوة خلاف الحق، وعلاجها أن يسرع إلى التوبة. والثانية أن يكره الانسان على الانحراف عن الحق، ويكون تداركه بأن يسعى سعياً متصلاً للخروج مما وقع فيه، ولكنه إذا ارتاح اليه واطمأن به وظن أن وقوعه فيه دليل على حسن ظنه ووجد فيه طلبة نفسه فأنه يكون قد كذب بعمله بما يثبته للناس بقوله.

والشرط الرابع أن نكون فوق أي عصبية قومية أو طائفية إذا قمنا لأداء هذه الشهادة، لا يجرمننا شنآن قوم ولا حبهم وعاطفة الدفاع عنهم، على ان ننحرف عن صراط الحق الذي قمنا للدعوة

اليه. والله سبحانه وتعالى بين بنفسه في كتابه المجيد كيف ينبغي أن نكون فوق كل عصبية إزاء أعدائنا بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ المائدة ١٠ - وكذلك بين كيف ينبغي أن نكون فوق أي عصبية لأصدقائنا وأقاربنا بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ﴾ النساء ١٣٥ - .

والشرط الخامس أن تكون هذه الشهادة للحق الكامل بأسوة كما نزل من عند الله تعالى بدون أي خوف للومة لائم أو معارضة معارض. فالأمور التي شهادتها من واجبات الحياة الفردية، ينبغي أن يؤدي الأفراد شهادتها في مناحي حياتهم الفردية. يصلي - مثلاً - كل واحد منهم بصفتة الفردية ويصوم رمضان ويؤتي الزكاة إن كان من أصحاب النصاب ويحج البيت الحرام إن كان يستطيع إليه السبيل ويقضي أيام حياته بالصدق والعفاف والأمانة والطهارة. وأما الأمور التي لا بد لأدائها من الحياة الاجتماعية، فعلى الأفراد أن يبذلوا مساعيهم لتكوين هذه الحياة الاجتماعية. فاذا ما وجدت، فعليهم أن يؤدوا شهادتها. ذلك أن الأفراد لا قبل لهم مثلاً بأن يدير النظام الاجتماعي للاقتصاد والمعيشة، أو النظام السياسي والإداري للبلاد بصفتهم الفردية، ولا بد من قوة جماعية لصوغه في قالب التنفيذ على حسب ما يتطلبه الاسلام من أبنائه. فأهم حاجة في هذا الصدد هي أن نكوّن جماعة صالحة. فاذا تكونت هذه

الجماعة الصالحة المنظمة، وجب على الأفراد أن يؤدوا في كل شعبة من شعب حياتهم الاجتماعية شهادة الحق الذي قد نزل اليهم من الله تعالى.

وإليك طرفاً من الآيات القرآنية التي تعرف بها كيف أكد الله تعالى لنبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى الدين الكامل بدون أي نقص أو زيادة أو تحريف أو تغيير، قال عز وجل: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس ﴾ المائدة ٦٧ ـ وقال سبحانه: ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ الأحزاب ٣٩، وقال تباركت أسماؤه: ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ الأحزاب ٤٨، وقال جل شأنه: ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الشورى ١٥.

والشرط السادس انه إذا دعت الحاجة فعلى المسلم ان يؤدي شهادة الحق ببذل نفسه في سبيل الله، وهي أعلى مراتب الشهادة. ومن ثم قيل للذين جاهدوا لإعلاء كلمة الدين وأدوا شهادة الحق الذي آمنوا به حتى تحت ظلال السيوف، «شهداء». وإذا تفكرت علمت أنه لا يستحق غير هؤلاء أن ينالوا هذا اللقب ولا يناسب لهؤلاء لقب غير هذا اللقب.

وهذه التبعة ـ تبعة أداء الشهادة على الناس ـ التي قد القيت على كاهل هذه الأمة، من الممكن أن يقوم لأدائها ألوف ومئات الألوف

من الأفراد، وسينال كل واحد منهم أجره عند الله تعالى، ولكن الذين يبذلون نفوسهم ونفائسهم ويضحون بمهجهم وأرواحهم في سبيل أداء هذه الشهادة، فانهم هم الأهل لأن يلقبوا بالشهداء، فانه ما هناك من شهادة بصدق أمر من الأمور أكبر من يستجيب الانسان في سبيل حمايته والذود عن حياضه لنداء الموت. فكل من جاد بنفسه في هذه السبيل، فقد أدى شهادة لا تبقي بعدها أي درجة من درجات الشهادة.

الواجب المنصبي للمسلمين

وهذا هو واجب الرسالة، الذي قيل للمسلمين من أجله ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ وإذا نسوه ما عادوا إلا أمة عادية لا مزيد لهم ولا فضل على غيرهم، ولا يبالي الله تعالى أيقضون أيام حياتهم بالعز والرفعة أو بالذلة والمسكنة بين أمم الأرض وشعوبها، بل انهم إذا تغافلوا عن هذا الواجب يكونون في عداد الأمم المغضوب عليها من الله تعالى، من الذين ولا هم الله تعالى منصباً مهماً ولكنهم آثروا الضلال على الهدى فباؤوا بغضبه ونقمته. والله تعالى قد أوضح واجب المسلمين هذا في الآية نفسها التي قال لهم فيها ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ حيث جاء بعده: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ اما كيف يمكن القيام بهذا الواجب الجماعي فقد بينه الله تعالى بكل وضوح بقوله: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

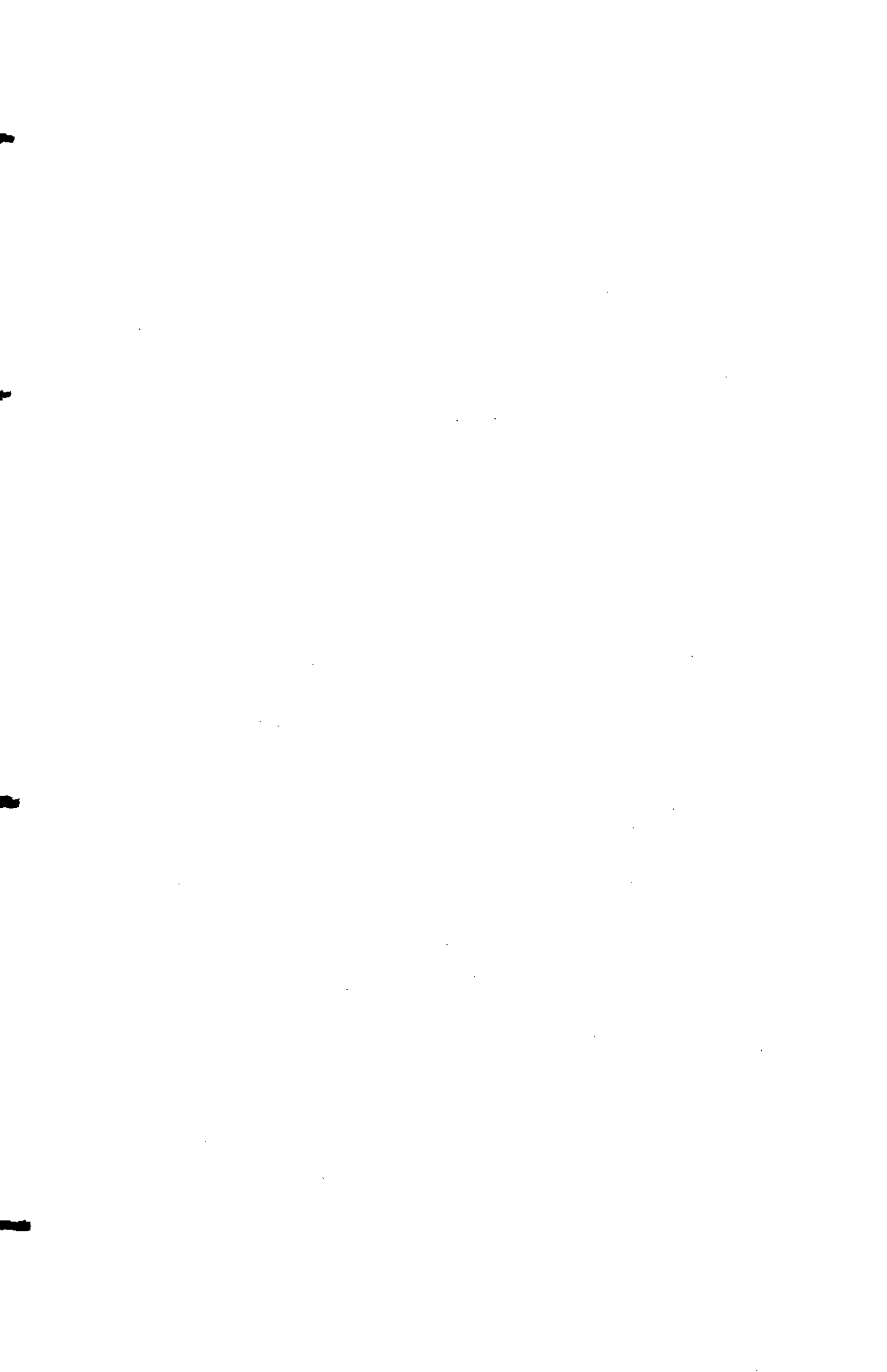
فأول عمل قام به المسلمون بعد النبي ﷺ امتثالاً لهذا الأمر الالهي الأكيد هو أن أسسوا الخلافة على منهاج النبوة. وقد كانت هذه الخلافة إدارة جماعية للدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أقامها المسلمون ليتمكنوا من تبرئة ذمتهم من واجبهم الجماعي الخطير الذي ألقي على كاهل الأمة بعد النبي ﷺ حتى تحمي أفرادها من أن يضلوا عن الصراط المستقيم وحتى تدعو الدنيا الى الحق. لقد كان كل فرد من أفراد المسلمين بريء الذمة من هذا الواجب ما دامت فيهم هذه الادارة تؤدي واجبها في داخل المسلمين وخارجهم على الوجه الصحيح المراد، وكان هذا الواجب - واجب الدعوة - فرض كفاية على المسلمين ظلت الخلافة تؤديه عنهم وتبرىء بذلك ذمتهم عند الله، ولكن كما أنه عندما ينتثر عقد النظام السياسي في قطر من الأقطار، تعود على الأفراد أنفسهم التبعة في حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ولا يزال كل واحد منهم يحمل هذه التبعة على نفسه ما داموا لا يصلحون نظامهم السياسي من جديد، فكذلك لما انتثر عقد هذا النظام الاسلامي في المسلمين، انتقل هذا الواجب - واجب الشهادة على الناس إلى جميع أفراد هذه الأمة بصفتهم الفردية، وأصبح كل واحد منهم يحمل وزر عدم أداء هذا الواجب وسيسأل عنه يوم القيامة، ما داموا لا يعيدون هذا النظام الاسلامي الخالص ويقيمونه على حسب ما أمرهم به الله عز وجل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إلى المتثاقلين عن الجهاد

للأستاذ سيّد قطب

١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾

إلى المتثاقلين عن الجهاد

إن الجهاد فريضة على المسلمين حتى لو كان عدد أعدائهم اضعاف عددهم وانهم منصورون بعون الله على اعدائهم. وان الواحد منهم كفء لعشرة من الأعداء. وكفء لاثنين في أضعف الحالات. وفريضة الجهاد إذن لا تنتظر تكافؤ القوى الظاهرة بين المؤمنين وعدوهم. فحسب المؤمنين أن يعدوا ما ستطاعوا من القوى. وأن يثقوا بالله. وأن يثبتوا في المعركة ويصبروا عليها. والبقية على الله. ذلك أنهم يملكون قوة أخرى غير القوى المادية الظاهرة.

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم: انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾[1].

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة

---

(١) التوبة : ٣٨ ـ ٣٩.

بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة. وانضمت إليهم لخم وجذام وعاملة وغسان من قبائل العرب فاستنفر الناس إلى قتال الروم وكان -ﷺ- قلما يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة من الحرب، إلا ما كان من هذه الغزوة [1] فقد صرح بها لبعد الشقة وشدة الزمان إذ كان ذلك في شدة الحر حين طابت الظلال وأينعت الثمار وحبب إلى الناس المقام. عندئذ بدأت تظهر في المجتمع المسلم أعراض تهيُّب وتردد، كما وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل فقالوا: لا تنفروا في الحر، وخوفوا الناس بعد الشقة وحذروهم بأس الروم وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها في تثاقل بعض الناس عن النفرة.

وهُدد المتخلفون بعاقبة التثاقل عن الجهاد في سبيل الله، والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله، قبل أن يكون معه منهم من أحد، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير.

إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض، ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمتاع، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب، ثقلة اللحم والدم والتراب.

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع

---

(١) تبوك.

على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجتنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة، وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود.

وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله، إلا وفي العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبه بها وهن، لذلك يقول رسول الله ﷺ : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق ». فالنفاق ـ وهو دخل من العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة من الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله والرزق من عند الله، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾.

والخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله، والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده فهو كذلك عذاب الدنيا، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من

أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء.

* * *

﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقّة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يُهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون﴾ (١).

لو كان الأمر عرضاً قريباً من أعراض هذه الأرض، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك! ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة.. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ومكان، فما هي قلة عارضة إنما هو النموذج المكرور.

وإنهم يعيشون على حاشية الحياة وإن خُيّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص.

* * *

---

(١) التوبة : ٤٢.

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين قد عرض ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين في كل زمان ومكان فردّ الله عليهم مناورتهم وكلّف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله لأنهم إنما ينفقون عن رياء وخوف لا عن إيمان وثقة، وسواء بذلوه عن رضاً منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين أو عن كره خوفاً من انكشاف أمرهم فهو في الحالتين مردود لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمّة وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، ولكن هذه الصفوف في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.

إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق، والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب، فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة، والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف ساعة الشدة ثم يعودون

إليه في ساعة الرخاء جناية على الصف كله وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير.

* * *

إن وراء حب الدعة وإيثار السلامة، سقوط الهمة، وذلة النفس وانحناء الهامة والتهرب من المواجهة.

* * *

في معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تصاغ، ويوماً بعد يوم وحدثاً بعد حدث كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو وتتضح سماتها وكانت الجماعة المسلمة التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة وقيمها الخاصة وطابعها المميز بين سائر الجماعات.

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحياناً درجة الفتنة وكانت فتنة كفتنة الذهب تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها فلا تعود خليطاً مجهول القيم.

وكان القرآن الكريم يتنزل في إبان الابتلاء أو بعد انقضائه يصوّر الأحداث ويلقي الأضواء في منحنياتها وزواياها فتنكشف المواقف والمشاعر والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهي

مكشوفة النور عارية من كل رداء وستار، ويلمس فيها مواضع التأثر والاستجابة ويربيها يوماً بعد يوم وحادثاً بعد حادث ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد.

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن يتنزل بالأوامر والنواهي وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات، والفتن والامتحانات، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة ولا تنضج نضجاً صحيحاً، ولا تصح ولا تستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية التي تحفر في القلوب وتنقش في الأعصاب وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث، أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته، وليواجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة ساخنة بحرارة الابتلاء قابلة للطرق مطاوعة للصياغة.

ان الله لم يدع المسلمين للمشاعر وحدها تربيهم وتنضج شخصيتهم المسلمة، بل أخذهم بالتجارب الواقعية والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي، وكل ذلك لحكمة يعلمها وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير وهذه هي التربية الحقيقية.

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلاً، ندركها ونتدبرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير.

حكمة التربية بالجهاد في سبيل الله.

•

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة. والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. ولن ينفع الفرار من دفع القدر المحتوم عن فارّ فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب في موعده القريب وكل موعد في الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل، ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته سواء أراد بهم سوءاً أو أراد بهم رحمة ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم ويمنعهم من قدر الله.

نعم: إن هناك ضعفاً في البشر. ولا يملك الناس أن يتخلصوا من ضعف البشر ومشاعر البشر، وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته فلهذا خلقهم الله. خلقهم ليبقوا بشراً ولا يتحولوا جنساً آخر لا ملائكة ولا شياطين ولا بهيمة ولا حجراً.

إن الناس يفزعون ويضيقون بالشدة ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة ولكن المؤمنين ـ مع كل ذلك ـ مرتبطون بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله وتمنعهم من السقوط وتجدد فيهم الأمل وتحرسهم من القنوط.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة أو ضقنا بالهول والخطر والشدة والضيق فعلينا ألا نيأس من أنفسنا وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبداً. ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا نمجده لأنه من

فطرتنا البشرية. ونصرّ عليه لأنه يقع لمن هم خير منا. ... هنالك العروة الوثقى، عروة السماء، وعلينا أن نستميسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيراً بالنصر فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن ونسير في الطريق.

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام، النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده وثباته على عهده مع الله فمنهم من لقيه ومنهم من ينتظر أن يلقاه.

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ [1].

* * *

واستعلاء المؤمن على الضعف البشري حين ينهض للجهاد في سبيل الله أمر ممكن وقد وقع فعلاً:

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ [2].

إنه نص رهيب!! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله وعن حقيقة البيعة التي أعطوها ـ بإسلامهم ـ طوال الحياة فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف « المؤمن » وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق.

---

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) التوبة : ١١١

حقيقة هذه البيعة ـ أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحةً أن الله ـ سبحانه ـ قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيء، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله، لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا. . . كلا . . . إنها صفقة مشتراة لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم لا يلتفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام. . . والثمن هو الجنة والطريق هو: الجهاد والقتل والقتال والنهاية: هي النصر والاستشهاد.

عونك اللهم! فإن العقد رهيب. . .وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم « مسلمين » في مشارق الأرض ومغاربها قاعدون لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. . ولا يقتلون ولا يقتلون ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال.

إنها بيعة رهيبة ـ بلا شك ـ ولكنها في عنق كل مؤمن ـ قادر عليها ـ لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها وأنا أخط هذه الكلمات.

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.

* * *

والمتخلفون عن الجهاد يخلعون هذه البيعة من أعناقهم، ذلك أنهم ناكلون متثاقلون لا يؤدون حق الله عليهم، وقد أغناهم وأقدرهم، ولا يؤدون حق الإسلام وقد حماهم وأعزهم، ولا يؤدون حق المجتمع الذي يعيشون فيه وقد أكرمهم وكفلهم، ومن ثم يختار الله ـ سبحانه ـ لهم هذا الوصف: ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾.

فهو سقوط الهمة، وضعف العزيمة، والرضا بأن يكونوا مع النساء والأطفال والعجزة الذين يخلفون في الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد وهم معذورون.. أما أولئك فما هم بمعذورين!

وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة، وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر وتطبع على القلوب والعقول. والحركة دليل الحياة ومحرك في الوقت ذاته للحياة، ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل وتشد العضل وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة، وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة والسلامة الذليلة.

* * *

إنهما طبيعتان... طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء... وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء... وإنهما خطتان.. خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولو الطول والمقدرة الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل جاؤوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها الله لهم، وشكر النعمة التي أعطاها الله إياهم ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن دون أن يستشعروا ما في هذه الفعلة الذليلة من صغار وهوان ما دام فيها السلامة. وطلاب السلامة لا يحسون بالعار فالسلامة هدف الراضين بالدون!

* * *

الفهرس